

تَارُ الْكُتُبِ الْخَيْوَتِيَّةِ

كُتَابُ

الْأَطْرَافِ

الْمُتَضَمِّنِ لِأَسْرَارِ الْبِسْلَاغَةِ وَعِلْمِ حَقَائِقِ الْأَعْجَازِ

تَأَلِيفُ

السَّيِّدِ الْإِمَامِ الْإِمَامِ الْأَمَّةِ الْكِرَامِ

أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِيحْيَى بْنِ حَمْزَةَ

بْنِ عَلِيِّ بْنِ آرَاهِمِ

الْعَلَوِيِّ الْبَيْهَقِيِّ

الْجِزْءُ الثَّانِي

طَبْعُ مَطْبَعَةِ الْمُتَنَطِفِ بِمِصْرَ

سنة ١٣٢٢ هـ

م ١٩١٤

فهرس

(الجزء الثانى من كتاب الطراز)

صحيفة	
٢	القاعدة الرابعة من قواعد المجاز فى ذكر أسرار التمثيل ومعناه
٨	تنبيه على ان المجاز فى الاستعمال ابلغ من الحقيقة
٩	الباب الثانى فى ذكر الدلائل الافرادية وبيان حقائقها وفيه اثنا عشر فصلاً
١١	الفصل الاول فى المعرفة والنكرة وفيه تقريران
١٥	الفصل الثانى فى الخطاب بالجملة الاسمية والفعلية وذكر التفرقة بينهما وفيه طرفان
٣٢	الفصل الثالث فى أحوال الفصل والوصل وفيه بحثان
٣٣	البحث الاول فيما يتعلق بالاحرف العاطفة
٥٣	البحث الثانى فيما يتعلق بالاحرف الجارة
٥٦	الفصل الرابع فى التقديم والتأخير وفيه احوال التقديم الخمس وتقريران
٦٥	التقرير الأول ما يجب تقديمه ولو تأخر لفسد المعنى وفيه صور خمسة

	صحيفة
التقرير الثانى فى بيان ما يجوز تقديمه ولو آخر لم يفسد معناه	٧٣
الفصل الخامس فى الابهام والتفسير	٧٨
الفصل السادس فى الايجاز والحذف وفيه ثلاثة أقسام	٨٨
القسم الاول فى بيان الايجاز بحذف الجمل وفيه أربعة	٩٣
أضرب	
القسم الثانى فى بيان الايجاز بحذف المفردات وفيه	١٠٠
سبعة أنواع	
القسم الثالث فى بيان الايجاز من غير حذف وفيه	١١٩
ضربان وأمثلة	
الفصل السابع فى بيان الالتفات	١٣١
الفصل الثامن فيما يتعلق بالاضمار وفيه خمس مسائل	١٤١
الفصل التاسع فى بيان منزلة اللفظ من معناه وفيه	١٤٩
قوانين أربعة	
القانون الأول فى بيان منزلة اللفظ من معناه وبيان	١٤٩
درجته منه	
القانون الثانى فى كيفية دلالاته على معناه وفيه ست مراتب	١٥٢
المرتبة الأولى فى الالفاظ المتواطئة	١٥٣

المرتبة الثانية في بيان الالفاظ المتباينة	١٥٤
المرتبة الثالثة في بيان الالفاظ المترادفة	١٥٥
المرتبة الرابعة في بيان الالفاظ المشتركة	١٥٥
المرتبة الخامسة في بيان الالفاظ المستغرقة	١٥٧
المرتبة السادسة في ايراد الفروق بين هذه الالفاظ	١٥٨
القانون الثالث في بيان قوة اللفظ لقوة المعنى وفيه أمثلة ثلاثة	١٦٢
القانون الرابع في جهة اضافة الكلام الى من يضاف اليه	١٦٦
الفصل العاشر في الاعتراض وفيه مدخلان	١٦٧
المدخل الأول يتعلق بعلم الاعراب	١٦٨
المدخل الثاني يتعلق بالبلاغة والفصاحة وفيه ضربان	١٦٩
الفصل الحادى عشر في التأكيد وفيه مجريان	١٧٦
المجرى الأول عام	١٧٦
المجرى الثانى خاص وفيه قسمان	١٧٦
القسم الأول ما يكون تأكيداً في اللفظ والمعنى جميعاً	١٧٧
القسم الثانى ما يكون تأكيداً في المعنى دون اللفظ وفيهِ ضربان	١٨٣

صحيفة

- ١٩٠ الفصل الثاني عشر في بيان المفردات التي خرجت عن هذه الفصول وفيه ثلاثة أصناف
- ١٩١ الصنف الأول ما يتعلق بالاسماء وفيه ثلاث صور
- ١٩٨ الصنف الثاني ما يتعلق بالافعال
- ٢٠٠ الصنف الثالث ما يتعلق بالحروف وفيه سبع صور
- ٢٢١ الباب الثالث في مراعاة احوال التأليف وبيان ظهور المعاني المركبة وفيه ثلاث قواعد وستة فصول
- ٢٢٢ القاعدة الأولى فيما يجب على الناظم والناثر مراعاته في اساليب الكلام
- ٢٢٣ القاعدة الثانية يجب عليهما مراعاة ما يقتضيه اللفظ من الحقيقة والمجاز
- ٢٢٤ القاعدة الثالثة يجب عليهما مراعاة أحوال التأليف بين الالفاظ المفردة
- ٢٢٩ الفصل الأول في ذكر الاطناب وبيان معناه وفيه ثلاثة مباحث
- ٢٣٠ البحث الأول في ماهيته والفرقة بينه وبين التطويل
- ٢٣٤ البحث الثاني في ذكر اقسام الاطناب

	صحيفة
البحث الثالث في ذكر امثلة الاطناب وفيه انواع ونكت	٢٤٤
الفصل الثاني في المبادئ والافتتاحات وفيه طرفان	٢٦٦
الفصل الثالث في ذكر الاستدراجات وفيه اربعة امثلة	٢٨١
الفصل الرابع في الامتحان وفيه ثلاث مراتب وثلاثة امثلة	٢٩٩
الفصل الخامس في الارصاد وفيه اربعة امثلة	٣٢٠
الفصل السادس في ذكر التخلص والاقتضاب	٣٣٠
الباب الرابع من فن المقاصد في ذكر انواع البديع وبيان اقسامه وفيه عشرون صنفاً	٣٥٣
الصنف الأول التجنيس وفيه قسمان وضروب عشرة	٣٥٥
الصنف الثاني الترصيع	٣٧٣
الصنف الثالث التطبيق وفيه اربعة اضرب	٣٧٧
الصنف الرابع رد المعجز على الصدر	٣٩٠
الصنف الخامس لزوم ما لا يلزم	٣٩٧
الصنف السادس في ذكر اللف والنشر	٤٠٤

فهرس

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٧	كان	كانا
١٨	١٢	الوحشة	للاوحشة
٢٠	١٢	سالما إِمَّا	إِمَّا سالما
٣٠	٣	وإِيشاره	وإِيشاره
٣٥	.	فيها	فيهما
٤٢	١٠	فيقولون	يقولون
٤٧	١٧	وجرّ	جرّ
٩٠	١٧	فهمه بمعناه	فهمهم لمعناه
١١٢	٣	أَيْل	أَبْل
١١٣	١٠	مما	بما
١١٨	٢	مكتوب	مكتوباً
١٢٧	١٧	تقل عنه	نقل عنهم
١٢٢	٧	مقصود	مقصود
١٤٢	١٢	خلطناها	خلطناها
١٧٧	١٦	فيه	فيها

صحيحة	سطر	خطأ	صواب
١٨٣	٢	حكيناها	حكيناها
٢٠٠	٣	أفراد	أفرادا
٢٠٩	٤	فتعيقه	فتعقيه
٢١٩	١٢	إيردها	إيرادها
٢٣٠	١٢	تريد	ترديد
٢٤٢	١٢	التقرير	التكرير
٢٧٥	١٧	استقر	واستقر

خَزَائِنُ الْكُتُبِ الْخَيْوِيَّةِ

كُتَابُ

الْأَطْرَافُ

المتضمن للأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز

تأليف

السيد الامام امام الائمة الكرام
امير المؤمنين يحيى بن حمزة
بن علي بن ابراهيم
العلوي اليمني

الجزء الثاني

طبع بمطبعة المقتطف بصر

سنة ١٣٢٢ هـ
سنة ١٩١٤ م

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

... القاعدة الرابعة من قواعد المجاز ...

(في ذكر أسرار التمثيل ومعناه)

اعلم أن علماء البيان وفرسان البلاغة بالاضافة الى ترجمة هذه القاعدة فريقان ، الفريق الأول أدرجوها في ضمن قاعدة التشبيه، ولم يفصلوا بينهما تفصيلاً وهذا هو الظاهر من كلام المطرزي، فأما ابن الأثير فقد صرح بكونهما باباً واحداً لا تفرقة بينهما وتعجب ممن فصل بينهما قال وما أعلم كيف خفي على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه، وحكى أن بعض علماء البيان قد فصل بينهما وغير بين حقيقتيهما وهما عنده شيء واحد، الفريق الثاني وهم الذين فرقوا بينهما، وهذا هو ظاهر كلام ابن الخطيب الرازي في نهاية الإيجاز، وعبد الكريم صاحب التبيان، فانهم ميزوا أحدهما عن الآخر وفرقوا بينهما، وقالوا: إن التشبيه غير معدود من المجاز، بخلاف التمثيل، فإنه معدود من جملة قواعده، وإن كانا

كلاهما معدوداً من أودية البلاغة ، فهذا مغزى كلام الفريقين
في الردّ والقبول ، وهذا الخلاف يقرب أن يكون لفظياً ،
وليس وراءه كبير فائدة ، والمختار عندنا تفصيلٌ نُشير إليه ،
وحاصله أنا نقول ، القاعدة التي رسمناها من أجل التشبيه ،
إنما كانت بمظهر الأداة ، كما أوردنا أمثله ، وفصلناها
وعدّدنا ما كان من التشبيه مضمراً الأداة ، فهو من باب
الاستعارة ، وأوضحنا الأمر فيما يظهر على القرب فيه التشبيه ،
وما يُستنبط على البعد فأغنى عن تكريره ، فإذا عرفت هذا
فاعلم أن كل ما كان من التمثيل تظهر فيه أداة التشبيه ، كالسكاف ،
وكأن ، فإنه معدودٌ من جملة التشبيه ، ولا يفترقان بحال ، لأن
التشبيه أكثر ما يطلق على ما كانت الأداة فيه ظاهرة ،
فأمّا ما كانت الأداة فيه غير ظاهرة ، فهو التمثيل ، فإنه
لا يقال له تمثيلٌ إلا إذا كان وارداً على حدّ الاستعارة ،
ولهذا فإنّ الزمخشريّ رحمه الله في تفسير قوله تعالى « ختم الله
على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » الآية ، تارةً
يجعله من باب التمثيل ، وتارةً يجعله وارداً على حدّ الاستعارة ،
وعلى الجملة فالأمر فيه قريبٌ . فان الاستعارة ، والتمثيل ،
والكناية ، كلّها معدودٌ من أودية المجاز ، بخلاف التشبيه ،

فإن ما كان منه مضمراً الأداة ، فهو معدودٌ في الاستعارة
والتمثيل ، وهو مجازٌ ، وما كان مظهر الأداة فليس معدوداً من
المجاز ، وإن عدَّ في البلاغة كما أسلفنا تقريره ، ومن غريب
أمثلة التمثيل ما قاله ابن الرومي

إذا أبو قاسم جادت لنا يده
لم يُحمدِ الأجودانِ البحرُ والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوارُ غرته
تضائل النيرانِ الشمسُ والقمرُ
وإن نضا حده أو سلَّ عزمته
تأخرَ الماضيانِ السيفُ والقدَرُ
من لم يبيت حذراً من سَطَوْ صولته
لم يدْرِ ما المزعجانِ الخوفُ والحذرُ
ينالُ بالظنِّ ما يعي العيانُ به
والشاهدانِ عليه العينُ والأثرُ

ومن ذلك ما قاله أبو تمام
مها الوحشِ الآنَ هاتا أو انيسُ
قنا الخطِ إلا أن تلتك ذوابلُ

ومن جيد ما يُقال في أمثلة التمثيل قوله تعالى « أفرايت
مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبَهُ
وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً » مثل الله تعالى حال من انقاد لهواه،
واستولى عليه سلطانه، حتى صار عقله موطوءاً بقدم الهوى،
وجعل في إيسار الذلّ، وربقة الملكة وحصل غالباً عليه في
جميع أحواله مطيعاً له في كلّ أموره، بحال من له إلهٌ يعبدُه،
ويطيعُه في جميع أوامره ونواهيه، ثم لما علم الله تعالى من
حاله ما ذكرناه أضناه بترك الألفاف الخفية على علمٍ
باستحقاقه للخذلان لإعراضه، ومثّلت حالته فيما صار إليه من
الخذلان بسلب الألفاف، بحال من ختم على سمعه، وقلبه،
وجعل على بصره غشاوة، في النكوص والتمرد عن الهدى،
وسلوك جانب الغي، وركوب غارب البغي، فمن هذه حاله لا
يُرْجى صلاحه، فهكذا حال من ساعد هواه وكان مطيعاً له في
الأمور كلها، ومن التمثيل الرائق قوله تعالى « وجعلنا على
قلوبهم أكنةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » وقوله « وجعلنا من بين أيديهم
سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشىناهم فهم لا يبصرون » فهم
لإعراضهم عن الدين، وإصرارهم على المخالفة لما جاء به
الرسول صلى الله عليه وسلم وبلوغ الغاية في الصدّ والنكوص،

مُثَلُّونَ بِحَالٍ مِّنْ جُعِلَ عَلَى قَلْبِهِ كِنَانٌ فَهُوَ لَا يَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهُ ،
وَلَا يَرْعَى لِقَبُولِهِ ، وَبِحَالٍ مِّنْ ضُرِبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُرَادِهِ بِسَدِّ
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَمِنْ خَلْفِهِ ، فَهُوَ لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ ، وَلَا يُمَكِّنُهُ
الْوَصُولُ إِلَى بُغْيَتِهِ بِحَالٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى « مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ » فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ
التَّمَادِي فِي رُكُوبِ الْبَاطِلِ ، وَإِكْبَابِهِمْ عَلَى الْجُحُودِ
وَالكُتْمَانِ لِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، وَقِطْعُ الرَّجَاءِ بِخَيْرِهِمْ ، وَسَدُّ
الطَّرِيقَةِ ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَدٌّ ، وَمِنْ خَلْفِهِ سَدٌّ ، وَأُغْشِيَ
عَلَى بَصَرِهِ ، تَعَطَّلَ ، فَأَتَى يَكُونُ لَهُ اهْتِدَاءٌ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ ،
وَسُلُوكٌ بِسَبِيلِهِ ، وَهَذَا بَابٌ مِنْ فَنِّ الْبَلَاغَةِ يُقَالُ لَهُ التَّخْيِيلُ ،
وَسَنُورِدُ فِيهِ حَقَائِقَ وَأَمْثَلَةَ شَافِيَةً عِنْدَ الْكَلَامِ فِي مَعَانِي
الْبَدِيعِ ، وَخِصَائِصِهِ ، وَمِمَّا وَرَدَ مِنَ التَّمَثِيلِ فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ
قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِيَّاكُمْ وَفُضُولَ الْمَطْعَمِ فَإِنَّهُ يُسَمُّ
الْقَلْبَ بِالنَّسْوَةِ ، وَيَبْطِئُ الْجَوَارِحَ عَنِ الطَّاعَةِ ، وَيُضْمُّ
الْأَذَانَ عَنِ سَمَاعِ الْمَوْعِظَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَفُضُولَ النَّظَرِ ، فَإِنَّهُ يَبْذُرُ
الْهَوَى ، وَيُولِدُ الْغَفْلَةَ » وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « حَلُّوا
أَنْفُسَكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَأَلْبِسُوهَا قِنَاعَ الْمَخَافَةِ ، وَاجْعَلُوا حَرِّكُمْ

لأنفسِكُمْ ، وسعيِكُمْ لستقرِّكُمْ » ومن كلام أمير المؤمنين
في التمثيل ، في كلام يُشير به الى الخوارج « حَاوَلَ الْقَوْمُ
إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ ، وَسَدَّ فَوَارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ ،
وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَشْرَبًا وَبَيْثًا ، فَإِنْ تَرَفَعْنَا عَنْهُمْ
مَحْنُ الدُّنْيَا أَحْمَلَهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ ، وَإِنْ تَكُنْ
الْآخِرَى فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » وقال في كلام
يصف به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وذمه للدنيا « قَضَمَ
الدُّنْيَا قَضْمًا ، وَلَمْ يُعْرِهَا طَرْفًا ، أَهْضَمَ أَهْلَ الدُّنْيَا كَشْحًا ،
وَأَخْمَصَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا ، أَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ ، وَأَمَاتَ
ذِكْرَهَا عَنِ لِسَانِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ »
وقال في وصف أهل الدنيا « يُمَسِّي مَعَ الْغَافِلِينَ ، وَيَعْدُو مَعَ
الْمَذْنِبِينَ ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ ، حَتَّى إِذَا كُشِفَ
لَهُمْ عَنِ جِزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ وَاسْتُخْرِجُوا مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ ،
اسْتَقْبَلُوا مُذْبِرًا ، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أُدْرِكُوا
مِنْ طَلَبَتِهِمْ وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ ، وَلَنْتَقْتَصِرَ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ
فِي التَّمثِيلِ فَفِيهِ كِفَايَةٌ ، فَيَنْحَلُّ مِنْ مَجْمُوعِ مَا ذَكَرْنَاهُ مَفَارِقَتُهُ
لِلتَّشْبِيهِ بِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِعَارَةِ ، عَلَى

أن الاستعارة في المفرد والمركب كما مهّدناه من قبل ، بخلاف التمثيل ، فإنه إنما يرد في المركب من الكلام كما أوضحناه في هذه الأمثلة

﴿ تنبيه ﴾

اعلم أن أرباب البلاغة وجهابذة أهل الصناعة ، مطبقون على أن المجاز في الاستعمال أبلغ من الحقيقة ، وأنه يلطف الكلام وبكسبه حلاوة ، ويكسوه رشاقة ، والعلم فيه قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر » وقوله « وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » فلو استعمل الحقائق في هذه المواضع ، لم تعط ما أعطى المجاز من البلاغة ، وهكذا فإن الاستعارة أبلغ مما يظهر فيه التشبيه ، لأن قولك جاءني أسد أبلغ من قولك زيد كالأسد ، لأنك جعلته في الأول نفس الأسد وفي الثاني ليس إلا مشابهة لا غير ، فأما الكناية ، والتمثيل ، فهما نوعان من أنواع الاستعارة ، والاستعارة أعم فيهما كما أوضحناه من قبل ، لكن الكناية مؤدية للحقيقة ، والمجاز بخلاف الاستعارة ، والتمثيل ، من حقه أن يرد في المركبات ، فلاجل هذا كان جميعاً أعنى الكناية والتمثيل أخص من

الاستعارة ، وقد نَجَزَ غرضنا من تقرير الباب الأول وهو
حصرُ قواعد المجاز ، وإظهار أمثلتها وأحكامها ، وأشرعُ الآن
في الباب الثاني مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه

— ❦ الباب الثاني ❦ —

(في ذكر الدلائل الإفرادية وبيان حقائقها)

اعلم أن اللفظ في دلالاته على ما يدلُّ عليه لا يخلو حاله ،
إمّا أن يكون بالإضافة الى مفرداته ، أو بالإضافة الى ما
تركب منه ، فالأولُ هو الدلالةُ الإفرادية ، وهذا كدلالة
لفظ الرجل ، ، والأُسْد ، والإنسان ، على معانيها المفردة ،
فإنها دالةٌ عليها من غير إضافة أمر إليها ، لا سلباً ولا إيجاباً ،
والثاني هي الدلالةُ التركيبية ، وهذا كدلالة قولنا زيدٌ
قائمٌ ، وعمرٌ خارجٌ ، فإنَّ ما هذا حاله دالٌّ على معنى مركب ،
وهو إضافة هذه الأحكام لتحصل من أجلها الفائدة المركبة ،
وهذا هو الكلامُ في السنة النجاة ، ويُقال له الجملةُ ، ثم إنَّ
الفائدة التي يفيدها الكلامُ على وجهين ، أحدهما أن تكون
من جهة ذاته كقولنا زيدٌ قائمٌ ، وعمرٌ منطلقٌ ، فإنَّ ما هذا

حاله فإنه لا يحتاج في إفادة ما يفيدُه إلى أمرٍ وراء هذه الجملة ،
وثانيهما ان تكون مستفادَةً من جهةٍ أُخرى ، إمّا من جهة
الكناية كما يقال في المرأة هي نَوُومُ الضُّحَى فإنه يدلُّ على كونها
مُتَرَفِّهَةً وإمّا من جهة الاستعارة كما يقال (بين أثوابه أسدٌ
هَضُورٌ) استعاره للشجاعة ، وإمّا من جهة التمثيل كقولنا
(فلان يُقَدِّمُ رجلاً ويؤخِّرُ أُخرى) تمثيلاً لتحيرُه في الأمر ،
وإمّا من جهة الاقتضاء كقوله تعالى « فقلنا اضرب بعصاك
الحجرَ فأنفجرتُ » المعنى فضرب فانفجرت وكقوله صلى الله
عليه وسلم « لاتضحوا بالعموراء » فدخول العمياء من جهة الاقتضاء
إلى غير ذلك من التعليقات التي يشعر بها الكلام ويقتضيها ،
وكان من حقنا إيراد الكلام في المجاز وأنواعه لكونه من
الدلائل الإفرادية ، لكننا جعلنا له باباً على حياله لأمرين ،
أما أولاً فلما اختلفت به من مزيد الاعتناء ، وأكيد الاهتمام ،
وعظم موقعه في البلاغة ، وأما ثانياً فن أجل كثرة مسائله
وانتشار حواشيه ، فلأجل هذا قدّمناه وأفردنا له باباً على
حياله غير مضموم إلى سواه ، فاذا تمهدت هذه القاعدة فاعلم
أن مقصودنا من هذا الباب منحصرٌ في عشرة فصول

﴿ الفصل الأول ﴾

(في المعرفة والنكرة)

اعلم أن المعرفة ، ما دلت على شيء بعينه ، والنكرة ، ما دلت على شيء لا بعينه ، ولا يجوز تعريف حقيقة المعرفة بأمر لفظي لأمرين ، أمّا أولاً فلأن المقصود بيان الماهية ، وهذا لا يحصل إلا بالأمر المعنوية دون اللفظية ، وأمّا ثانياً فلأن بعض المعارف يكون في معنى النكرة كقولنا : ضاربك ، وأرسلها العراك ، والجماء الغفير ، ثم إن المعارف خمس المضمرة ، والأعلام ، وأسماء الإشارة ، ثم المعارف باللام ، ثم المضاف إلى واحد من هذه إضافة معنوية ، لا لفظية ، وهي متفاوتة في التعريف ، فأعرفها المضمرة ، ثم العلم ، على الترتيب الذي أسلفناه على اختلاف في ذلك بين النحاة ، المذكور في موضعه ، وكما كانت المعارف متفاوتة في مراتب التعريف ، فكذا حال النكرات ، فكل نكرة هي أعم من غيرها فهي أبهم ، وجملتها شيء ، ثم جسم ، ثم حيوان ، ثم إنسان ، ثم رجل ، فكل واحدة من هذه النكرات هي أدخل في الإبهام ، والتنكير ، مما بعدها كما تراه

في صورها ، فقولنا : شئٌ ، أعم من قولنا : موجودٌ ، لأن قولنا شئٌ ، مندرج تحته الموجودُ والمعدومُ ، وهل يطلق قولنا : شئٌ ، على المعدوم حقيقةً أو مجازاً ، فيه خلافٌ بين المتكلمين ، فمن قال منهم إن المعدوم ذاتٌ في حال عدمه كان إطلاقه عليه حقيقةً ، ومن قال منهم ليس ذاتاً في حال عدمه ، وإنما هو نفيٌ صرفٌ كان إطلاقه عليه بطريق المجاز ، وقد قرّرنا ما هو الحق في هذه المسألة في الكتب العقلية ، فإذا عرفت هذا فاعلم أن المعرفة ، والنكرة يتعلقُ بكل واحدٍ منهما معانٍ دقيقة متعلقةٌ بأسرار البلاغة ، فلا جرم أوردناها في هذا الفصل ، وفيه تقريران ، التقريرُ الأول في النكرة ، ولها أحكامٌ ، الحكمُ الأول ، النكرة إذا أُطلقت في نحو قولك : رجلٌ ، وفرسٌ ، وأسدٌ ، ففيها دلالةٌ على أمرين ، الوحدة ، والجنسية ، فالقصدُ يكون متعلقاً بأحدهما ، ويحيى الآخرُ على جهة التبعية ، فأنت إذا قلت : أرجلٌ في الدار أم امرأةٌ ، حصل بيانُ الجنسية ، والوحدة جاءت تابعةً غير مقصودة ، وإذا قلت : أرجلٌ عندك أم رجلان ، فالغرض ههنا الوحدة ، دون الجنسية ،

الحكمُ الثاني هو أن التنكير قد يحيى لفائدة جزلة

يَقْصُرُ عَنِ إِفَادَتِهَا الْعَلَمَ ، وَلَا يَبْلُغُ كُنْهَهَا رَسْمُ الْقَلَمِ ، وَمِثَالُهُ
قَوْلُهُ تَعَالَى « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » وَقَوْلُهُ تَعَالَى
« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ » فَتَنْكِيرُ الْحَيَاةِ هَهُنَا
أَحْسَنُ مِنْ تَعْرِيفِهَا ، وَإِنَّمَا وَجِبَ ذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ ، أَمَّا أَوَّلًا
فَلِأَنَّهُ لَا يَحْرُسُ إِلَّا الْحَيُّ ، وَهُوَ لَا يَسْتَقِيمُ حَرِصُهُ عَلَى أَصْلِ
الْحَيَاةِ الْمَعْهُودَةِ ، وَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ حَرِصُهُ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ الْحَيَاةِ فِي
الْأَزْمِنَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَتْ نَكْرَةً لِأَنَّ
الْمَعْنَى فِيهَا عَلَى أَنَّهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى أَنْ يَزْدَادُوا حَيَاةً إِلَى
حَيَاتِهِمْ ، وَلَوْ عَاشُوا مَا عَاشُوا ، وَأَمَّا ثَانِيًا فَلِأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ
نَكْرَةً فَالْتَنُونِ مَصَاحِبُ لَهَا ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَاهَا ،
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ أَيْ حَيَاةٍ لِأَنَّهَا مَسْوُوقَةٌ
لِلْمُبَالَغَةِ ، وَلَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ إِلَّا بِالتَّقْدِيرِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ،
وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » لِأَنَّ الْوَاحِدَ
مِنَا إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا قُتِلَ ، قُتِلَ ، فَإِنَّهُ لَا مَحَالَةَ يَرْتَدِعُ عَنِ
الْقَتْلِ ، فَيَسْلَمُ هُوَ وَصَاحِبُهُ ، فَتَصِيرُ حَيَاةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي
الْمُسْتَقْبَلِ مُسْتَفَادَةٌ مِنْ جِهَةِ الْقِصَاصِ ، مَضْمُومَةٌ إِلَى الْحَيَاةِ
الْأَصْلِيَّةِ ، وَلَا يَحْصُلُ هَذَا إِلَّا مَعَ التَّنْكِيرِ ، لِأَنَّهُ يَفِيدُ التَّجَدُّدَ ،
وَالتَّعْرِيفُ لَا يُعْطِيهِ وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ »

وقوله تعالى « ونزّل من القرآن ما هو شفّاء » الى غير ذلك من الآيات التي يكون فيها التنكير أبلغ من التعريف في تقرير المقاصد المعنوية

الحكم الثالث المطلق هو نحو قولك . رجلٌ ، وأسد وله تعريفان

(التعريف الأول)

ذكره ابن الخطيب ، وحاصل ما قاله أنّه اللفظ الدالّ على الحقيقة من حيث هي من غير أن يكون فيه دلالة على شيء من قيود تلك الحقيقة، سلباً كان ذلك القيد أو إيجاباً

(التعريف الثاني)

ذكره عبد الكريم صاحب التبيان ، وهو محكي عن القدماء ، وهو الدالّ على واحد لا بعينه ، هذا ملخص ما قيل في حدّ المطلق ، قال ابن الخطيب الرازي والحدّ الأول أولى ، لأن الوحدة والتعيين قيدان زائدان على الماهية ، وما هذا حاله لا يجوز أن يكون تعريفاً للمطلق ، ولا حدّاً له ، وذكر الشيخ عبد الكريم أنّ ما ذكره القدماء في حدّ المطلق هو الذي يجب التعويل عليه ، وقال إنّ الوحدة ، والتعيين إنما

يكونان قيدين زائدين على الماهية في غير حدّ المطلق ، فأما في المطلق فلا ، ولو صحّ ما قاله لم يتّجه فرقٌ بين قولنا: أسدٌ ، وأسامةٌ ، وثعلبٌ ، وثمانةٌ ، الى غير ذلك من أعلام الأجناس والذي يتّجه فرقاً بينهما ، أن اللفظ إن قصد به الحقيقة من حيث هي هي ، فهو معرفةٌ ، كأسامة ، فإنه موضوعٌ على الحيوان المفترس من حيث هو هو ، وإن قصد باللفظ واحداً من تلك الحقيقة ، فهو نكرة كأسد ، هذا محصولُ كلامهما في حد المطلق ، والمختارُ ما عوّل عليه ابن الخطيب في حدّ المطلق ، لأن الحدّ الثاني فيه التقيّد بالوحدة ، والتعيين ، وهما منافيان للإطلاق ، لأن الشيء لا يكون مطلقاً مقيداً ، فأما ما قاله الشيخ عبد الكريم من أنه لو صحّ تحديده بما ذكره لم يتّجه فرقٌ بين قولنا: أسدٌ ، وأسامة ، فالعله لا يجعلهما من باب المطلق ، لأنّ أحدهما دالٌّ على التعيين ، وهو قولنا : أسامة ، لأنه موضوعٌ على الحقيقة الذهنية من حيث هي هي ، وأحدُهما دال على الوحدة وهو قولنا : أسد ، وإذا لم يكونا مطلقين لم يردا اعتراضاً على ما ذكره من الحدّ ، وكانت التفرقة بينهما حاصلةً من الوجه الذي ذكره ، ولو قيل في حد المطلق ، هو اللفظ الدالُّ على حقيقة من غير قيد، لكان جيداً

﴿ خيال وتنبيه ﴾

فإن قال قائلٌ . قد ذكرتم الوجه في تنكير الحياة في قوله تعالى « ولكم في القصص حياة » فما وجه تنكير السلام في قصة « يحيى » في قوله تعالى « وسلامٌ عليه يومَ وُلد » وتعريف السلام في قصة « عيسى » في قوله تعالى « والسَّلامُ علىَّ يومَ وُلدتُ ويومَ أموتُ » ثم إذا كان التنكير في السلام هو المطرد كقوله . سلامٌ على نوحٍ ، سلامٌ على آل ياسين ، وغير ذلك ، فما وجه نصبه في سلام الملائكة في قوله تعالى « قالوا سلاماً » ورفعِهِ في سلام ابراهيم في قوله تعالى « قال سلامٌ » فمن حقِّكم إيرادُ التفرقة في هذه الأمور ليكمل الغرضُ في تقرير قاعدة التنكير ، والجواب أمّا ما ذكره أولاً من تقرير فائدة التنكير في قوله تعالى « ولكم في القصص حياة » فقد أوردنا ما قاله علماء البيان في ذلك ، فأغنى عن إعادته، والمعتمدُ عندنا أن العلة في إِيثار التنكير على التعريف ، هو أنّ الغرض إِيخارجُها مُخْرَجَ الإِطلاق عن كلّ قيد من القيود اللازمة لها ، من تعريفٍ أو تخصيصٍ ، لأن التقدير إنّ لكم في القصص حياةً بالغة في اللطْفِ مبلغاً عظيماً .

وجامعةً لجميع مصالح الدّين ، والدنيا ، ونازلةً في الاستصلاح منزلاً تقاصرت العبارة عن كُنْهِهِ ، فحُذفت هذه القيود كلها ، وأُطلقت إطلاقاً ، وعوض التنوين عن هذه القيود ، كما جعل عوضاً في يومئذ ، وحينئذ ، عن جميع الجمل السالفة ، وفيه من التعظيم والفضامة ما يُرى ، فهذا هو الوجه اللائق بفصاحة القرآن ، دون ما ذكره علماء البيان ، وأما ما ذكره ثانياً من تنكير السلام في قصة يحيى ، وتعريفه باللام في قصة عيسى ، فإنما كان ذلك التنكيرُ وارداً في قصة يحيى عليه السلام لأن التحية كانت من جهة الله تعالى في المواطن الثلاثة ، وسلاماً ما كان من جهة الله مُعْنٍ عن كل تحية (قليلك لا يُقال له قليل) ومن ثم لم يرد السلام من جهة الله إلا منكرًا كقوله تعالى « سلامٌ قولاً من ربِّ رحيمٍ » وقوله « اهبط بسلامٍ منا » وقوله تعالى « سلامٌ على نوحٍ » ولو كانت معرفة لكان لا فائدة في تعريفها ، وأما تعريف السلام في حق عيسى عليه السلام ، فإنما كان ذلك من أجل أنه ليس وارداً على جهة التحية من الله تعالى ، وإنما هو حاصلٌ من جهة نفسه ، فلا جرم جيء بلام التعريف ، إشعاراً بذكر الله تعالى ، لأن السلام اسمٌ من أسمائه ، وفيه تعرُّضٌ لطلب السلامة ، ولهذا (الطراز) — ٣ —

فإنك إذا ناديت الله باسم من أسمائه ، فإنك متعرضٌ لما اشتق منه ذلك الاسم فتقول في طلب الحاجة ، يا كريم ، وفي سؤال مغفرة الذنب ، يا عفو ، يا غفور ، يا رحيم ، يا حلیم ، لما كان ذلك مناسباً ملائماً لما أنت فيه ، فهذا أوردته باللام ، تعرضاً للسلامة ، وطلباً لها باسم الله تعالى ، وجوّاراً إليه ، ومن أجل ذلك كان اختتام الصلاة بالسلام المعروف باللام لكونه اسماً من أسماء الله ، لما كان افتتاحها باسم من أسمائه ، ومن جوز السلام بغير اللام ، فهو بمعزل عن هذه الأسرار ومعرضٌ عن هذه المقاصد ، وأما ما ذكره ثالثاً من نصب سلام الملائكة ، ورفع سلام إبراهيم ، فلأن سلام الملائكة إنما ورد على جهة الإشعار بالفعل ، وكونه مصدرًا عنه تقريراً لخاطره ، وإزالة الوحشة الحاصلة من جهتهم بامتناع الأكل ، كما نبّه عليها بقوله تعالى « فأوجس منهم خيفة » وهذا المعنى إنما يظهر بالنصب بخلاف السلام من جهة إبراهيم ، فإنما هو واردٌ على جهة التحية ، كأنه قال منى سلام ، أو عليكم سلام ، غير متعرضٍ لتقييد الفعل ، والانتصاب عنه ، أو نقول ليس واردًا على جهة التحية ، وإنما هو تعرضٌ للمصالحة والمسالمة ، وقد نبّه على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : اقرأوا .

« قال سلامٌ ، قَوْمٌ مُنْكَرُونَ » ومن ثمَّ قال أهلُ التحقيق من علماء البيان . إن سلام ابراهيم أبلغ من سلام الملائكة يشيرون به الى ما ذكرناه

﴿ التقرير الثاني ﴾

(المعرفة)

اعلم أن المعارف أجناسٌ مختلفة كما أسلفنا حصرها ، لكننا إنما نتعرض للمعرفة باللام ، لاختلاف المعاني بها ، فقد تكون واردة في المبتدئ وقد تكون واردة في الخبير ، فهاتان حالتان ، الحالة الاولى أن تكون واردة في المبتدئ ، ودخولها فيه يكون على أوجه أربعة ، أولها أن تكون داخلة لإفادة تعريف الجنسية الحاصلة في الذهن ، ومثاله قولنا أهلك الناس الدينار والدرهم ، والرجل خير من المرأة ، الى غير ذلك من الحقائق الذهنية ، وهكذا قولنا . أكلت الجُبْنَ ، وشربت الماء ، ودخلت السوق ، لأنه ليس الغرض الاستغراق ولا المقصودُ بذلك عهديةً سابقةً ، وإنما الغرضُ ما قلناه من إفادة التعريف للحقائق الذهنية التي لا وجود لها في الخارج ، نعم إذا وجدنا صورة مفردة في الخارج ، فهل

تكون الحقيقة الذهنية حاصلةً في الخارج ، أم لا ، فيه مذهبان ، أحدهما أنها غير موجودة ، بل يستحيل وجودها في الخارج ، وهذا هو المحكيُّ عن ، (إِرَاسْطُو) ، وثانيهما أنها موجودة عند وجود المفردة وهذا هو المحكيُّ عن ، (أَفَلَاطُون) ، والمختارُ ما قاله (إِرَاسْطُو) ، وهو بحثٌ كلاميُّ ، وقد ذكرناه في الكتب العقلية

وثانيها أن تكون داخلةً لإفادة تعريف العهدية ، وهذا كقولك : لبستُ الثوبَ ، وأخذتُ الدراهمَ ، لثوبٍ ودراهمٍ معهودين ، بينك وبين مُخَاطَبِكَ وما هذا حاله لا يدلُّ التعريف الا على صورةٍ واحدةٍ من غير زيادة ، وثالثها أن تكون دالةً على الاستغراق ، وهذا كقولك : جاءني الرجالُ ، وقد ترد في الجمع الحقيقي سائماً إما كقولك : المؤمنون ، والزيدون ، وإمّا مكسراً كقولك : الرجالُ ، والدراهمُ ، وإمّا أسماء جمع كقولك . الناس ، والرَهْطُ ، والنفرُ ، وقد ترد في الاسم المفرد كقولك . الرجلُ خيرٌ من المرأة وهي في جميع هذه الموارد دالةٌ على الاستغراق في الصور المفردة التي لانهاية لها ، ورابعها ان تكون داخلةً للزيادة من غير إفادة للتعريف ، وهذا نحو دخولها في الأعلام ، ودخولها فيها قد يكون على

جهة اللزوم لا يجوز نزعها منه كقولك . النجمُ للثريا ، ونحو
أيام الأسبوع ، وغير ذلك ، وقد تكون غير لازمة إما في
الصفة كقولك ، المظفر ، والعباسُ ، وإما في المصدر كقولك .
الفضلُ ، والعلاءُ ، فدخولُ لام التعريف لا تنفكُ عن هذه
الامور الأربعة ، هذا كله إذا كانت داخلة على المبتدئ ،
الحالة الثانية أن تكون اللام داخلة على الخبر

اعلم أن الأصل أن يكون نكرةً ، لأنك إنما تخبر بما
يجهه المخاطب فتعرفه إياه ، فإذا ورد فيه اللام فإنها تأتي
لمقاصد ، وجمالها أربعةٌ ، أولها أن تقصِدَ المبالغة في الخبر
فتقصرُ جنس المعنى على الخبر عنه كقولك : زيد هو الجواد ،
وعمرُو هو الشجاع ، تريد أنه هو المختصُّ بالمعنى دون غيره ،
وأنت إذا قصدت هذا المعنى فلا يجوز العطف عليه على جهة
الاشتراك ، فلا يجوز أن تقول زيدٌ هو الجواد وعمرُو ، لأنه
يبطل المعنى ، ومن هذا قوله تعالى « والكافرون هم الظالمون »
وقوله تعالى « أولئك هم المؤمنون حقا » يريد أنهم المختصون
بها تثنى الصفتين دون غيرهم ، وثانها أن تقصره لا على جهة
المبالغة كما فعلت في الأول ، ولكن على معنى أنه لا يوجد الآ
منه ، وإنما يكون ذلك إذا قيّد المعنى بشيء يُخصّصه ويجمعه

في حكم نوع برأسه ، ومثاله قولك : زيدٌ الكريم حين يبخل
كلُّ جواد ، وعمرُو الشجاع حين يتأخر الأبطال ، وبكرٌ هو
الوفى حين لا تظنُّ نفسٌ بنفسٍ خيراً ، ومن هذا قول
الأعشى

هو الواهبُ المائة المصطفاة * إمّا مخاضاً وإمّا عشارا
اي أنه لا يهب هذا العدد إلا الممدوح ، ومما يؤيد هذا
المعنى وإن لم يكن على طريقة الإخبار قول بعضهم

أعطيت حتى تركت الريح حاسرة

وجدت حتى كأن الغيث لم يجد

وثالثها أن تورده على وجه التضح أمره اتضاحاً لا يسع
إنكاره ، وظهر حاله ظهوراً لا يخفى على أحد ، وهذا كقولك .
زيد الشجاع ، على معنى أن إسناد الشجاعة إليه أمرٌ ظاهر لا
يفتقر الى دلالة ، ولا يحتاج الى علامة وأمارة ، وعلى هذا حمل
بيت الخنساء

إذا قبُح البكاء على قتيلٍ رأيتُ بكاءك الحسن الجميلاً
أرادت أن تقرره في جنس الحسن الباهر الذي لا
ينكره من أخبر به وعلى هذا قرّر قوله

أُسودُ إذا ما أبَدتِ الحربُ نَابَهَا
وفي سائرِ الدهرِ الغيوثُ المواطرُ
ورابعها أن تقصد به مقصد التعريف بحقيقة عقلها
المخاطبُ في ذهنه لا في الخارج ، أو توهمت أنه لم يعرفها
فتقول له تصوّر كذا ، فإذا تصوّرتَه في نفسك فتأمل فلاناً ،
فإنه يحصل ما تصوّرتَه على الكمال ، ويأتيك به تاماً ، ومثاله
قولنا : هو الحامي لكل حقيقة ، وهو المرتجى لكل ملّة ،
وهو الدافع لكل كراهية ، كأنك قلت : هل تعقل الحامي ،
والمرتجى وتسمع بهما ، فإن كنت تعقل ذلك وتعرفه حقيقة
معرفته ، فاعلم أنه فلان ، فإنّي خبرته وجرّبته فوجدته على هذه
الصفة ، فاشدّد يدك به ، فإنه ضالتك التي تنشدّها ،
وبُعيتك التي تقصدّها ، ومما يؤيد هذا المعنى ويقويه قول ابن
الرومي

هو الرجلُ المشروكُ في جُلِّ ماله
ولكنّه بالحمد والمجد مُرتدى
كأنه قال . فكّر في رجلٍ لا يتميّز عن غيره في ماله
في الأخذ والتصرّف ، فإذا فهمت ذلك وعقلته وصورته في
نفسك ، فاعلم أنه فلان ، وكقول بعضهم

أخوك الذي إن تدعه لئلمة
يحبك وإن تغضب إلى السيف بغضب
فهذه المعاني متغايرة كما ترى تحصل لأجل تعريف الخبر
باللام كما فصلناه هنا

✽ تنبيه ✽

إذا عرفت ما قدمناه من صحة دخول اللام على الخبر
كما صح دخولها على المبتدأ، وأظهرنا معانيها في النوعين فلا
يغرك ما يقرع سمعك من كلام النحاة، من أن المبتدأ والخبر
إذا كانا معرفتين فأيهما قدمت فهو المبتدأ، فهذه قاعدة قد
زيّفناها وقرّنا فسادها في الكتب الإعرابية، فإن حقيقة
الخبر هو المسند به وهو غير خارج عن هذه الماهية بتقديم ولا
تأخير، ولا تعريف ولا تنكير، وأيضاً فإن الخبر عبارة عن
الصفة والمبتدأ في نفسه، عبارة عن الذات ولا شك أن الذات
بالاتدائية والصفة بالخبرية أحق من العكس، فإذا بان
لك مما ذكرناه بطلان كلامهم، وأن المبتدأ هو المسند إليه
بكل حال، والخبر مسند به بكل حال فلا يغير هذه الماهية
عروض عارض

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في الخطاب بالجملة الاسمية والفعلية وذكر التفرقة بينهما)

اعلم أن الكلام إذا قصد به الإفادة ، فتارة يرد مُصَدَّرًا
بالجملة الاسمية سلباً كان أو إيجاباً ، وتارة يرد مصدرًا بالجملة
الفعلية سلباً كان أو إيجاباً ، والمعاني تختلف بالإضافة الى
تصدير الجملتين ، فهذان طرفان

(الطرف الاول)

في توجيه الخطاب بالجملة الاسمية وهذا نحو قولك . زيد
قد فعل ، وأنا فعلت ، وأنت فعلت ، ومتى كان وارداً على جهة
الاسمية ، فإنه ينقدح فيه معنيان

(المعنى الأول)

أن تريد أن الفاعل قد فعل ذلك الفعل على جهة
الاختصاص به دون غيره ، ويذكر على جهة الاستبداد ،
وهذا كما تقول . أنا قتلت فلاناً وأنا الذي شفعت لفلان عند
الأمير بالعطية ، وأنا الذي توجهت في إطلاقه من السجن ،
وكقوله تعالى « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحْيَى » فصدر الجملة بالضمير ، دلالة على اختصاصه تعالى

(الطراز) — ٤ —

بالإيماءة والإحياء ، والإيضاح والإبكاء ، وإنما أورد الضمير
وصير الجملة اسمية تكديباً ، وردّاً ، وإنكاراً لمن زعم أنه
مشارك لله تعالى في هذه الخصال ، ويؤكد هذا ان الأمور
التي تقع فيها المشاركة وردت بالجملة الاسمية ، والأمور التي
لا تقع فيها المشاركة ، وردت بالجملة الفعلية ، كقوله تعالى
« وأنه هو أمات وأحي وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى »
فأورد الضمير في الأولى دلالة على الاختصاص بما ذكرناه
دون الثانية ، لأنها لا مطمع فيها بالمشاركة ، بخلاف الأولى ،
فإيه ربما يُظنّ أو يُتوهم فيها المشاركة ، فلا جرم ورد الضمير
مصدراً فيه الجملة ، دلالة على اختصاصه بما ذكرناه

(المعنى الثانى)

أن لا يكون المقصود الاختصاص ، وإنما المقصود
التحقق ، وتمكين ذلك المعنى في نفس السامع بحيث لا يُخالفه
فيه ريبٌ ، ولا يعتريه شكٌ وهذا كقولك . هو يعطى الجزيل ،
وهو الذى يجود بنفسه ، ففرضك تحقيق إعطائه للجزيل ،
وكونه لا يبخل بنفسه ، وتمكّنه في نفس من تخاطبه ، وعلى
هذا ورد قوله تعالى « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا

خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم وإنما نحن مستهزون «
نخاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالجملة الاسمية
المحقة بأنّ المشددة ، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم في
خطابهم لا يخوانهم يخبرون عن أنفسهم بالثبات والتصميم على
اعتقاد الكفر مصرون على التماذي في الجحود والإنكار ،
فلهذا وجهوه بالجملة المؤكدة الاسمية ، بخلاف خطابهم للمؤمنين ،
فإنما كان عن تكلف وإظهار للإيمان ، خوفاً ومداجاةً من
غير عزم عليه ، ولا شرح صدورهم به ، ومن هذا قوله تعالى
في سورة يوسف « قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف
وإننا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له
لحافظون » فانظر الى ما أخبروا به عن أنفسهم في قولهم
(لناصحون) و (لحافظون) كيف ورد بالجملة الاسمية المؤكدة
بأنّ ، وما كان عن غيرهم كقوله (مالك لا تأمنا) وقوله
(أرسله معنا غداً يرتع ويلعب) وهذا فيه دلالة على ما
ذكرناه من الاختصاص والتحقيق والثبوت ومن هذا قوله
تعالى « إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير » وقوله تعالى
« إنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون » وقوله في سورة
الواقعة « أنتم تخلقونه » « أنتم تزرعونه » وقوله « أنتم

أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا » الى غير ذلك من الآي المصدرة بالمثل
الابتدائية ، ومن هذا القبيل قوله تعالى « وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا
آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ » فانما صدر
الخروج بالضمير ، وصيرها جملة ابتدائية ، مبالغة في تصميم
عزمهم على الكفر عند الخروج ، وقطع الأياس عن الإيمان
يُخَالَفُ دُخُولَهُمْ ، فإنه ربما كانت نفوسهم تحذّرهم بإظهار
الإيمان على وجه التقيّة والمخادعة ، فأما الخروج فهو على قطع
وحقيقة ، فهذا مميّز بين الجملتين مشيراً الى ما ذكرناه ، وقوله
تعالى « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » فإنما أورد
الضمير دلالة على تأكيد تحققهم للصدق ، ومع ذلك يقولون
على الله الكذب وهم يعلمون كونه كذباً ، أو هم يعلمون أنه لا
يقوله وقوله تعالى « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ
إِنَّكُمْ مَا كُنتُمْ » ونحو قوله تعالى « فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ
يُهْرَعُونَ » وأمثال ذلك في كتاب الله أكثر من أن يُحصى ،
وكما يجب تصدير الاسم في الجملة الإثباتية من أجل المبالغة
وجب تقديمه في الجملة السلبية أيضاً ، فتقول أنت لا تُحسن
هذا ، وأنت لا تقول ذلك ، ولو قلت لا تُحسن أنت هذا ،
ولا يقول ذلك الا أنت ، فأنت تلك القوة عن الكلام ، ومن

هذا قوله تعالى « والذين هم بربهم لا يُشركون » وقوله تعالى
« لقد حقّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون » وقوله تعالى
« فعصيت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتسألون » وقوله
« فهم لا يشعرون » ومن الآيات الشعرية ما يدلّ على ما
نحن فيه كقوله

هما يلبسان المجد أحسن لبسة
حريصان ما اسطاعا عليه كلاهما

وقال بعضهم

والشيب إن يظهر فإن وراءه
عمرًا يكون خلاله مُتنفَسُ
لم ينتقص مني المشيب قلامه

ولما بقي مني ألب وأكيس

فلمّا كان المشيب يذمُّ في أكثر أحواله أتى باللام
المؤكدّة في قوله (ولما بقي) وجعل الجملة الاسمية عوضاً من
الفعليّة ، مبالغةً في ذلك وتأكيّداً كما مرّ بيانه ، وقال بعض
أهل الحماسة

إنا لنصفح عن مجاهل قومنا
ونقيم سالفة العدو الأصيد

ومتى نجد يوماً فساد عشيرة
نُصلح وإن نرَ صالحاً لا نُفسد

فلما أراد المبالغة في الصفع وإيشاره ، صدره بالجملة
الاسمية مؤكداً باللام من أجل ذلك ، وقال آخر
نحن في المشتاة ندعو الجفلى
لا ترى الأدب منا ينتقر

فصدره بالجملة الاسمية عوضاً عن الفعلية إرادة
للتأكيد ، والجفلى هي الدعوة العامة ، وهي تخالف ، (النقرى)
لأنها دعوة خاصة من جهة أنه ينقر في دعوته ، أى يدعو
واحداً خاصاً من بين أقوام

(الطرف الثانى)

(فى توجيه الخطاب بالجملة الفعلية)

اعلم أن الإخبار فى قولنا . قام زيد ، مثله فى نحو قولك .
زيد قام ، خلا أن قولنا . زيد قام ، فيه نوع اهتمام وإيضاح
للجملة الاسمية كما أوضحنا فى نظائره ، وهكذا قولنا . زيد قائم ،
مثل قولنا : إن زيدا قائم ، خلا أن الثانى مختص بمزيد قوة
وتأكيد لم يكن فى الاول ، ولو جئت باللام فى خبر إن ،

لكان أعظم تأكيداً ، فقولنا زيد منطلق ، إخبارٌ لمن يجمل
انطلاقه وقولنا . منطلق زيدٌ ، إخبارٌ لمن يعرف زيداً ،
ويُنكر انطلاقه ، فتقديمه اهتمامٌ بالتعريف بانطلاقه ، وقولنا .
إنَّ زيداً منطلقٌ ، ردٌّ لمقالة من يقول . ما زيد منطلقاً ، وقولنا .
إنَّ زيداً لمنطلقٌ ، ردٌّ لقول من قال . ما زيد بمنطلق ، فأنت
إذا جئت بالجملة الفعلية فقلت : قام زيد ، فليس فيه الا
الإخبار بمطلق القيام مقرونًا بالزمان الماضي من غير أن
يكون هناك مبالغةٌ وتوكيدٌ كقوله تعالى « وحشر لسليمان
جنوده » وقوله تعالى « نزل الكتاب » فالغرضُ الإخبار
بهاتين الجملتين بالفعل الماضي من غير إشعار بمبالغة هناك ،
ولما أراد المبالغة في الجملة الأولى قال في آخرها « فهم يُوزعون »
وقال في الثانية « وهو يتولى الصالحين » فإتيانه بالجملتين
الاسميتين من آخر الجملتين السابقتين المصدرتين بالفعلين
دلالةٌ على المبالغة والتأكيد في المقصود الذي سقناه من أجله ،
وهو التولى للصالحين والإيزاع

﴿ دقيقة ﴾

اعلم أن جميع ما يُخبر به على قسمين ، اسمٍ ، وفعلٍ ،

ثم كلُّ واحد من الاسم والفعل يقع جزءاً من الجملة تارةً ،
ويقع جزءاً زائداً على الجملة أخرى ، فمثال ما يكون جزءاً
معتمداً في الجملة قولنا . زيد قائم ، وقام زيد ، فهذان الخبران
كلٌّ واحد منهما عمدةٌ في الإخبار ، إمّا على أنه مسندٌ إليه
كالفاعل ، والمبتدئ ، وإمّا على أنه مسندٌ به ، كالفعل ، وخبر
المبتدئ ، ومثال ما يقع جزءاً زائداً على الجملة ، الحالُ في نحو
قولك . جاءني زيد ضاحكاً ، فإنّ الحال جزءٌ في الحقيقة ،
ولهذا فإنك تجعله خبراً عن ذي الحال ، كما تُثبتُه لدى الخبر
بالخبر ، لكن الإخبارُ بالحال جارٍ على جهة التبعيّة للخبر
السابق ، بخلاف خبر المبتدئ والفعل المسند الى الفاعل ، فإنه
ليس بمشترط فيه تقدّم واسطة بينهما

﴿ الفصل الثالث ﴾

في أحوال الفصل ، والوصل ، وهو دقيق المجزئ ،
لطيف المغزى ، جليل المقدار ، كثيرُ الفوائد ، غزيرُ الأسرار ،
ولقد سُئل بعضُ البلغاء عن ماهية البلاغة ، فحدّثها بمعرفة
الفصل ، والوصل ، وجعلَ ما سواه تبعاً له ، ومفتقراً إليه ،
وقاعدته العظمى حروفُ العطف ، وينعطف عليها حروفُ

الجرّ ، وتكون تابعةً لها ، فإنه يتعلق بكل واحد منهما أسرارٌ
ولطائفٌ تُنبّه عليها بمعونة الله تعالى ، ولسنا نريد بتلك
الأسرار واللطائف ما يكون متعلقاً بعلوم الإعراب من كون
الأحرف العاطفة تلحقُ المعطوف في الإعراب ، ولا أن
الحروف الجارة تجرّ الاسم ، وتُعَدّي الأفعال اللازمة ، بل
نريد أمراً أخصّ من ذلك ، وأغوص على تحصيل الأسرار
الغريبة واللطائف العجيبة في كتاب الله تعالى وفي غيره ،
وإن كان لا بدّ من التصرفات الإعرابية والإحاطة بالمعاني
النحوية ، فهذان بحثان يحيطان بالبعيّة من ذلك بمعونة الله تعالى

﴿ البحث الأول ﴾

(فيما يتعلق بالأحرف العاطفة)

اعلم أنّ العطف على نوعين ، عطفٌ مفرد على مفرد ،
وعطفٌ جملة على جملة ، فأما عطفُ المفرد على المفرد فيستفاد
منه مشاركةُ الثاني للأوّل في الإعراب في رفعه ونصبه وجره ،
بالفاعلية ، أو بالمفعولية ، أو بالإضافة ، وحروف الجرّ ، فأما
الصفاتُ فالأكثرُ أنه لا يُعطف بعضها على بعض كقولك :

مررت بزید الکریم العاقل الفاضل ، وإنما قلّ العطفُ فيها ، لأن الصفة جاريةٌ مجرى الموصوف ، ولهذا فإنه يمتنع عطفها على موصوفها فلا يجوز أن تقول جاءني زيدٌ والکریم ، على أن الکریم هو زيد ، لاستحالة عطف الشيء على نفسه ، ويجوز عطف بعضها على بعض باعتبار المعاني الدالة عليها ، فهذا تقول مررت بزید الکریم ، والعاقل ، والعالم ، باعتبار ما ذكرناه كأنك قلت . مررت بشخص اجتمع فيه الکریم ، والعقل ، والعلم ، فقد اجتمع في الصفة دلالتها على ذات الموصوف ودلالتها على معنى في الذات ، فلاجل تلك المعاني التي تدل عليها جاز فيها العطف ، ولأجل كونها دالة على الذات قلّ فيها عطفُ بعضها على بعض ، وتعدّر عطفها على الموصوف كما أشرنا إليه ، فأما الأوصاف الجارية على الله تعالى فقلما يأتي فيها العطفُ ، وما ذاك إلا لأنها أسماء دالة على الذات باعتبار هذه الخصائص لها ووافقت الذات في عدم الأولية لها ، فلاجل هذا جرت مجرى الأسماء المترادفة كقوله تعالى « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » ثم قال « الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر » وقال « العزيز العليم غافر الذنب وقابل

التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ » فجاء بها على جهة التعميد من دون الواو لما ذكرناه ، وإنما جاءت معطوفة في قوله تعالى « هو الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ » لأنها متضادة المعاني في أصل موضوعها ، فهذا جاءت الواو رافعةً لتوهم من يستبعد ذلك في ذات واحدة ، لأن الشيء الواحد لا يكون ظاهراً باطناً من وجه واحد ، فلاجل هذا حسن العطف ، ولهذا جاء العطف في قوله تعالى « ثِيَّابَاتٍ وَبُكَارًا » بخلاف ما تقدمه من الصفات ، فإنها معدودة من غير واو ، وذلك لأجل تناقض البكارة والثيوبة ، فجاء بالعطف لرفع التناقض بخلاف الإسلام والإيمان والقنوت ، والتوبة ، وغيرها من الصفات ومنه قوله تعالى « التائبون العابدون الحامدون » الى آخرها بغير واو ، وقال في آخرها « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر » لما كانت هاتان الصفتان متضادتين ، فلا جرم وجب فيها العطف كما ترى ، لا يُقال فإننا نرى الأوصاف في قوله تعالى « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول » جاءت كلها بغير حرف عطف إلا قوله « قابل التوب » فإنها جاءت بالواو مع اشتراكها كلها في كونها من الأوصاف الفعلية ، فما السرُّ في ذلك ، لأننا نقول أمّا مجيء « غافر »

عقيبَ قوله « العزيز العليم » من غير واوٍ مع أنهما من صفات الذات (وغافر) من صفات الأفعال فإنما كان كذلك لأنها في معناهما ، لأن العزيز هو الغالبُ ، والعالم هو المحيط بكل المعلومات ، ومن كان غالباً بالقُدرة على كلِّ شيءٍ وعالمًا بحسن العفو ومزيد الإحسان فهو الأحق بالستر ، وإسقاط العقوبة وأن لا يستوفى له حقًا من العباد فلماذا جاءت من غير واوٍ ، لا انتظامها مع ما قبلها في سلكٍ واحد كما أوضحناه ، وأما مجيء قوله « وقابل التوب » بالواو مع كونها من صفات الأفعال لأمرين ، أمّا أولاً فلأن المرجع بالمغفرة الى السلب ، لأن معنى (الغافر) هو الذى لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق ، والمرجع بقبول التوبة الى الإثبات ، لأن معناه أنه يقبل العذرَ والندم ، فلما كانا متناقضين بما ذكرناه ، وجبَ ورُودُ الواوِ فصلًا بينهما كما ذكرناه فى الأول ، والآخِر ، وأمّا ثانيًا فلأنهما وإن كانا من صفات الأفعال لكنه جُمعَ بينهما بالواو ، لسرِّ لطيف ، وهى إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين ، بين أن تُقبَلَ توبته فيكتبها له طاعةً من الطاعات ، وأن يجعلها إحصاءً للذنوب ، كأن لم يُذنب ، كأنه قال . جامع المغفرة والقبول ، ومن وجه آخر ، وهو أنهما وإن كانا من

صفات الأفعال خلا أن المغفرة مختصةٌ بالعبد وقبول التوبة مختص بالله تعالى، فلما تباير أمرُ هذا الوجه لا جرمَ وردت الواوُ منبّهةً على تبايرهما، وإنما وردا على وزن اسمي الفاعل دون ما بعدهما وما قبلها من الصفات، ولم يقل الغفار والتواب كما ورد في موضعٍ من التنزيل دلالةً على أن الغرض ههنا إحداث المغفرة والتوبة من جهته تعالى للعبيد لمزيد الرحمة واللفظ، بخلاف قولنا. التواب والغفار، فإن الغرض بهما هو الثبوت والاستمرار دون الحدوث، فافترقا، وإنما جاء قوله « شديد العقاب ذي الطول » من غير واو لكون الأوصاف ملتزمةً متناسبةً يجمعها كونها من صفات الأفعال، كما جاء قوله « الخالق الباريء المصور » من غير واو لكونها جميعاً من الصفات الفعلية، فنبه بلفظ اسم الفاعل على أنه تعالى فاعلٌ للأمرين جميعاً، مُحدثٌ لهما من جهته، ليكون ذلك لرجاء الرحمة من عنده والأمل للعفو برحمته وكرمه، ثم عقبه بقوله « شديد العقاب » تحذيراً عن مواجهة الخطايا وملابسة المعاصي وزجراً عن الاتكال على ما سلف من الغفران وقبول التوبة، ثم ختم هذه الصفات بأحسن ختام وأعجب تمام بالوصف (بالطول) رحمةً للخلق، وتسليّةً للعبيد

وَعِدَّةٌ لَهُمْ بِأَنَّ مَنْتَهَى الْأَمْرِ فِي حَقِّهِمْ ، الطُّوْلُ عَلَيْهِمْ
بِالْكَرَمِ ، وَانْدِرَاجُهُمْ فِي غَمَارِ الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ وَاللُّطْفِ الْعَظِيمِ ،
اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ شَمَلَتْهُ رَحْمَتُكَ ، وَأَدْخَلْتَهُ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ،
لَا يُقَالُ فِعْلًا مَّ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى (شَدِيدُ الْعِقَابِ) فَإِنَّ حُمْلَ
عَلَى الصِّفَةِ فَهُوَ نَكْرَةٌ ، لِأَنَّ الصِّفَةَ الْمَشْبَهَةَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ لَا
تَتَعَرَّفُ بِإِضَافَتِهَا إِلَى الْمَعْرِفَةِ ، وَإِنْ حَمَلْتُمُوهُ عَلَى الْبَدَلِيَّةِ مِمَّا قَبْلَهُ ،
حَصَلَ هُنَاكَ تَنَافُرٌ فِي نِظَامِ الْآيَةِ وَسِيَاقِهَا ، لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ صِفَةٌ
وَمَا بَعْدَهُ صِفَةٌ ، فَلَا يَجُوزُ حَمْلُهُ عَلَى الْبَدَلِيَّةِ لِمَا ذَكَرْنَا ، لِأَنَّ
نَقُولَ حُكِيَ عَنْ أَبِي اسْحَقَ الزَّجَّاجِ أَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى الْبَدَلِيَّةِ ، وَمَا
ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ اعْتَصَمَ عَلَيْهِ تَنْزِيلُهُ عَلَى وَجْهِ يَتَعَرَّفُ بِهِ ،
فَعَدَلَ إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ ، وَهَذَا (لَعَمْرِي) أَسْرَعُ وَأَخْلَصُ
لَكِنْ غَيْرُهُ أَدَقُّ وَأَغْوَصُ ، وَالْأَقْرَبُ حَمْلُهُ عَلَى الصِّفَةِ ،
لِيُطَابِقَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ ، فَأَمَّا تَعْرِيفُهُ فِيهِ تَأْوِيلَاتٌ ، التَّأْوِيلُ
الْأَوَّلُ ذَكَرَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ تَعْرِيفَهُ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّامِ
لِكُنْهَا اطَّرَحَتْ لِأَجْلِ الْإِزْدَوَاجِ وَلِيُطَابِقَ قَوْلُهُ «ذِي الطُّوْلِ»
فَلَا جَرَمَ قَضِينَا بِتَعْرِيفِهِ بِاللَّامِ لِمَا ذَكَرْنَا وَلِكُنْهَا اطَّرَحَتْ
لِمُرَاعَاةِ الْإِزْدَوَاجِ ، التَّأْوِيلُ الثَّانِي أَنْ يُقَالَ . إِنَّهُ فِي نِيَّةِ

الإضافة ، والمعنى فيه أنه يكون تقديره ، ذى العقاب الشديد ، ومع هذا يحصل التعريف المعنوي ، والازدواج اللفظي ، وما ذكره الزمخشري وإن كان جيداً لكن هذا أدق وأحسن ، هذا كله في عطف المفردات ، وهذا كله إنما يتقرر على رأى من يجعلها كلها دالة على الثبوت ، فأما على ما تأولناه من أن (غافر الذنب وقابل التوب) دالان على الحدوث ، فهي كلها أبدال ، فلا يكون هناك تنافر بينها ، لأنها كلها نكرات على هذا التقرير ، وأما عطف الجملة على الجملة فهو على وجهين ، أحدهما أن يكون العطف على جملة لها موضع من الإعراب فتكون المعطوفة كذلك أيضاً ، وهذا كقولك . مررت برجل خلقه حسن ، وخلقه قبيح ، فيكون مشتركاً بين الجملتين في القضاء عليهما بالحسن ، حملاً على الصفة ، وثانيهما أن تعطف جملة على جملة لا موضع لها من الإعراب . وهذا كقولك . زيد أخوك ، وبشر صاحبك ، فالجملة الأولى لا موضع لها من الإعراب ، لكونها ابتدائية ، وعلى هذا تكون الثانية لا موضع لها من الإعراب أيضاً ، وهل يكون للواو ههنا فائدة أو لا ، فظاهر كلام الشيخ عبد الكريم أنه لا فائدة لها ههنا بحال ، فأما الزمخشري فقد قال .

إنها تجمع بين مضمونى الجملتين فى الحصول ، وهذا هو الأقرب ، فانها كما تجمع بين الرجلين فى المجىء فى نحو قرلك . جاء زيد وعمرو فهكذا تجمع بين الجملتين فى الوجود والحصول ، فاذا تمهدت هذه القاعدة فلننعتطف على بيان المقصود ، ونعكز عكراً على بيان الأسرار المعنوية المتعلقة بالحروف العاطفة ، فن ذلك قوله تعالى « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم » فالواو فى قوله والراسخون فى العلم ، هل تكون للعطف ، أو للاستئناف ، قد وقع فيها تردد بين العلماء ، فمنهم من قال هى للعطف ، ويقف على قوله والراسخون فى العلم ، وهو الذى عول عليه الزمخشري فى تفسيره ، ومنهم من قال . هى للاستئناف ويقف على قوله (الا الله) ومنهم من توقف فى ذلك وجوز الأمرين جميعاً ، فمن ذهب الى العطف قال . إن التأويل معلوم لله وللراسخين ، ومن قال بالاستئناف قال . ان تأويل القرآن لا يعلمه الا الله وحده ، فأما من توقف فهو شك فى الأمرين فتردد فيها جميعاً ، فلا مذهب له فى الحقيقة ، لأنه غير قاطع بحكم فى

الآية ، والمختارُ عندنا في الآية أن الراسخين مرفوعٌ على
الابتداء (ويقولون) خبره ، وأن الواو عاطفةٌ لجملة على جملة ،
فيكون التقدير فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه
منه ، وأما الراسخون فيقولون آمنا به كل من عند ربنا ،
ويدلُّ على ما اخترناه أوجه ، أمّا أولاً فلأن ظاهر الواو
للعطف ، فلا يجوز العدول عنه من غير دليل ، وإذا وجب
العطف فلا يجوز عطف الراسخين على قوله (الا الله) لأن
الراسخين جملة ، واسمُ الله مفرد ، فلا يجوز عطفه عليه ،
وأما ثانياً فلأن الراسخين لو كان معطوفاً على اسم الله ،
لم يحسن الوقوف على اسم الله دونه ، إذ لا يحسن الوقف
على المعطوف عليه دون المعطوف ، فأمّا حسن ذلك دلّ على
امتناع عطفه عليه . وأمّا ثالثاً فلأن وضع (أمّا) للتفصيل
بين الأجناس المتعددة ، ولم يسبق إلا أحد الجنسين ، وهو
قوله « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون » إلى آخر صفاتهم ،
فيجب أن يتلوّه الجنس الآخر المقابل له ، وهم الراسخون
في العلم ، فتحصلُ (أمّا) الأولى (وأمّا) الثانية على مقصود
التقابل ، كما قال تعالى « فأما الذين شقوا » ثم عقبه بقوله

« وأما الذين سعدوا » فيكون تقدير الآية فأما الزائفون فيتبعون وأما الراسخون فيقولون آمنة به ، لا يقال . لو كان الراسخون عطفاً على قوله « فأما الذين » لوجب إثبات الفاء في قوله (يقولون) كما جاءت في قوله (فيتبعون) ليتطابق الكلامان ويتسق نظامهما ، لانا نقول . هذا هو الوجه اللائق لكننا نقول ، إنما ترك المجيء بها لأن الفاء إنما يجب الإتيان بها إذا كانت (أمّا) مذكورة في الكلام لأنها مشعرة بالشرط ، فأما إذا كانت محذوفة فلا يلزم الإتيان بالفاء ، فلما حذفت في قوله (والراسخون) استغناء عنها بالواو ، لا جرم لم يأت بالفاء في قوله (فيقولون) من أجل ذلك ، ومن ذلك قوله تعالى « الذي هو يُطعمني ويسقيني وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ » فعطف السقي على الإطعام ، بالواو ، إرادة للجمع بينهما ، وتقديم أحدهما على الآخر جائز ، إذ لا ترتيب فيهما ، خلافاً أن مراعاة حسن النظم والمشاكلة أوجب ذلك ، ثم عطف (يشفيني) بالفاء لأن الشفاء يتعقب المرض ، وتنبيهاً على عظم المنّة بالعافية بعد المرض من غير تراخ ، ثم عطف الإحياء بعد الإيماء بتم ، لأن الإحياء بعد الموت إنما يكون بمهلة وتراخ ، ولو

عُطِفَتْ الْجُمْلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِعَضْهَا عَلَى بَعْضِ الْوَاوِ، لَمْ
الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ، وَلَكِنْ الَّذِي وَرَدَ بِهِ التَّنْزِيلُ أَدْخَلَ فِي الْمَعْنَى
وَأَعْجَبُ فِي النِّظْمِ، وَأَلِيقُ بِبِلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَفِصَاحَتِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ
قَوْلُهُ تَعَالَى « قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ
إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ » فَانْظُرْ إِلَى نِظَامِ هَذِهِ الْآيَةِ : مَا أَدْخَلَهُ فِي
الْإِعْجَابِ، فَجَاءَ قَوْلُهُ « مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ » مِنْ غَيْرِ وَاوٍ، لِأَنَّهَا
وَارِدَةٌ عَلَى جِهَةِ التَّفْسِيرِ لِقَوْلِهِ « مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » وَالْخَلْقُ
هُوَ الْإِبْجَادُ، خِلَافًا لِمَا يَحْكِي عَنِ الْمَعْتَزَلَةِ مِنْ أَنَّهُ التَّقْدِيرُ، لِأَنَّهُ
لَوْ كَانَ التَّقْدِيرُ لَكَانَ قَوْلُهُ، (فَقَدَّرَهُ)، يَكُونُ تَكْرِيرًا
لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)
يَكُونُ مَكْرَرًا عَلَى مَقَالَتِهِمْ، وَقَوْلُهُ « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ
بِقَدَرٍ » فَهَذِهِ كُلُّهَا مَعَ غَيْرِهَا تُبْطِلُ كَوْنَ الْخَلْقِ بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ،
وَهَذَا عَارِضٌ، فَعُطِفَ قَوْلُهُ « فَقَدَّرَهُ » بِالْفَاءِ تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّ
التَّقْدِيرَ مَرْتَبٌ عَلَى الْخَلْقِ، وَعَلَى عَدَمِ التَّرَاخِي بَيْنَهُمَا، وَعُطِفَ
السَّبِيلَ بِثُمَّ، لِمَا بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْهُدَايَةِ مِنَ التَّرَاخِي وَالْمُهْلَةِ
الكَثِيرَةِ، ثُمَّ عُطِفَ الْإِمَاتَةَ بِثُمَّ، إِشَارَةً إِلَى التَّرَاخِي بَيْنَهُمَا
بِأَزْمَنَةٍ طَوِيلَةٍ، ثُمَّ عُطِفَ الْإِقْبَارَ بِالْفَاءِ، إِذْ لَا مُهْلَةَ هُنَاكَ،

ثم عطف الإِنشَارِ بِثُمَّ ، لما يكون هناك من التراخي باللبث في الأرض أزماناً متطاولةً ، فأكرمَ بهذه اللطائف الشريفة ، والمعاني الرائقة التي لا تزداد على طول البحث وكثرة التنقيب إلا غوصاً على الأسرار ودخولاً في التحقيق ، والله سِرُّ التنزيل : ما أحواه للغرائب . وأجمعه للأسرار والعجائب .

ومن ذلك قوله تعالى في بديع خلقه الإنسان « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفةً في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » فتأمل هذه الآية كيف بدأ بالخلق الأوّل ، وهو خلق آدم من طين ، ولما عطف عليه الخلق الثاني الذي هو خلق التناسل ، عطفه بثُمَّ ، لما بينها من التراخي ، وحيث صار إلى الأطوار التي يتلو بعضها بعضاً على جهة المبالغة عطف العلقة على النطفة بثُمَّ ، لما بينهما من التراخي ، ثم عطف المضغة على العلقة بالفاء لما لم يكن هناك تراخٍ ، ثم عطف خلق العظام من عقيب كونه مضغة بالفاء . من غير مهلة ولا تلبّث ، ثم عطف كسونا العظام لحماً بالفاء من غير تراخٍ ، ثم تسويته إنساناً بعد خلق العظام بثُمَّ ،

إشارة الى التراخي ، ثم قوله فتبارك الله أحسن الخالقين ، عطفه بالفاء دلالة على أن كل عاقل خرق قرطاس سمعه نظم هذه الآية وتأليفها فإنه يقضى العجب على الفور من غير تلبث وينطق باللفظ الدال على الزيادة في الحكمة والدخول في الأتقان ، ومن ثم قال (١) غير واحد من البلغاء وأهل الفصاحة عند سماع هذه الآية، تبارك الله أحسن الخالقين ، لأجل ما يقع في النفوس من بديع النظام وحسن التأليف فيها ، ويتعلق بما نحن فيه تنبيهات ثلاثة

(التنبيه الأول)

هو أن من حق الجمل اذا ترادفت وتكرر بعضها في أثر بعض فلا بدّ فيها من ربط الواو لتكون متسقة منتظمة ، كما أن الجمل إذا وقعت موقع الصلّة . أو الصفة . فلا بدّ لها من ضمير رابط يعود منها الى صاحبها ، فهذا تقول : زيد قائمٌ ، وعمرو منطلقٌ ، فلا تجدُّ بدًّا من الواو ، وكما لا تجدُّ بدًّا من الضمير في نحو قولك . هذا الذي قام وخرج ، من أجل الربط كما ذكرناه ، وهذا الصنيع مستمر ، اللهم الآ أن

(١) لم يسمع ذلك الا من عبد الله بن أبي سرح . وقد رويت عن عمر أيضا

تتكون الجملتان بينهما امتزاجٌ معنويٌّ ، وتكون الثانية موضحةً للأولى مبينةً لها كأنها أُفْرِغَا في قالبٍ واحدٍ ، فإذا كانت بهذه الصفة فإنها تأتي من غير واو ، وهذا كقوله تعالى « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه » فإنه من غير واو لما كان موضعاً لقوله تعالى « ذلك الكتاب » لأن كل ما كان من القرآن فهو لا ريب فيه ولا شك ، ثم قال « هدى للمتقين » فإنه موضح لقوله (لا ريب فيه) لأن كل ما كان لا يرتاب في حاله ، ولا يقع فيه ترددٌ ، ففيه نهاية الهدى ، وغاية الصلاح لاهل التقوى وهكذا قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » جاء بغير واو لما كان وارداً على جهة التأكيد لقوله « إن الذين كفروا ساء عليهم الأندرتهم أم لم تُنذرهم لا يؤمنون » لأن كل من كان حاله إذا أُنذر مثل حاله إذا لم يُنذر فهو في غاية الجهل والعمى مختوماً على قلبه منغشىً على بصره وقوله تعالى « إنا معكم إنما نحن مستهزؤن » لأن قوله « إنا معكم » أي إنا غير تاركى اليهودية في التكذيب بالرسول صلى الله عليه وسلم فيكون قولهم (انما نحن مستهزؤن) مؤكداً لهذا المعنى بعينه ، ومن الواضح قوله تعالى « ما هذا بشراً » مع قوله « إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ » لأن الجملة

الثانية واردةٌ موردَ التأكيد ، فإن كونه ملكاً ينفي كونه من
البشر ، ومن هذا قوله تعالى « واذا تُلِّيَ عليه آياتنا ولَّى
منستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً » فجرد
التشبيهين عن العاطف ، لأنه مثل حاله بعد التلاوة مثل حاله
قبلها فقوله (كأن لم يسمعها) مؤكداً لما قبله وقوله (كأن في
أذنيه وقر) مؤكداً لما قبله أيضاً ، فهذا جاءتا من غير عاطف

﴿ دقيقة ﴾ .

قد يعرضُ للجملة التي من حقها أن تكون معطوفةً
على ما قبلها أمرٌ يُسوِّغُ ترك الواو مع كونها أجنبيةً عن الأولى ،
مثاله قوله تعالى « انما نحن مستهزؤن الله يستهزىء بهم »
فالجملة الثانية إنما جاءت مجردة عن الواو لما كانت على تقدير
سؤال كأنه قيل . هم أحقّاء بالاستهزاء لأجل دخولهم في
العناد وإغرابهم في التكذيب ، فمن يستهزىء بهم ، فقيل .
الله يستهزىء بهم كما قال بعضهم

زعمَ العواذلُ أنني في غمرة

صدّقوا ولكي غمرتني لا تنجلي

فلما حكى عن العواذل ما زعموه وجر ذلك سؤال السامع

له عن صدق ما زعموه ، أو كذبه ، فكأنه قيل له فما تقول في ذلك ، فقال أقول صدقوا ، ولكن لا مطمع لهم في خلاص مما أنا فيه

(التنبيه الثاني)

من حق المحدث عنه في الجملة الثانية ، أن يكون له تعلق بالمحدث عنه في الجملة الأولى ، حتى يكونا كالنظيرين والشريكين ، ولا يجوز أن يكون أجنياً عنه بحيث لا عُلُقَةٌ بينهما ولا مشابهة بحال ، ولهذا حَسُنَ زيد قائم ، وعمرو قاعد ، وزيد أخوك ، وبشرٌ صاحبك ، لَمَّا كان عمرو ، وبشرٌ ، لهما تعلقٌ بزيد ونظيران له ، وقبح قولنا . خرجت من داري ، وأحسنُ ما قيل من الشعر كذا ، لَمَّا كان الثاني لا تعلق له بالأول ، ولا مناسبة بينه وبينه ، ولهذا عيب على أبي تمام قوله لا والذي هو عالمٌ أن النوى * صبرٌ وأن أبا الحسين كريمٌ إذ لا مُلَابَسَةَ بين كرم أبي الحسين وبين مرارة النوى ، ولا تعلق لأحدهما بالآخر ، وكما يجب أن يكون بين المحدث عنه في الجملتين هذه الملائمة والمشابهة ، فهكذا أيضاً يجب في الخبر الثاني أن يكون مشابهاً للخبر الأول أو مناقضاً له ، ولهذا حَسُنَ قولنا . زيد خطيبٌ ، وعمرو شاعرٌ ،

وَبَكْرٌ فقيهٌ ، وخالدٌ محدِّثٌ ، وزيدٌ قائمٌ ، وعمروٌ قاعدٌ ،
وقبَّحٌ قولنا . زيدٌ طويلُ القامة ، وعمروٌ شاعرٌ ، إذ لا تعلقَ
بين طولِ القامة ، وبين كونه شاعراً ، وهكذا زيدٌ كاتبٌ ،
وعمرُ وباعٌ داره ، لأجل ما بينهما من المنافرة

(إشارة)

إذا أوجبتم ما تقدّم من وجوب الملازمة بين المعطوف
والمعطوف عليه فكيف يقال في قوله تعالى « يسألونك عن
الأهلة قل هي موافيت للناس والحجج . وليس البرُّ بأن
تأثوا البيوت من ظهورها » وأى ارتباطٍ بين أحكام الأهلة
وبين حكم إثبات البيوت من ظهورها ، قلنا فيه أجوبة ثلاثة ،
أحدها أنه لما ذكر أنها موافيت للحجج ، وكان من عادتهم
ذلك كما نقل في الحديث أن ناساً كانوا إذا أحرموا لم يدخل
أحدٌهم بيتاً ولا خيمةً ، ولا خباءً من باب ، بل إن كان من
أهل المدرِّ تقبَّ تقباً من ظاهر البيت يدخل منه ، وإن كان
من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة أو الخباء فقبل لهم :
ليس البرُّ تحرُّجكم من دخول البيت ، ولكن البرُّ من اتقى
محارم الله ، وثانيها أن يكون ذلك معطوفاً على شيء محذوف ،

كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ : مَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَمَصْلَحَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي الْأَهْلَةِ وَغَيْرِهَا ، فَدَعَا هَذَا السُّؤَالَ ، وَانظُرُوا فِي خَصْلَةٍ تَفْعَلُونَهَا أَنْتُمْ مِمَّا لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ فِي وَرْدِهِ ، وَلَا صَدْرٍ ، وَهِيَ إِتْيَانُ الْبُيُوتِ مِنْ ظَهْرِهَا فَلَيْسَتْ بِرًّا ، وَلَكِنْ الْبِرُّ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّجَنُّبُ لِحَارِمِهِ وَمَنَاهِيهِ ، وَثَائِبُهَا أَنْ يَكُونَ وَارِدًا عَلَى جِهَةِ التَّمثِيلِ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَعَكُّيسِ الْأَسْئَلَةِ وَلِمَا هُمْ بِصَدَدِهِ مِنَ التَّعَنُّتِ ، وَأَنْ مِثَالَهُمْ فِي سُؤَالِهِمُ الْمُتَعَنِّتَةَ ، كَمِثْلِ مَنْ تَرَكَ بَابَ الدَّارِ ، وَدَخَلَ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَقِيلَ لَهُمْ لَيْسَ الْبِرُّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ الْبِرُّ هُوَ التَّقْوَى . وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حِينَ سُئِلَ عَنِ التَّوَضُّؤِ بِمَاءِ الْبَحْرِ . فَقَالَ هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْحَلُّ مِيتَتُهُ . فَلَمَّا كَانَ لِلْبَحْرِ تَعَلُّقٌ بِحَلِّ الْمِيتَةِ كَمَا كَانَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِجَوَازِ التَّوَضُّؤِ ، ذَكَرَهُ عَلَى أَثَرِهِ . وَأَرْدَفَهُ بِهِ . وَأَتَى بِهِ مِنْ غَيْرِ وَآوٍ ، لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمَا جَمِيعًا مِنْ حُكْمِ مَاءِ الْبَحْرِ وَمِنْ لَوَازِمِهِ

(التنبیه الثالث)

إِذَا وَرَدَ لَفْظَةٌ (قَالَ) فِي التَّنْزِيلِ مَجْرَدَةٌ عَنْ حَرْفِ الْعَطْفِ فَهُوَ عَلَى تَقْرِيرِ سُؤَالٍ ، وَإِنْ جَاءَ مُتَّصِلًا بِهِ حَرْفٌ

العطف ، فهو يأتي على إثر جملة يكون معطوفاً عليها ، فمثالُ
وروده معطوفاً قوله تعالى « هل أتاك حديثُ ضيفِ إبراهيم
المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً » فالقولُ معطوفٌ
على الدخول ، وهكذا قوله تعالى « وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا »
فإنه يكون عطفًا على ما قبله بالواو ، ونحو قوله تعالى « وقالوا
أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ » الى غير ذلك ، ومثالُ ما ورد مجرداً
عن العاطف قوله تعالى « فقربَّبه اليهم قالَ أَلَا تَأْكُلُونَ »
لأنه لما قرببه اليهم ، كأن قائلًا قال : فما قال لهم لما قرببه ، قال :
أَلَا تَأْكُلُونَ ، وهكذا قوله تعالى « فأوجسَ منهم خيفةً قالوا
لا تخفْ » كأن قائلًا قال : فما قالوا له حين رأوه قد تغير لونه
وداخله الخوفُ ، قالوا لا تخف ، وقوله تعالى في قصة فرعون
ورد موسى عليه يجب تنزيهه على ما ذكرناه « قال فرعونُ وما
ربُّ العالمينَ قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم
موقنينَ قال لمن حوَّله أَلَا تَسْتَمِعُونَ قال ربُّكم وربُّ
آبائِكُم الأولينَ إلى قوله إن كنت من الصادقين » فإن لفظ
القول فيها خارجٌ على تقدير سؤال ، ولهذا جاء بغير واو لما
ذكرناه

(تكميل)

اعلم أن الجمل بالإضافة الى كيفية وقوعها على ثلاثة أوجه،
أولها جملةٌ حالها مع ما قبلها ، حالُ الصفة مع الموصوف ،
والتأكيدي مع المؤكِّد ، فلا يكون فيها عاطف ألبتة لتزيلها
مع ما قبلها منزلة الشيء الواحد ، والشيء لا يجوز عطفه على
نفسه ، ومن أجل هذا قضا عند شدة الامتزاج بالبديلة في
قولك . (مَنْ يَضْحَكُ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ فَهْ دَرَهْمٌ) ولهذا وجب
جزمُ الثاني ، وثانيها جملةٌ حالها مع ما قبلها حال الاسم الذي
قبله غيره ، في المشاركة ، فكما تقول قام زيد وعمر وفتقع بينهما
المشاركة في القيام ، فكذا تقول قام زيد وقعد فتقع بينهما
المشاركة في الإسناد الى زيد ، وما هذا حاله فلا بُدَّ فيه من
ذكر العاطف حتى تقع المشاركة من أجله ، وثالثها جملةٌ حالها
مع ما قبلها على الانقطاع من غير مشاركة ، وعلى هذا يكون
ذكر الجملة السابقة ، وتركُ ذكرها سواءً فتكون بمنزلة الاسم
مع اسم آخر لا رابطة بينهما ، وهذا كما مثلناه في قوله تعالى
« إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ اللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ويجبُ مع هذا
تركُ العاطف لانه لا حاجة اليه ، فهذا تمام ما أردنا ذكره في
هذا البحث وبالله التوفيق

﴿ البحث الثاني ﴾

(في ذكر ما يتعلق بالأحرف الجارية)

اعلم أن وضع الحرف مطلقاً هو دلالة على معنى في غيره ولا يستقل بنفسه في الدلالة ، فأما وضع حروف الجر فإنما هو لاتصال معاني الأفعال بالأسماء ، ويختلف ذلك الاتصال باختلاف معانيها ، وتحتها أسرارٌ ولطائف ، فالباء ، للإصاق . و (في) للوعاء و (من) لبيان الجنس الى غير ذلك من المعاني ، ولندكر من ذلك ثلاث آيات من أجل التنبيه

(الآية الأولى)

قوله تعالى « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » فانظر الى براعة هذا المعنى المقصود وجزالة هذا الانتظام بمخالفة موقعي هذين الحرفين ، فإنه إنما خولف بينهما في التلبس بالحق والباطل ، والدخول فيهما ، وذلك من جهة أن صاحب الحق كأنه لمزيد قوة أمره ، وظهور حجته ، وفرط استظهاره راكب لجواد يُصرِّفه كيف شاء ، وبركضه حيث أراد ، فلاجل هذا جعل ما يختص به معدّي بحرف (على) الدال على الاستعلاء ، بخلاف صاحب الباطل فإنه

لفشله ، وفرط قلقه ، وضعف حاله ، كأنه ينغمس في ظلام .
وموضع سافل لا يدري أين يتوجه ولا كيف يفعل ، فهذا
كان الفعل المتعلق بصاحبه مُعدّي بحرف الوعاء ، إشارة الى
ما ذكرناه ، ويؤيد هذا ما ذكره الله تعالى في سورة يوسف
حيث قال « تالله إنك لفي ضلالك القديم »

(الآية الثانية)

قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين
والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي
سبيل الله وابن السبيل » فهذه أصناف ثمانية ، جعل الله
الصدقات مصروفةً فيهم لكونهم أهلاً لها ومستحقين
لصرفها ، لكن الله تعالى خص المصارف الأربعة الأول
باللام ، دلالةً على الملك والأهلية للاستحقاق ، وعدل عن
اللام الى حرف الوعاء في الأصناف الأربعة الأخر ، وما ذاك
الّا للإيدان بأن أقدامهم أرسخ في الاستحقاق للصدقة ،
وأعظم حاجةً في الافتقار من حيث كانت (في) دالةً على
الوعاء ، فنبه على أنهم أحقّاءً بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع
الشيء في الوعاء وأن يجعلوا مظنةً لها ، وذلك لما في فكّ

الرقاب وفي الغرم من الخلاص عن الرقّ ، والدّين اللذين
يشتملان على النقص ، وشغل القلب ، بالعبودية ، والغرم ، ثم
تكريرُ الحرف في قوله (وفي سبيل الله) قرينةٌ مُرَجِّحَةٌ له
على الرقاب والغارمين ، وكان سياق الكلام يقتضى أن يُقال
(وفي الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل) فلما جىء
(بنى) مرّةً ثانيةً وفُصِّلَ بها سبيل الله ، علّم أن السبيل
أكّد في الاستحقاق بالصّرف فيه من أجل عمومته وشموله
لجميع القُرَبات الشرعية والمصالح الدنيّة

(الآية الثالثة)

قوله تعالى « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البرّ
والبحر » إنّما أعرض عن ذكر حرف الاستعلاء وهو (على)
وعُدل عنه الى حرف الوعاء وهو (فى) مع أنّ الظاهر هو
العلوُّ على الأرض والفلك ، إعلاماً بأنّ حرف الوعاء أقعدُ
وأمكنُ ههنا من حرف الاستعلاء لأنّ (على) تُشعر
بالاستعلاء لا غيرُ من غير تمكّنٍ واستقرارٍ ، (وفى) تُشعر
ههنا بالاستقرار والتمكّن ، ومن حقّ ما يكون مستقرّاً فيه
ممكناً أن يكون مستعليّاً له ، فلما كانت (فى) تؤذّن

بالمعنيين جميعاً آثرها وعدل اليها وأعرض عن (على) دلالةً
على المبالغة التي ذكرناها، وإنما ساوى في ذكر (على) بين
قوله تعالى « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبِّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي
سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » لاستوائهما جميعاً في الدلالة على
المبالغة، لأن كلَّ من كان مُنْهَمَكًا في الغيِّ منغمساً في
غمرات الباطل، فهو في التمثيل بمنزلة مَنْ رَكِبَ وَجْهَهُ، وجعله
مطيةً له يمتطيها الى الوقوف عليه وإحرازه له، ومن كان
على الحق فهو في التمثيل بمنزلة من هو على طريق مستقيمة لا
تَعُوجُ به مُنْتَصِبَ الْقَامَةِ، لا ينحني في صعودٍ ولا هبوطٍ،
فأما كان في كَلَّتَا حَالْتِيهِ لا ينفكُ عن الركوب والاستعلاء
إِما لوجهه أو للطريق المستقيمة سوى بينهما في حرف
الاستعلاء، وهذه لطائف دقيقة وأسرار غامضة يَدْرِيهَا من
ضَرَبَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ بَعْرُقَ، وظفر فيها بحظِّ

﴿ الفصل الرابع ﴾

(في التقديم والتأخير)

اعلم أن الألفاظ تابعة للمعاني كما سنقرر في خاتمة هذا
الكتاب بمعونة الله تعالى، والمعاني لها في التقديم أحوال خمسة

(الحالة الاولى)

تقدّم العلة على معلولها عند القائلين بها ، وهذا كتقدّم الكون على الكائنية ، والعلم على المعالية ، وهكذا سائر العلل والمعلولات عند من أثبتها ، وهم أكثر المعتزلة وطوائف من الأشعرية ، فأما نحن فلا نراها ، بل الكون هو نفس الكائنية ، والعلم هو نفس المعالية ، من غير أمر وراء ذلك واستقصاء الردّ على من أثبتها قد قررناه في الكتب الكلامية ، وأنّهينّا فيه القول نهايته ، ونحو تقدّم الأسباب على مسبباتها ، وهذا نحو تقدّم السراج على ضوءه ، فإنّ تقدّم هذه الموجبات على موجباتها يكون تقدّمًا ذهنيًا ، لا زمنيًا ، لأنّ الموجب لا يتراخى عن موجبهِ

(الحالة الثانية)

التقدّم بالذات ، وهذا نحو تقدّم الواحد على الاثنين على معنى أن الوحدة لا يمكن تحقق الاثنينية إلاّ بعد سبقها ، وليس من باب العلة والمعلول فإنّ الوحدة ليست علة في الاثنينية بخلاف ما قررناه من الحالة الأولى

(الحالة الثالثة)

التقدم بالشرف، وهذا نحو تقدم الأنبياء على الأتباع،
والعلماء على الجهال ، فهذا تقدم معقولٌ يخالف ما تقدم

(الحالة الرابعة)

التقدم بالمكان ، وهذا نحو تقدم الامام على المأموم ،
ونحو تقدم من يقرب الى الحائط دون من تأخر عنه ، فمن
يلى الحائط فإنه يقال . إنه سابق على من تأخر عنه ، وهكذا
القول في غيره من الأمكنة

(الحالة الخامسة)

التقدم بالزمان ، وهذا نحو تقدم الشيخ على الشاب ،
والأب على الابن ، فإن الوالد وُجد في زمان لم يوجد فيه
الابن ، فهذه المعاني كلها عقلية ، فما كان منها متقدماً على غيره
بأحد هذه الاعتبارات كان في العبارة كذلك إيتباعاً للمعاني
بالألفاظ ، ومن التقدم بالزمان قوله تعالى « وعاداً وشموداً وقد
تبين لكم من مساكنهم » وهكذا قوله تعالى « وجعل
الظلمات والنور » فإن الظلمة سابقة على النور ، لأن الحق أن

الظلمة هي عدم النور ، وليست أمراً ثبوتياً ، فإذا كان الأمر فيها كما قلناه فلا شك أن عدم الشيء سابق على وجوده ، لأن العدم بلا أول والوجود يتلوه ، فهذا كان تقدم الظلم على الأنوار ، من باب تقدم الأزمنة ، وهكذا القول في الظلمة المعنوية ، لأنها إذا أُريد بها الجهل والكفر فإنها تكون سابقة على النور المعنوي ، وهو العلم ، والإسلام ، ويؤيد ما قلناه قوله تعالى « والله أخرجكم من بطون أمماتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار » فاتتفاء العلم ظلمة معنوية مجازية ، فهي متقدمة بالزمان على نور الإدراكات الخمسة كلها ، وقوله تعالى « في ظلمات ثلاث » يريد ظلمة البطن والرحم والمشيمة

ومن التقدم بالذات قوله تعالى « مثنى وثلاث ورباع » وقوله تعالى « ما يكون من نبوي ثلاثة الآ هو رابعهم ولا خمسة الآ هو سادسهم » وهكذا القول في مراتب الأعداد كلها ، فان كل واحدة منها سابقة على ما بعدها من المراتب سبقاً ذاتياً ، ومن التقدم بالسببية قوله تعالى « وهو العزيز الحكيم » لأن العزيز هو الغالب ، ولأنه تعالى لما عزّ في ذاته بالغلبة حكم على كل شيء ، فلم يخرج عن حكمة ملكه خارجاً ،

ونحو قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »
فالتوبة هي سبب التطهير من دنس الآثام كلها . وقوله تعالى
« وَيَلْبَسْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » فالإفك يكون سبباً للإثم ،
فلهذا قُدِّمَ عليه ، فأما قوله تعالى « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ
يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ »
فتقديمُ (رجالاً) فيه وجهان ، أحدهما أن يكون تقدُّماً بالرتبة ،
فإنَّ الغالب أن الرجالَ إنما يأتون من الأمكنة القريبة ،
والركبان يأتون من الأمكنة البعيدة ، فلهذا قُدِّمَ الرجالُ ،
وثانيهما أن يكون تقديم الرجالِ لأجل الفضل ، فإن من
حجَّ راجلاً أفضلُ ممَّن حجَّ راكباً ، فلهذا قال ابن عباس
رضي الله عنهما وددتُ لو حجَّجتُ راجلاً ، فإن الله قُدِّمَ
الرجالُ على الركبان في القرآن فدلَّ ذلك على أنه فهم من
التقديم في الآية الفضل ، فالمعنيان احتمالان في الآية كما ترى ،
ومن التقديم في الرتبة قوله تعالى « هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ » فإنَّ
الهمَّاز هو المغتاب ، وهو لا يفتقر إلى مشى بخلاف النيمة فإنها
تفتقر إلى نقل الحديث من شخص إلى شخص ، وما كان
مجرّداً فهو سابقٌ في الرتبة على ما كان له تعلقات بغيره ،
وقوله تعالى « مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ » إنما قُدِّمَ على قوله « مَعْتَدٍ أَثِيمٍ »

لما كان المنع مقصوداً على نفسه والعدوان له تعلقٌ بغيره ،
وهكذا قوله « عُتِلَّ » فإنه الفِظُّ الغليظُ ، والزَّيْمُ ، له تعلقٌ
بالغير من جهة أنه الدعيُّ وهو المنسوب الى غير أبيه فله تعلقٌ
بالغير

ومن التقدم في الشرف قوله تعالى « فاغسلوا وجوهكم
وأيديكم » وقوله « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » فإنَّ الوجه
أشرف من اليد ، والرأس أفضل من الرَّجْل ، ومنه قوله « من
النبیین والصدیقین » فإنَّ النبيَّ أشرف من الصديق وقوله
« والشهداء والصالحين » فإنَّ الشهداء أعلا درجةً من غيرهم
من أهل الصلاح ، ومن هذا قوله تعالى « وجعل لكم السمعُ
والأبصارُ » وقوله « إِنَّ السَّمْعَ والبصرَ » وقوله « سميعٌ
بصيرٌ » وقوله تعالى « فما أَغْنَى عنهم سمعُهُم ولا أبصارُهُم »
فأمَّا تقديم الإِنس على الجنِّ فهو الأكثرُ الوارد في القرآن
من أجل شرفهم على الجنِّ كقوله تعالى « لم يطمثهنَّ إِنْسٌ
قبلَهُم ولا جانٌّ » وقوله تعالى « فيومئذٍ لا يسئَلُ عن ذنبه
إِنْسٌ ولا جانٌّ » وقوله تعالى « وأنا ظننَّا أن لن تقولَ الإِنسُ
والجنُّ على الله كذباً » وغير ذلك فأمَّا قوله « يا معشرَ الجنِّ
والإِنسِ » فإنَّما ورد مقدِّماً بهنا على الإِنس ، من أجل

اشتمالهم على الملائكة كما قال «وجعلوا بينه وبين الجنة سبباً»
حيث قالوا للملائكة بنات الله، وكما قال الارحبي
وسخر من جن الملائك سبعة

قياماً لديه يعملون بلا أجر
فحيث كان متناولاً للملائكة قدّموا لفضلهم، وحيث
كان الخطاب مقصوداً على الثقلين قدّم الانس لفضلهم،
والأجود أن يقال: إنما قدّم الجن ههنا لما كان المقام مقام
خطاب بامثال الأوامر في العبادة في قوله تعالى «وما خلقت
الجن والانس الا ليعبدون» فقدّمهم لما كانت المخالفة منهم
في ترك العبادة أكثر من الانس وقوله «يا معشر الجن
والانس» إنما قدّمهم لما كان المقام مقام تسلط واجتراء
والجن بذلك أحقّ فهذا قدّمهم، فأما قوله تعالى «زين للناس
حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من
الذهب والفضة والحيل المسومة والأنعام والحراث» فلأن
الله تعالى لما صدر الآية بذكر الحب، وكان المحبوب مختلف
المراتب متفاوت الدرج، اقتضت الحكمة الإلهية تقديم
الأهم فالأهم من المحبوبات، فقدّم النساء على البنين لما يظهر
فيهن من قوة الشهوة ونزوع الطبع وإيثارهن على كل محبوب

وقدم البنين على الأموال لتمكنهم في النفوس واختلاط محبتهم بالأفئدة وهكذا القول في سائر المحبوبات فالنساء ، أقعد في البيوت ، والبنون أقعد في المحبة من الأموال ، والذهب أكثر تمكناً من الفضة ، والخيل أدخل في المحبة من الأنعام ، والمواشي أدخل من الحرث ، فأما قوله تعالى « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » فإنما قدم الأموال ههنا لأنه في معرض ذكر الافتتان ، ولا شك أن الافتتان بالمال أدخل من الافتتان بالأولاد ، لما فيه من تعجيل اللذة والوصول الى كل مسرة والتمكن من البسطة والقوة ، بخلاف آية القناطر ، فإنه إنما قدم البنين فيها لما ذكرها في معرض الشهوة وتمكين المحبة ، ومما ينتظم في سلك هذا العقد النفيس قوله تعالى « وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » فإنما قدم الطائفين لأن سياق الآية في عظم العناية بالبيت والطائفون اقرب ما يكونون اليه ، فلهذا قدمهم ، ثم ثنى بالقائمين لأنه يلي الطواف في الرتبة لأن القيام يشملها جميعا ، وإنما جُمِعَا لأن الجمع أدلُّ على العموم من المفرد ، وإنما جُمِعَا جمع السلامة لأن في لفظ اسم الفاعل إشعاراً بالتجدد والحدوث ، كالفعل فالطائفون والقائمون في معنى يطوفون ويقومون ، وإنما عدل الى لفظ اسم الفاعل

تجريداً له عن تعلق الأزمنة التي يدلّ عليها الفعل ، وكان اسم
الفاعل أحقّ لما فيه من الإيِّشعار بالحدوث والتجدّد ، وتجرّده
عن الدلالة على الأزمنة ، ثمّ ثلث بالركع السجود ، وإنما جمعه
جمع التفسير وعدلّ عن مشاكلته لما قبله من جمع السلامة ،
لما ذكرناه من أنّ جمع السلامة في الطائفين والقائمين ، فيه
تنبيهٌ على تجدد الطواف المختصّ بالبيت ، والقيام ، لانه نوع
منه ، بخلاف الركوع والسجود ، فإنهما لا يختصان بالبيت ،
بل كما يكونان فيه يكونان بغيره ثم وصف الركع بالسجود ،
ولم يعطفه بالواو كما فعل بالقائمين ، لأن الركع هم السجود ،
والشيء لا يعطف على نفسه ، كما لا تقول : جاءني زيدٌ
والكريم ، على أن يكون الكريم هو زيدٌ ، ولأن السجود
قد يكون عبارة عن المصدر فلو عطفه لأوهم كونه مصدرًا
والمراد الجمع ، لا يُقال : فهلاً قال السجّد ، ليطابق قوله الركع
كما جاء في آية أخرى « تراهم ركعاً سجّداً » أو قال الركوع
ليطابق السجود ، فما الوجه في المخالفة بينهما ، لأننا نقول :
السجود يطلق على وضع الجبهة على الارض ، وعلى الخشوع ،
ولو قال السجّد ، لم يتناول الا المعنى الظاهر من غير إفادة
الخشوع ، ويصدق ذلك قوله تعالى « تراهم ركعاً سجّداً » لما

كان من رؤية العين ، ورؤية العين لا تتعلق إلا بالظاهر
فقصده بذلك الإشارة إلى السجود المعنوي فالصوري ،
بخلاف الركوع ، فإنه ظاهر في أعمال الجوارح الظاهرة التي لا
يشترط فيها البيوت كما في الطواف والقيام المتقدمين ، دون
أعمال القلب ، فلاجل هذا جعل السجود وصفاً للركع ، وإنما
أراد الخشوع الذي هو روح الصلاة وكلها ، فإذا تمهدت هذه
القاعدة فلنذكر ما يجب تقديمه ، ولو أخرج لفسد المعنى وتغير ، ثم
نذكر ما يجوز تقديمه ، ولو أخرج لم تفسد المعنى فهذان تقريران
(التقرير الأول)

ما يجب تقديمه ولو تأخر لفسد معناه ، ونذكر من ذلك
صوراً خمساً

(الصورة الأولى)

تقديم المفعول على فعله كقولك : زيداً ضربت ، في
ضربت زيداً ، فإن في قولك زيداً ضربت تخصيصاً له
بالضرب دون غيره ، بخلاف قولك ضربت زيداً ، وبيانه
هو أنك إذا قدمت الفعل فإنك تكون بالخيار في إيقاعه
(الطراز) — ٩ —

على أى مفعول أردت بأنت تقول ضربت زيداً أو عمراً
أو بكرراً أو خالداً وإذا أخرت الفعل وقدمت مفعوله فإنه يلزم
الاختصاص للمفعول على أنك لم تضرب أحداً سواه ، فأما
قوله « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » فهل يكون تقديم
المفعول به من أجل الاختصاص ، أو من أجل المشاكلة
لرؤس الآى ، فيه مذهبان

المذهب الأول أن تقديم المفعول إنما كان من أجل
الاختصاص ، وهذا هو الذى أشار اليه الزمخشري فى تفسيره ،
وهو رأى الاكثر من علماء البيان ، وذلك لأن المفعول اذا
تقدم لزم الاختصاص كما قلناه فى قولنا زيداً ضربت ،
ولأجل ذلك تكون العبادة مختصة بالله تعالى لأجل التقدم ،
وعلى هذا ورد قوله تعالى « بَلِ اللّٰهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ
الشَّاكِرِينَ » ولم يقل بل أعبد الله لأجل الاختصاص وعلى
هذا يحمل قوله تعالى « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » فتقدمه
من أجل الاختصاص ، وهذا فيه نظر لقوله تعالى « فليعبُدوا
ربَّ هذا البيت » وقوله تعالى « واعبُدوا الله ولا تُشْرِكُوا به
شيئاً » وقوله تعالى « واعبُدْ رَبَّكَ » واعبُدوا ربكم « ولو كان
التقديم من أجل الاختصاص لوجب تقديمه فى هذه الآيات

كلها ، فلما ورد مؤخراً عن الفعل والمعنى واحداً بطل ما قاله
المذهب الثاني أنه إنما قدّم من أجل المشاكلة لرؤس
الآي ، ومراعاة حسن الانتظام ، واتفاق أعجاز الكلام
السجعية ، لأن قبله (مالك يوم الدين) فلو قال نعبدك ،
ونستعينك ، لذهبت تلك الطلاوة ، ولزالت تلك العذوبة ،
وهذا شيء يحكى عن بعض علماء البيان واختاره ابن الأثير ،
والمختار عندنا أنه لا منافاة بين الأمرين فيجوز أن يكون
التقديم من أجل الاختصاص ، والتشاكل ، فيكون في
التقديم مراعاة لجانب اللفظ والمعنى جميعاً ، فالاختصاص أمرٌ
معنوي ، والتشاكل أمرٌ لفظي . وعلى هذا ورد قوله تعالى
« فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى » وقوله تعالى « خذُوهُ فَغُلُّوهُ
ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلَّوهُ » ومنه قوله تعالى « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا
السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ » وقوله تعالى « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا » ولم يقل
وقدّرنا القمر ، ليطابق ما تقدّم من الجمل الابتدائية في قوله
تعالى « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ » وقوله « وَالشَّمْسُ تَجْرِي » فبالتقديم
تحصل ملاحظة الأمرين جميعاً

(الصورة الثانية)

تقدم خبر المبتدأ عليه في نحو قولك : قائم زيد في زيد قائم ، فإنك إذا أخرت الخبر فليس فيه إلا الإخبار بأن زيدا قائم لا غير من غير تعرض لمعنى من المعانى البليغة ، بخلاف ما اذا قدمته وقلت : قائم زيد فإنك تفيد بتقديمه أنه مختص بهذه الصفة من بين سائر صفاته من الأكل ، والضحك وغيرها ، أو تفيد تخصيصه بالقيام دون غيره من سائر أمثاله ، وتفيد وجهاً آخر وهو أنه يكون كلاماً مع من يعرف زيدا وينكر قيامه فتقول : قائم زيد ، رداً للإنكار من ينكره ، ومن هذا قوله تعالى « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » فإنما قدم قوله (مانعتهم حصونهم من الله) وهو خبر المبتدأ في أحد وجهيه ، ليدل بذلك على فرط اعتقادهم لحصانتها ومبالغة في شدة وثوقهم بمنعها إياهم ، وأنهم لا يبالون معها بأحد ، ولا يُنال فيهم نيلٌ ، وفي تقرير ضمير (هم) أسماً وإسناد المنع والحصون إليهم ، دلالةً بالغةً على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزّة ومنعة ، لا تُرمى حوزتهم ، ولا يُغزّون في عُقرِ دراهم ، ولو أُخر الخبر لم يُعط شيئاً من

هذه الفوائد ، ومن هذا قوله تعالى في قصة إبراهيم « أرأيتَ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيمُ » فانما قدّم خبرُ المبتدئِ ولم يقل : أنتَ راغبٌ ، ليدلّ بذلك على إفراط تعجّبه في الميل عنها ومبالغة في الاهتمام بأمرها وواضعاً في نفسه أن مثل آلهته لا تنبغى الرغبة عنها ولا يصح الإعراض عن عبادتها ، ومن رائق ذلك وبديعه قوله تعالى « واقتربَ الوعدُ الحقّ فإذا هي شاخصَةٌ أبصارُ الذين كَفَرُوا » فانما قدّمه ولم يقل : أبصارُ الذين كفروا شاخصةٌ ، لأمرين ، أمّا أولاً فلأنه إنّما قدّم الضمير في قوله (هي) ليدلّ به على أنهم مختصون بالشخص دون غيرهم من سائر أهل المحشر ، وأمّا ثانياً فلأنه اذا قدّم الخبر أفاد أنّ الأبصار مختصة بالشخص من بين سائر صفاتها من كونها حائرة أو مطموسة أو مزورة الى غير ذلك من صفات العذاب ، ولو قال واقترب الوعد الحق فشخصت أبصارهم ، لم يُعط من هذه الأسرار معنى واحداً ، ومن دقيق التقديم وغريبه قوله صلى الله عليه وسلم وقد سُئل عن التوضؤ بماء البحر فقال مجيباً للسائل (هو الطهور ماؤه والحلّ ميتته) وإنّما قدّم الخبر على المبتدئ في الأمرين جميعاً لغرضين ، أمّا أولاً فلأن يدفع بذلك إنكار من ينكر

الحكمين جميعاً ، جواز التوضؤ وحل ميئته ، لأنه ربّما يسنحُ في النفوس من أجل كونه زُعاقاً مختصاً بالملوحة البالغة فلا يجوز التوضؤ به ، وإن كان ميئاً فلا يحلّ أكله لعدم الزكاة فيه ، فقدّم الخبر من أجل دفع ذلك وإزالته ، وأمّا ثانياً فلاجل التنبية على الاختصاص بكونه أخص الأمواه بجواز التوضؤ به لصفائه ورقته ، وأن ميئته حلالٌ لا يشوبها في طيب المكسب ، وحلّ تناولِ شائبٍ ، ولو فال في الجواب هو الذي ماؤه طاهرٌ ، وميئته حلالٌ ، نزل عن ذلك الرتبة وفاتت عنه المزية

(الصورة الثالثة)

(في تقديم الظرف وتأخيره)

اعلم أن الظرف لا يخلو حاله إما أن يكون وارداً في الإثبات ، أو يكون وارداً في النفي ، فإذا ورد في الإثبات فتقديمه على عامه إنما يكون لغرض لا يحصل مع تأخيره فلا جرم التزم تقديمه ، لأن في تأخيره إبطالاً لذلك الغرض ، ثم هو على وجهين ، أحدهما أن يكون وارداً دلالةً على الاختصاص ، وهذا كقوله تعالى « ألا إلى الله تصيرُ

الأُمُورُ» لأنَّ المعنى أن الله تعالى مختصُّ بصيرورة الأُمُور
إليه دون غيره ، ونحو قوله تعالى « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
حِسَابَهُمْ » وقوله تعالى « لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ » فهذه الظروف لا وجه لتقديمها على عاملها إلا ما
ذكرناه من الاختصاص ، وثانيهما أن يكون تقديمه من
أجل مراعاة المشاكلة لرؤس الآي في التسجيع ، وهذا
كقوله تعالى « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ »
ليطابق قوله « بَاسِرَةٌ ، وَفَاقِرَةٌ » ونحو قوله « وَالتَّفَّتِ السَّاقُ
بِالسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ » وقوله تعالى « إِلَىٰ رَبِّكَ
يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » ليطابق قوله « بِمَا قَدَّمُوا وَآخِرٌ » ومثل قوله
تعالى « وَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْتُمْ وَإِلَيْهِ أَنِيبَ » فهذا
وأمثاله إنما قُدِّمَ ليس من جهة الاختصاص . وإنما كان من
أجل ما ذكرناه من المطابقة اللفظية في تناسب الآي
وتشاكلها ، وقد يظن الظَّانُّ أن تقديم الظرف إنما يكون
مقصوراً على الاختصاص وليس الأمر كما ظنَّه كما حققناه ،
بل كما يحتمل المشاكلة كما أشرنا إليه فهو يحتمل الاختصاص
فهما محتملان كما ترى ، والتحكُّمُ بأحدهما لا وجه له ، وأما
إذا كان وارداً في النفي فقد يرد مقدِّماً ، وقد يرد مؤخِّراً ، فإذا

ورد مؤخراً أفاد النفي مطلقاً من غير تفصيل ، وهذا كقوله تعالى « لا ريب فيه » فإنه قصد أنه لا يُلصقُ به الريبُ ولا يُخالطه ، لأن النفي التصق بالريب نفسه ، فلا جرم كان منتفياً من أصله ، بخلاف ما لو قُدّم الظرف فإنه يفيد أنه مخالف لغيره من الكتب فإنه ليس فيه ريبٌ ، بل في غيره كما لو قلت : لا عيب في هذا السيف فإنه نفي العيب عنه على جهة الاطلاق ، بخلاف ما لو قلت هذا السيف لا فيه عيب ، ولهذا آخره ههنا وقدمته في قوله تعالى « لا فيها غولٌ ولا هم عنها يُنزفون » لأن القصد ههنا تفضيلها على غيرها من خمور الدنيا والمعنى أنه ليس فيها ما في غيرها من الغول ، وهو الخُمَار الذي يصدع الرأس ، أو يُريد أنها لا تغتالهم بإذهاب عقولهم كما في خمور الدنيا (ولا ينزفون) اى لا يسكرون من الإِنزاف وهو السكر

(الصورة الرابعة)

الحالُ فإنك اذا قدمته فقلت : جاء ضاحكاً زيدٌ ، فإنه يفيد أنه جاء على هذه الصفة مختصاً بها من غيرها من سائر صفاته بخلاف ما لو قلت . جاء زيد راكباً ، فإنه كما يجوز أن

يجيء على هذه الصفة فإنه يجوز مجيئه على غيرها من الصفات
فاقترقا

(الصورة الخامسة)

الاستثناء في نحو قولك . ما ضربت الا زيداَ أحداً ،
فإنك اذا قدّمته فإنه يفيد الحصر ، وأنه لا مضروب لك
سواه ، وهكذا لو قلت . ما ضربت أحداً الا زيدا ،
فالصورتان دالتان على الحصر لَمَّا كان الاستثناء متصلاً
بالمفعول بخلاف قولك . ضربت زيداَ فإنه غير مفيد للحصر ،
فكما يجوز أن تضربه يجوز أن تكون ضارباً لغيره وهكذا
القول في غيره من المسائل فانها تختلف حالها باختلاف
التقديم والتأخير

(التقرير الثاني)

(في بيان ما يجوز تقديمه ولو أخر لم يفسد معناه)

اعلم أن الشئيين اذا كان كل واحد منهما مختصاً بصفة
تقتضى تقديمه على الآخر فأنت بالخيار في تقديم أيهما
شئت ، وهذا كقوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين
اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم

(الطراز)

سابق بالخيرات » فإنما قدم الظالم لنفسه لأجل الإيدان
بكثرتهم وأن معظم الخلق على ظلم نفسه ، ثم ثنى بعدمهم
بالمقتصدين لأنهم قليلٌ بالإضافة الى الظالمين ، ثم ثلث
بالسابقين وهم أقلُّ من المقتصدين ، فلا جرم قدم الأكثر ،
ثم بعده الأوسط ، ثم ذكر الأقلَّ آخرًا لما أشرنا اليه ، ولو
عُكسيت هذه القضية فقدم السابق لشرفه على الكلِّ ، ثم
ثنى بالمقتصد لأنه أشرف ممن ظلم نفسه لم يكن فيه إخلال
بالمعنى ، فلا جرم روعي في ذلك تقديم الأفضل فالأفضل ،
ومما ينسحب ذيله على ما قررناه من الضابط قوله تعالى « وأنزلنا
من السماء ماءً طهوراً لنحْيَ به بَلَدَةً مَيْتًا ونُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا
أَنْعَامًا وَأَنْعَامًا كَثِيرًا » فقدم حياة الأرض لأنها سبب في
حياة الخلق ، فلاجل هذا قدمت لاختصاصها بهذه الفضيلة ،
ثم قدم حياة الأنعام على حياة الناس ، لما فيها من المعاش للخلق
والقوام لأحوالهم فراعى في التقديم ما ذكرناه ، ولو قدم
سقى الخلق على سقى الأنعام لاختصاصهم بالشرب ، وقدم سقى
الأنعام على الأرض لكان له وجهٌ ، لأن الحيوان أشرف من
غيره ، فكل واحد منهما مختص بفضيلة يجوز تقديمه لأجلها ،
فلاجل هذا ساغ فيه الأمران كما ترى ، ومما نُردده من ذلك

قوله تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع » وإنما قدم الماشى على بطنه ، لأنه لما صدر الآية بالاخبار على جهة التمدح بأنه خالق لكل دابة من الماء ، فقدم في الذكر من يمشى على بطنه ، لانه أدل على باهر القدرة وعجيب الصنعة من غيره ، وثى بمن يمشى منهم على رجلين ، لأنه أدخل في الاقتدار ممن يمشى على أربع ، لأجل كثرة آلات المشى فيكون التقديم على هذا من باب تقديم الأعجب في القدرة فالأعجب ، ولو عكس الأمر في هذا فقدم الماشى على الأربع ثم ثى بالماشى على رجلين ثم ختمه بالماشى على بطنه لكان له وجه في الحسن ، وعلى هذا يكون تقديمه من باب الأفضل فالأفضل ، لا يقال فأراه لم يقتصر على قوله « فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين » فيكون فيه وفاءً بذكر الصنفين ويكون ما عداهما مندرجاً تحتها فيدخل تحت الأول من لا رجل له من حيوان البر والبحر ، ويدخل تحت الثانى من يمشى على أكثر من رجلين ، ولا حاجة الى ذكر من يمشى على أربع لاندراجه تحت ما قبله ، أو كان قد ذكر الأربع بذكر ما فوقها ، فلم يخص هذه الأنواع الثلاثة ، لأننا

تقول إنما ذكر من يمشى على بطنه ولا بُدَّ من ذكره لما فيه من باهر القدرة ، ولأنه غير مندرج تحت غيره ، وخصَّ من يمشى على رجلين ، لأن من جملتهم بنى آدم ، فخصَّهم بالذكر لما لهم من مزيد الشرف على سائر الحيوانات ثم نبه (بمن يمشى على أربع) على سائر الحيوانات كلها ، ولم يذكر ما زاد على ذلك ، إمَّا لانه قليل بالإضافة الى ذوات الأربع ، وإمَّا لأنه يدخل بطريق الأولى لأنه اذا جاز أن يمشى على أربع فشيء على أكثر منها أدخل في القدرة والجواز

ومن ذلك قوله تعالى « وما يعزُّبُ عن ربِّك من مثقالِ ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء » وقال في آيةٍ أُخرى « وما يعزُّبُ عن ربِّك مثقالُ ذرَّةٍ في السموات ولا في الأرض » والفرقةُ بينهما هو أنه أراد في الثانية ذكرَ إحاطةِ عامه وشموله لكل المعلومات الجزئية والكلية ، فلا جرَم صدر بالسموات قبل الأرض لاشتمالها على لطائف الحكمة وعجائب الصنعة ومحكم التأليف وكثرة المعلومات كما قال تعالى « وكذلك نرى إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ » وأما الأولى فإنها كانت مسوقة من شأن أهل الأرض كما قال تعالى « وما تعملون من عملٍ إلاَّ كنَّا عليكم شهوداً » فقدّم ذكر الأرض تنبيهاً

على ذلك لما كان له اختصاص به ، وهكذا حال الآيات
القرآنية فإن فيها لمن تأملها وأمعن نظره وحك قريحته ،
أسراراً علميةً ولطائف إلهية ، يدرّجها من أدمن فكرته
فيها ، وأتعب قلبه وخاطره في إحراز معانيها

﴿ دقيقة ﴾

اعلم أنه إذا كان مطلع الكلام في إفادة معنى من المعاني
ثم يجيء بعده ذكر شيئين وأحدهما يكون أفضل من
الآخر وكان المفضول مناسباً لمطلع الكلام ، فأنت ههنا
بالخيار ، فإن شئت قدمت المفضول لما له من المناسبة لمطلع
الكلام ، وإن شئت قدمت الفاضل لما له من رتبة الفضل ،
وقد جاء في التنزيل تقديم السماء على الأرض وتقديم الأرض
على السماء ، وكلُّ واحد منهما تحته سرٌّ ورَمزٌ إلى لطائف
غريبة ، ومعانٍ عجيبة ، فعلى الناظر إعمال نظره في استنباطها ،
وإمعان فكره في استخراجها ، فليجد النظر الممارسون ، وفي
ذلك فليتنافس المتنافسون

﴿ الفصل الرابع ﴾

(في الإيهام والتفسير)

اعلم أن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهماً فإنه يفيد بلاغةً ، ويكسبه إعجاباً ونخامةً ، وذلك لأنه إذا قرع السمع على جهة الإيهام ، فإن السامع له يذهب في إيهامه كل مذهب ، ومصداق هذه المقالة قوله تعالى « وقضينا إليه ذلك الأمر » ثم فسره بقوله « أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » وهكذا في قوله تعالى « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما » فأبهمه أولاً ثم فسره بقوله « بعوضة فما فوقها » ففي إيهامه في أول وهلة ، ثم تفسيره بغير ذلك ، تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه ، فإنه لو قال وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع ، وإن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بعوضة ، لم يكن فيه من الفخامة وارتفاع مكانه في الفصاحة ، مثل ما لو أبهمه قبل ذلك ويؤيد ما ذكرناه هو أن الإيهام أولاً يوقع السامع في حيرة وتفكير واستعظام ، لما قرع سمعه فلا تزال نفسه تنزع إليه وتشتاق إلى معرفته والاطلاع على كنهه حقيقته ، ألا ترى أنك إذا قلت : هل أدلك على أكرم

الناس أبا ، وأفضلهم فعلاً وحسباً ، وأمضاهم عزيمَةً ، وأنفذهم رأياً ، ثم تقول . فلان ، فإن هذا وأمثاله يكون أدخل في مدحته مما لو قلت . فلان الأكرم الأفضل الأنبل ، وما ذاك إلا لأجل إبهامه أولاً ، وتفسيره ثانياً ، وكل ذلك يؤكد في نفسك عظم البلاغة في الكلام إذا أبهم أولاً ، ثم فسّر ثانياً ، ثم إنه في إفادته لما يفيد من ذلك ضربان

(الضرب الأول) منهما ما يردُ مبهماً من غير تفسير ، ووروده في القرآن كثيرٌ ، وهذا كقوله تعالى في قصة موسى « وفعلتَ فعلتكَ التي فعلتَ » فلم يذكر الفعلَ بعينها مع كونها معلومةً لما في ذلك من المبالغة في أمرها وتعظيم شأنها ، كأنه قال تلك الفعل التي عظم أمرها ، وارتفع شأنها ، وكقوله تعالى « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقومُ » يريد بذلك الطريقة أو الحالة أو الخصلة إلى غير ذلك من المحتملات المتعددة ، وأيُّ شيء من هذه الأمور قدرته فإنك لا تجد له من البلاغة وإن بالفت في الإفصاح به ، الذي تجده من مذاق الفصاحة مع الإبهام ، من جهة أن الوهم يذهب معه كلَّ مذهب ، لما فيه من المحتملات الكثيرة ومن هذا قوله

تعالى « فغشيتهم من اليم ما غشيتهم » يريد أنه بلغ مبلغاً تقاصرت العبارة عن كنهه فحذف ذلك وأقام الإبهام مقامه ، لأنه أدلُّ على البلاغة فيه كما قررناه ، ومنه قوله تعالى « والمؤتفة أهوى فغشاهما ما غشى » فهذه أبلغ من الآية التي قبلها ، لأن إبهامها أكثر ، فهذا كان أبلغ وأوقع ، ولهذا فإنه قال في الأولى « فغشيتهم من اليم ما غشيتهم » واليم هو البحر ، فصار الذي أصابهم من الألم والتعب إنما هو من البحر خاصة لا من غيره ، بخلاف الثانية ، فإنه أبهم فيها الأمر الذي غشيتها ، ولم يخصه بجهة دون جهة ، وهذا لا محالة يكون أبلغ ، لأن الإنسان يرمى به خاطره فيه كل رمي ، ويذهب به كل مذهب

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى « فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمازونه على ما يرى » فأبهم الأمر في هذه الأمور الثلاثة فيما شرح الله به صدره من العلوم الموحاة ، وأن الفؤاد ما أنكر ما رأى من تلك العجائب الإلهية ، ثم عقبه بالإنكار عليهم في الممارسة له في الذي رآه ، وما ذلك إلا لأنه قصد تعظيم حالها ، وأنها بلغت في الفخامة مبلغاً لا تدركه العقول كانه قال : أوحى إلى عبده

أمرًا أيَّ أمرٍ ، واللامُ في الفؤاد ، للعهد لأن المراد هو فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم كأنه قال لا ينبغي لمثل ذلك الفؤاد أن يكذب ذلك الأمر ، ولا يصلح في مثل ذلك الأمر أن تقع فيه الممارسة بحال

ومما يجرى على هذا الأسلوب قوله تعالى « وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا » كأنه قال ألق هذا الأمر الهائل الذي في يمينك ، فإنه يبطل ما أتوا به من سحرهم العظيم ، وإفكهم الكبير ، وكما يردُّ على جهة التعظيم كما أشرنا إليه فقد يكون واردةً على جهة التحقير ، كأنه قال وألق العويد الصغير الذي في يمينك ، فإنه مبطلٌ على حقارته وصغره ما أتوا به من الكذب المختلق والزور المأفوك ، تهكمًا بهم ، وإضرارًا بعقولهم ، وتسفيهاً لأحلامهم ، ومنه قوله تعالى في المدح « فَنِعِمَّا هِيَ » فإن هذا إبهامٌ نزل منزلاً عظيماً في إفادته المدح ، وما ذاك إلا لأجل نخامته في الإبهام ، فلهذا أفاد البلاغة ، ومواقفه في القرآن أكثر من أن تُحصى ، ومحاسنه الكبرى أوسع من عديد الحصا ، ومن الأمثلة الواردة في السنة الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم « عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ

ميتٌ ، وأحبيبٌ من أحببتِ فإنك مفارقة ، وأعملٌ ما شئتِ
فإنك ملاقيه « فهذا الإيهامُ إذا نظر فيه حاذقٌ بصيرٌ ،
وفكرٌ فيه ألمعيٌ نحريرٌ ، وجدده مع ما قد حاز من البلاغة
مشملاً على مبانِ جمّةٍ ، ونسكتِ غزيرةٍ ، ومواعظِ زاجرةٍ ،
على تقاربِ أطرافه ، وكثرةِ محاسنه وأوصافه ، وقوله عليه
السلام « أحبُّ حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك
يوماً ما وأبغضُ بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك
يوماً ما » فهذا من رشيقي الإيهامِ وبديعه ، ومن عجيبِ أمره ،
ودقيقِ سرّه ، أنه أمره بالاعتدالِ في حالتَي الحبِّ والبغضِ ،
ومجانبةِ الإفراطِ والتفريطِ ، فقال أحب حبيبك على الهونِ
من غيرِ إفراطٍ في حبه ، فلعلك أن ترجعَ عن ذلك في بعضِ
الأيامِ وإن قلّ ، فأنتى بالهونِ منكرّاً مبهماً وباليومِ منكرّاً
مبهماً ، ليدلّ بهما على شدّةِ المبالغةِ في المفقودِ ، وإلّا قيّدَ
الأولَ بالهونِ والثاني باليومِ على جهةِ الإيهامِ ولم يعكسِ
الأمرَ فيهما ، لأنّ الأوّلَ مَوْجّهٌ على جهةِ الأمرِ ، بخلافِ
الثاني ، فلهذا أمره بالتهوينِ في مبدأِ الأمرِ ، حبّاً كان أو
بغضاً من غيرِ تهالكٍ فيهما مخافةً أن يبدؤا له خلافُ ذلك
فيصعبُ تداركه ويعظمُ تلافيه ، فلا جرّمُ قيّدَ الأمرِ بالهونِ ،

لما كان ملابساً له ، وقيد الرجوع باليوم ، لما كان عائداً اليه ،
ولو عكس لم يُعْطِ هذا المعنى ، ومن هذا قوله صلى الله عليه
وسلم « خُذُوا الْعَطَاءَ مَا كَانَ عَطَاءً فَإِذَا تَبَاحَفَتِ قُرَيْشٌ
مُنْكَهَا فَاتْرُكُوهُ » وفي حديث آخر خُذُوا الْعَطَاءَ مَا كَانَ
عَطَاءً فَإِذَا تَبَاحَفَتِ قُرَيْشٌ الْمُلُوكَ فَلَا تَأْخُذُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ
رِشْوَةٌ » فالإيهامُ هو قوله ما كان عطاءً ، لاشتماله على
مقاصد عظيمة ، وفي هذا القدر كفايةٌ من التمثيل
بالكلام النبوي

ومن كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه في الإيهام قوله عليه
السلام « أَحْسَنُ إِلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ ، وَأَحْتَجُّ إِلَى مَنْ
شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ ، وَاسْتَفْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ » وفي
هذا الكلام من الإعجاب ما لا يطلع عليه إلا الخواص ، ولا
يُحِيط بأسراره إلا كل غواص ، ويحارُّ السامع له من أيّ
شيءٍ يَعْجَبُ مِنْهُ ، هل من فصاحة لفظه ، أو بلاغة معناه أو
من حسن سبكه ، أو من دقة مغزاه ، ومنه قوله عليه السلام
عند قراءة « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ » يَا مَرَامًا مَا أَبْعَدَهُ ، وَزَوْرًا مَا
أَغْفَلَهُ » فانظر الى مطلع هذا الوعظ ما فيه من الزجر والمبالغة

في الموعظة ، وقرع القلوب وإيقاظها من الغفلة، ومنه قوله عليه السلام « إنَّ الرجلَ ليحزنَ على ما لم يكن ليُدركه ، ويفرحُ بما لم يكن ليفوته » فهذا أيضا من عظيم الإبهام ، ومن جيد الإبهام قولهم : لو رأيت أمير المؤمنين وقد اعتقل القناة يُجدل الأبطال ، ويجول في مُعترك القتال . أيَّ مجال ، فهذا عموم وإبهام مُعطٍ للبلاغة وإن لم يكن فيه آلة الإبهام ، فأما الآيات الشعرية فكقول البُحْثري

مُبِيدُ مَقِيلِ السَّرِّ لَا يَدْرِكُ الَّتِي

يَحَاوِلُهَا مِنْهُ الْأَدِيبُ الْمَخَادِعُ

فقوله التي يحاولها من الإبهام الذي لا تفسير له ، ومن

آيات الحماسة

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ

فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ أُنْعِدْ

فقوله : صبا ما صبا ، فيه من الإبهام البالغ ما لو

تناهيت في تفسيره فإنك لا تجد له من البيان مثل ما تجده

في إبهامه ، وكقول بعض الشعراء في صفة الحمر

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا

وَفِي الزَّجَاجَةِ بَاقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي

والكلام على هذا البيت مثل ما مضى في أمثاله ، ومنه قول بعض المتأخرين (فؤاد فيه ما فيه) فهذا فيه غاية المبالغة لإيهامه ، وكقول ابن الأثير في بعض التقاليد وأنت مؤهل لواحدة تجلو بها غرر الجياد ، وتناديها العليا بلسان الإجماد ، وتفخر بها سمر الأقلام على سمر الصعاد ، فقوله لواحدة ، فيه من الإيهام البالغ ما لا يقوم مقامه البيان ومنه قول المتنبي خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زحل

فقوله ما تراه ، فيه إيهام عظيم ومنه قولهم (بعد اللّيتي والّتي) فإن هذا واقع في الإيهام أعظم موقع ، وما حذفوا الصلة الآ من أجل ارادة الإيهام ، لأن الصلة موضحة للموصول في علم الإعراب ، ولهذا توهم بعض النحاة لأجل إيضاحها للموصول ، أنها هي المعرفة له ، وكأنها بلغت مبلغاً لا تُطبقُ العبارة على وصفه ، والأمثلة في مثل هذا كثيرة وفيما ذكرناه كفاية وتنبية على ما عداه

(الضرب الثاني) في الإيهام الذي ظهر تفسيره ، وهذا كقوله تعالى « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء

مقطوعٌ « فقلوه (ذلك الأمر) مبهم ، وقد فسره بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفي إبهامه أولاً ، ثم تفسيره ثانياً تفخيمٌ للأمر وتعظيم لشأنه ، ولو قال من أول وهلة ، وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع ، لم يكن فيه ما كان مع الإبهام من الفخامة ، وعلى نحو هذا ورد قوله تعالى « قال قد أُوتيت سُؤلك يا موسى » الى ان قال « إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ » فَسَّرَ قَوْلَهُ مَا يُوحَىٰ ، بقوله أَنْ اقْذِفِيهِ ، فحصل فيه من البلاغة ما ترى ، ومن هذا قوله تعالى « فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » وقوله تعالى « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ » الى قوله « بغير حساب » ألا ترى أنه أبهم الرشاد كيف حاله ، ثم أوضحه بعد ذلك بأن افتتح كلامه بدم الدنيا وتحقير شأنها ، وتعظيم حال الآخرة والاطلاع على كُنه حقيقتها ، ثم ذكر الأعمال حسنها وسيئها وعاقبة كل شيء منها ، ليُرغِبَ في كل حسنة ويزهّدَ عن كل سيئة فكانه قال : سبيل الرشاد ما اشتمل عليه هذا الشرح العظيم المحيط بالترغيب فيما يُزَلَفُ والانكفاف عما يُوهى ويُتَلَفُ

ومن السنة الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ
بِأَمْرَيْنِ خَفِيفَةٌ مُؤْتَتُهُمَا ، عَظِيمٌ أَجْرُهُمَا ، لَنْ يُلْقَى اللَّهُ
بِمَثْلِهِمَا » ثم قال بعد ذلك تفسيراً لهما « الصمتُ وحسنُ
الخلقِ » وقوله عليه السلام : أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا إِذَا فَعَلْتُمُوهُ
تَحَابَيْتُمْ ، قَالُوا نَعَمْ ، أَفَشُوا السَّلَامَ ، فَانظُرْ إِلَى تَفْسِيرِ مَا أَبْهَمَ
فِي هَذَيْنِ الْخَبْرَيْنِ ، مَا أَعْظَمَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ ، وَفِي
حَدِيثٍ آخَرَ « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَخْسَرِ النَّاسِ صَفْقَةً قَالُوا نَعَمْ ،
قَالَ « مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ » وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ الْخَطْوِ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، فَإِنَّ أَمْرَهُمَا مَبْنِيٌّ عَلَى
الْبَلَاغَةِ ، وَلِهَذَا الْبَابُ مَوْقِعٌ عَظِيمٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهَا

ومن كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه « إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ
الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ » فَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ
مَعْنَى قَوْلِهِ هَذَا ، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ ، وَوَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنَيْهِ وَعَيْنَيْهِ ، ثُمَّ
قَالَ « الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ ،
فَلِيَتَأَمَّلِ الْمُتَأَمِّلُ هَذَا الْإِيْبَاهَامَ اللَّطِيفَ الَّذِي يَعْبُزُّ عَنْهُ أَكْثَرُ
الْخَلِيقَةِ ، وَلَا يَدْرِي بِكَذِبِهِ إِلَّا مَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي عِلْمِ
الْبَلَاغَةِ ، وَلَقَدْ سَبَقَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى غَايَتِهَا وَمَا صَلَّى ، وَفَازَ

فيها بالنصيب الأوفر والقدح المَعْلَى ، وبرّز فيها على الأقران ،
وفاز بالخصل من بين سائر الفرسان

﴿ الفصل الخامس ﴾

في الإيجاز والحذف ، ويقال له الإشارة أيضاً ، يُقال
أوجز في كلامه ، اذا قصره ، وكلام وجيز أي قصير ، ومعناه
في اصلاح علماء البيان ، هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ
القليل ، وأصدق مثال فيه قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر »
فها تان الكلمتان قد جمعتا معاني الرسالة كلها ، واشتملت على
كليات النبوة . وأجزائها ، وكقوله تعالى « خذ العفو وأمر
بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فهذه الكلمات على قصرها
وتقارب أطرفها قد احتوت على جميع مكارم الأخلاق ،
ومحمد الشيم ، وشريف الخصال ، وهذا هو المراد بقوله صلى
الله عليه وسلم « أُوتيتُ جوامع الكلم » فالكلم جمع كلمة ،
والجوامع جمع جامعة ، كضاربة وضوارب ، والغرض بما قاله هو
أنه عليه السلام مُكِّن من الألفاظ المختصرة التي تدل على
المعاني الغزيرة ، وأنت اذا فكرت في كلامه وجدت جلّ كلماته
جاريةً هذا المجرى ، ولهذا فان الناظرين في السنّة النبوية

الدالة على الأحكام الشرعية ، والحكم الأدبية لا تزال المعاني المستخرجة منها غضةً طريّةً على تكرّر الأعوام وتطاؤل الأزمان ، ومع ذلك فإنهم ما أحاطوا بغايتها ولا بلغوا نهايتها ، وهذا كقوله عليه السلام « لا ضرر ولا ضرار في الاسلام » فإن هذه الكلمة مشتملةٌ على معانٍ شرعية ، وآداب حكمية تزيد على الحدّ وتفوت على العدّ ، وهكذا قوله صلى الله عليه وسلم « الخراج بالضمان » فإن تحته أسراراً فقهيةً ، وبدائع عامية ، تشتمل عليها كتب الفقه ، ومن ثمّ اتسع نطاق الاجتهاد وعظمت فوائده فحصل من هذا أن الإيجاز من أعظم قواعد البلاغة ، ومن مهمات علومها ، ومواقعه في القرآن أكثر من أن تحصى ، فإذا تمهدت هذه القاعدة فاعلم أن جماعةً من علماء البيان زعموا أن الكلام قسمان ، فنه ما يحسن فيه الإيجاز والاختصار ، وهذا نحو الأشعار ، والمكاتبات ، وأنواع التصانيف في العلوم والآداب ، ومنه ما يحسن فيه التطويل ، وهذا نحو الخطب وأنواع الوعظ التي تُفعل من أجل العوامّ فإنّ الكلام إذا طال أثّر ذلك في قلوبهم ، وكانوا أسرع إلى قبوله ، واعتلّوا بأنه لو اقتصر على الإيجاز والاختصار

فإنه لا يقع لأكثرهم نفعٌ ، ولا يجدي ذلك في حقه ، وهذا فاسد لا وجه له ، فإن الإيجاز الذي لا يُخلُّ بمعاني الكلام هو اللائقُ بالفصاحة والبلاغة وعلى هذا ورد التنزيلُ ، والسنةُ النبويةُ ، وكلام أمير المؤمنين وغير ذلك من فصيح كلام العرب ، فإنه مبني على الإيجاز الدال على المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، وما زعموه من إفهام العامة فإن إفهامهم ليس شرطاً معتبراً ولا يُعولُ عليه ، ولو جاز ترك الإيجاز البليغ لاجل إفهام العوام لجاز ترك الألفاظ الفصيحة والإتيان في الكلام بالألفاظ العامة المألوفة عندهم ، فكما أن هذا ليس شرطاً فهكذا ما ذكروه ولقد صدق من قال في هذا المعنى

على نَحْتِ القوافي من مقاطعها

وما على إذا لم تفهم البقرُ

وإنما الذي يجبُ مراعاته ويتوجه إليه قصده ، هو الإتيان بالألفاظ الوجيزة الفصيحة ، والتجنب للألفاظ الوحشية مع الوفاء في ذلك بالإبانة والإفصاح ، وسواء فهم العوام أم لم يفهموا ، فإنه لا عبرة بهم ولا اعتداد بأحوالهم ولا يضرّ الكلام الفصيح عدم فهمه بمعناه ، ولهذا فإن نور الشمس إذا لم يره الأعمى لا يكون نقصاً في وضوحه وجلالته ، وإنما

النقصُ في بصر الأعمى حيث لم يُدركه ، ولهذا فان الله تعالى ما خاطب بفهم معاني كتابه الكريم الا الاذكياء ، وأعرض عن البُلهِ من العوام وشبَّههم في العمى والبلادة بالأُنعام حيث قال « إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » والتطويل تقيضُ الإيجاز ، وهو مخالف لجانب البلاغة ، وبمعزل عن مقاصد الفصاحة ، وحاصله أن تُورد ألفاظاً في الكلام اذا أُسقطت بقي على حاله في الإفادة ، وأكثر ما يكون في الأشعار فإنها تُورد من أجل الاستقامة في الوزن ، كلفظ (لعمري) في قول أبي تمام

أَقْرُوا لَعْمَرِي بِحُكْمِ السِّیُوفِ * وَكَانَتْ أَحَقَّ بِفِصْلِ الْقَضَا
ونحو لفظ (الغداة) في قوله أيضا

إِذَا أَنَا لَمْ أَلَمْ عَثْرَاتِ دَهْرٍ * بُلَيْتُ بِهِ الْغَدَاةَ فَمَنْ أَلُومِ
فقوله : لعمري ، والغداة ، فصلان زائدان لا حاجة

اليهما الا من أجل استقامة الوزن ، وصحته ، وكلفظ (يا صاحبي) في قول البحتری

ما أحسن الأيامِ إِلَّا أَنَّهَا

يَا صَاحِبِي إِذَا مَضَتْ لَمْ تَرْجِعْ

فقوله (يا صاحبي) لغوٌ لا فائدة تحته سوى ما ذكرناه من تحسين لفظ البيت وتجويده ، وهكذا القول فيما أشبهه وهو خلاف ما عليه كلامُ البلغاء فإن من شأن الفصاحة أن تكون الألفاظ مطابقةً لمعانيها المقصودة لها من غير زيادة فيها ولا نقصان ، وإذ قد فرغنا عما نريده من ذكر ديباجة الإيجاز فلنرجع الى مقاصده

اعلم أن مدار الإيجاز على الحذف ، لأن موضوعه على الاختصار ، وذلك إنما يكون بحذف ما لا يُخلُّ بالمعنى ، ولا ينقص من البلاغة ، بل أقول لو ظهر المحذوف لنزل قدرُ الكلام عن علوِّ بلاغته ، ولصار الى شيءٍ مشتركٍ مُسترذَل ، ولكان مبطلاً لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقّة ، ولا بدّ من الدلالة على ذلك المحذوف ، فإن لم يكن هناك دلالة عليه فإنه يكون لغواً من الحديث ، ولا يجوز الاعتماد عليه ، ولا يُحكّم عليه بكونه محذوفاً بحال ، ويظهر المحذوف من جهتين ، إحداهما من جهة الإعراب على معنى أن الدالّ على المحذوف هو من طريق الإعراب ، وهذا كقولك : أهلاً وسهلاً ، فإنه لا بدّ لهما من ناصب ينصبهما يكون محذوفاً لأنهما مفعولان في المعنى ، وثانيهما لا من جهة

الإعراب وهذا كقولنا : فلان يُعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ،
فإن تقدير المحذوف لا يظهر من جهة إعرابه ، وإنما يكون
ظاهراً من جهة المعنى ، لأن معناه فلان يعطى المال ، ويمنع
الذمّار ، ويصل الأرحام ، ويقطع الأمور برأيه ويفصلها ، ثم
الإيجاز تارة يكون بحذف الجمل ، ومرّة يكون بحذف
المفردات ، وأخرى من غير حذف ، فهذه ثلاثة أقسام
يندرج تحتها جميع ما نريده من أسرار الإيجاز

﴿ القسم الأول ﴾

(في بيان الإيجاز بحذف الجمل)

اعلم أن حذف الجمل له في البلاغة مدخلٌ عظيمٌ ،
وأكثر ما يرد في كتاب الله تعالى ، وما ذاك إلا من أجل
رسوخ قدمه ، وظهور أثره ، واشتهار علمه ، ويرد على
ضروب أربعة

(الضرب الأول) منها حذف الأسئلة المقدّرة ،
ويلقب في علوم البيان بالاستئناف ، ثم هو يجري على وجهين
الوجه الأول أن يكون استئنافاً بإعادة الصفات
المتقدمة ، ومثاله قوله تعالى في صدر سورة البقرة « هُدًى

للمتقين الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ « الى قوله « أولئك على هدى من ربهم وأُولَئِكَ هم المفلحون » فموضوع الاستئناف من الآية هو قوله « أولئك على هدى من ربهم » لانه لما عدد صفات المتقين بالإيمان بالغيب ، وبإقامة الصلاة ، وبالإنفاق الى آخر ما قرره من صفاتهم الحسنة ، أتجه لسائل أن يسأل بأن هؤلاء قد اقتصوا بهذه الصفات ، فهل يختصون بغيرها ، فأجيب عنه بأن الموصوفين بما تقدم من الصفات هم المستحقون للفوز بالهداية عاجلاً وللفلاح آجلاً

الوجه الثاني أن يكون الاستئناف واقعاً بغير الصفات ، ومثاله قوله تعالى « وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » الى قوله « فَاسْمَعُونَ » فموقع الاستئناف هو قوله تعالى « قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » لأن ما هذا حاله من مظان السؤال ، كأن سائلاً قال كيف حال هذا الرجل الذي آمن بالله ولم يعبد إلهاً غيره وأخلص في عبادته عند لقاء ربه بعد التصلب في دينه والسخاء له بروحه ، فقيل . قيل أدخل الجنة ، وطرح الجار والمجرور ، ولم يقل : قيل له ، لانصبا ب القصد الى القول ، لا إلى المقول له مع كونه معلوماً ، فلماذا لم يذكره

من أجل ذلك ، وله أمثلة كثيرة ، وفيما ذكرناه تنبيهه
على ما عداه

(الضرب الثاني) أن يكون الحذف من جهة السبب ،
لأنه لما كان السببُ والمسببُ متلازمين ، فلا جرم جاز
حذف أحدهما وإبقاء الآخر ، فهذان وجهان

الوجه الأول حذف المسبب وإبقاء ما هو سبب
فيه ، دلالةً عليه ، ومثاله قوله تعالى « وما كنت بجانب
الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين
ولكننا أنشأنا قرؤنا فتطاول عليهم العمر » والمعنى في هذا
ما كنت شاهداً حال موسى في إرساله ، وما جرى له وعليه ،
ولكننا أوحينا إليك ، فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة
الفترة ودلّ به على المسبب وهو الوحي إلى الرسول صلى الله عليه
وسلم كما هو الجاري في أساليب التنزيل في الاختصار ، فعلى
هذا يكون التقدير ولكننا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى موسى
إلى زمانك قرؤنا كثيرة فتطاول على القرون الذي أنت منهم
العمر ، أي أمدُ انقطاع الوحي فاندurst أعلام النبوة ،
وامتحت آثار العلوم ، فوجب من أجل ذلك إرسالك إليهم ،
فأرسلناك وعرفناك أحكام التحليل والتحرير وأخبرناك

بقصص الأنبياء وعلوم الحكم والآداب ، فالمحذوف هي هذه الجملة الطويلة بدلالة السبب عليها كما ترى وهكذا قوله تعالى « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتُنذِرَ قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلك » فذكر الرحمة التي هي السبب في إرساله الى الخلق ، ودل بها على المسبب ، وهو الإرسال

الوجه الثاني حذف السبب وإبقاء المسبب ، دلالة عليه ومثاله قوله تعالى « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » والمعنى إذا أردت القراءة ، فاكْتَفِيْ بِذِكْرِ الْمَسْبُوبِ الَّذِي هُوَ الْقِرَاءَةُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي هُوَ الْإِرَادَةُ وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ » والمعنى إذا أردتم القيام ، فوضع مُسَبِّبَهَا مَكَانَهَا وَدَلَّ بِهَا عَلَيْهَا ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلْيَتَوَضَّأْ » يريد إذا أراد أحدكم ، لأن الفعل مسبب عن الإرادة ، ومن هذا قوله تعالى « فقلنا أضرب بعصاك الحجرَ فأنفجرت » والمعنى فاضرب فأنفجرت ، وأمثلة ذلك كثيرة

(الضرب الثالث) الحذف الوارد على شريطة التفسير ،

وتقرير هذا أن تُحذف جملةٌ من صدر الكلام ، ثم يوثق في آخره بما له تعلقٌ به ، فيكون دليلاً عليه ، ثم إنه يرد على أوجه ثلاثة ، أولها أن يكون وارداً على جهة الاستفهام ، وهذا كقوله تعالى « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله » لأن التقدير في الآية أفمن شرح الله صدره كمن جعل قلبه قاسياً ، وقد دلّ عليها بقوله (فويلٌ للقاسية قلوبهم) وثانيها أن يكون وارداً على جهة النفي والإثبات ومثله قوله تعالى « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » لأن تقدير الآية لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، وقد دلّ على هذا المحذوف بقوله (أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) وثالثها أن يكون وارداً على غير هذين الوجهين ، وهذا كقوله تعالى « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنهم إلى ربهم راجعون » فالمعنى في الآية . والذين يُعطون ما أعطوا من الصدقات وسائر القرب الخالصة لوجه الله تعالى (وقلوبهم وجلة) أى

خائفة من أن تُردَّ عليهم صدقاتهم فحذف قوله ويخافون أن
تُردَّ عليهم هذه النفقات ، ودلَّ عليه بقوله (وقلوبهم وجلَّة)
فظاهر الآية أنهم وجلون من الصدقة وليس وجلهم لأجل
الصدقة ، وإنما وجلهم لأجل خوف الرد المتصل بالصدقة ،
وعلى هذا المعنى يُحمَلُ قول أبي نواس

سُنَّةُ العَشَّاقِ واحِدَةٌ * فَإِذَا أَحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ

فحذف الاستكانة من الأول وذكرها في المصراع الثاني ،
لأن التقدير ، سُنَّةُ العَاشِقِينَ واحدة وهي أن يستكينا
ويتضرعوا ، فَإِذَا أَحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ ، ونحو هذا ما قال أبو تمام
يَتَجَنَّبُ الآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتِهِ آثَامٌ
والتقدير فيه أنه يتجنب الآثام فإذا تجنبها فقد أتى
بحسنة ثم يخاف أن لا تكون تلك الحسنة مقبولة ، فكأنما
حسناته آثام فلم يخف الحسنة . لكونها حسنة . وإنما خاف
ما يتصل بها من الرد فكأنها مخوفة كما تُخَافُ الآثَامَ ، وهذا
يأتي على طبق الآية ووقفها ، وهذا من بدیع الأسرار والمعاني
التي فاق بها على نظرائه أبو تمام وابن هانيء ، وحكى عن ابن
الأثير أنه سئل عن هذا البيت ، وقيل كيف تكون حسناته

آثاما ، وكيف ينطبق صدرُ البيت على عجزه فتحير فيه ثم فكر ، ونزله على مثل ما ذكرناه

الضرب الرابع ما ليس من قبيل الاستثناف ، ولا من جهة التسبب ، ولا من الحذف على شريطة التفسير ، وهذا في القرآن كثيرُ ورود ، وخاصةً في سورة يوسف ، فإنها مشتملة على الإيجاز البالغ بالحذف وغيره ، ومنها قوله تعالى « قال تزرعون سبع سنين » الى قوله « وفيه يعصرون » ثم قال « وقال الملك ائتوني » فانه قد حذف من هذا الكلام جملة مفيدة ، تقديرها فرجع الرسول إليهم فأخبرهم بمقالة يوسف فعجبوا لها ، أو فصدقوه عليها ، وقال الملك ائتوني به ، وفي قصة بلقيس . في قوله « اذهب بكتابي هذا » الى قوله « فانظر ماذا يرجعون » ثم قال بعد ذلك « قالت يا أيها الملاء إني ألقى إلي كتاب كريم » وفي هذا حذف ، تقديره فأخذ الكتاب فذهب به ، فلما ألقاه الى بلقيس وقرأته ، قالت يا أيها الملاء إني ألقى الى كتاب كريم ومما ورد على هذا المعنى قولُ أبي الطيب المتنبي

لا أبغضُ العيسَ لكني وقيت بها

قلبي من الهَمِّ أو جسَمي من السَّقم

وهذا البيت فيه محذوف ، تقديره لا أبغض العيس لما
يلحقني بسببها من ألم السفر ومشقته ، ولكن وقيتُ بها كذا
وكذا ، وهو من الشعر الذي يُحَيِّرُ الأفهام عجباً ، ويَهْزُ
الأعْطَافَ طرباً ، ومن الحذف قول القائل (الله أكبر) لأن
التقدير الله أكبر من كل شيء ، وعلى هذا ورد قول البحري

الله أعطاك المحبة في الوري

وحباك بالفضل الذي لا ينكر

ولأنت أملأ في العيون لديهم

وأجلُّ قدرًا في الصدور وأكبر

فالتقدير فيه أملأ في العيون من غيرك ، وأجلُّ ،

وأكبر ممن سواك ، والحذف في الجمل واسع ، وفيما ذكرناه

كفاية في التنبيه على غيره

* القسم الثاني *

(في بيان الإيجاز بحذف المفردات)

اعلم أن الإيجاز بحذف المفردات أوسع مجالاً من

حذف الجمل ، لأن المفردات أخفُّ في الاستعمال ، فلهذا أكثر

فيها ، ويضبطه في غرضنا أنواع سبعة

(النوع الأول)

منها حذف الفعل وما يتعلق به من فاعله، ومفعوله، وكلُّ واحدة من هذه قد تطرَّق إليها الحذف على حياله، فهذه صورٌ ثلاث، نذكر ما يتعلق بالكلام فيها

الصورة الأولى حذفُ الفعل بانفراده إمَّا على أن يبقى فاعله دليلًا عليه، وهذا كقوله تعالى « ولو أنهم صبرُوا » أعنى ولو ثبت أنهم صبروا، وكقوله تعالى « وإنَّ أحدٌ من المشركين استجَارَكَ » والتقدير فيه، وإنَّ استجارك أحد من المشركين، وغير ذلك، وإمَّا على أن يبقى مفعوله دليلًا عليه وهذا كقولهم (أَهْلَكَ وَاللَّيْلِ) أى بادر أهلك، وبادر الليل أن يحوّل بينك وبينهم، وكقوله تعالى « ناقةَ الله وسقياها » الغرضُ أهدروا ناقةَ الله، وما جاء في حديث جابر رضى الله عنه لما سأله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هل تزوجت، فقال له (نَعَمْ) فقال : بَكَرًا أم ثَيِّبًا، فقال بل ثَيِّبٌ فقال : هَلَّا بَكَرًا تَلَاعِبُهَا وتَلَاعِبُكَ، ومن حذف الفعل حذفًا لا زماً في المصادر كقولك : حمدًا وشُكْرًا، وما ذاك إلا لأنهم جعلوا هذه المصادر عوضًا عن أفعالها، فلا جرَمَ

التزموا حذفها معا ، وهذا يكون على طريقة السماع ، ومن حذف الفعل على جهة القياس ما ورد على جهة التشبيه كقولك : مررتُ به فإذا له صوتٌ صوت حمار وصراخٌ صراخ الثكلى ، وما ورد على جهة التثنية كقولك : لبيك ، وسعديك ودواليك ، الى غير ذلك من المصادر المثناة ، إلى غير ذلك من الأمور القياسية ، وقد فصلناها تفصيلاً شافياً في شرحنا لكتاب المفصل ، ومن حذف الفعل قوله تعالى « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » لأنه لما قال « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » كأن قائله قال متى يكون التفضيل الأكثر ، قيل يوم ندعو كل أناس ، ومن حذف الفعل قوله تعالى « فأجمعوا أمركم وشركاءكم » والتقدير فيه وادعوا شركاءكم ، ويؤيد ما قلناه قراءة أبي فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم ، وإذا كان ههنا قراءة لها تأويلان ، وكان أحد التأويلين تعضده قراءة أخرى وجب حملها على التأويل المعضود بقراءة أخرى ، ولا يكون . شركاءكم عطفاً ، لأنه لا يقال أجمعت شركائى وإنما يقال أجمعت أمرى ، لأن معنى أجمع الأمر ، نواه وعزم عليه ، وحذف الفعل كثير في القرآن وحذفه إنما يكون على جهة الإيجاز بالحذف من أجل البلاغة

الصورة الثانية حذف الفاعل ، وحذفه إنما يكون إذا دلت عليه دلالة ، وقد منع الشيخ عثمان بن جنى من النحاة حذف الفاعل ، ونصّ على استحالة ذلك ، والمختار هو المنع من حذفه من غير دلالة تدلّ عليه حالية أو مقالية ، فأما مع القرينة ، فلا يمتنع جوازه ، ويدلّ على حذفه قوله تعالى « كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » فحذف فاعل بلغت والغرض النفس ، وليس مضمراً لأنه لم يتقدم له ظاهر يفسره ، وإنما دلت القرينة الحالية عليه ، لأنه في ذكر الموت ولا يبلغ التراقي عند الموت إلا النفس ، وقوله تعالى « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » في قراءة من قرأ بينكم بالنصب ، والمراد لقد تقطع الأمر بينكم وقوله تعالى « ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْهُ » والغرض ثم بدأ لهم أمر ، وقول حاتم

أَمَاوِيٌّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى

إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وضاقت بها الصدرُ

ومنه قول العرب (أُرْسِلَتِ الْمَطَرُ) والمراد أرسلت السماء المطر ، وهذه الكلمة إنما تقال عند نزول المطر ، فدلّ ظاهر القرينة الحالية على ذلك ، فإذن لا وجه لكلام ابن جنى في المنع من حذف الفاعل مع هذه الشواهد

الصورة الثالثة حذف المفعول ، والحذف فيه قد يكون على وجهين ، أحدهما أن يحذف على جهة الاطراد ، ويُنسى فعله ، ويُجعل كأنه من جملة الأفعال اللازمة ، لأن الغرض هو ذكر الفعل دون متعلقه ، ومن هذا قولهم فلان يُعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ، ويحلُّ ويعقد ، وينقض ويبرم ، وينفع ويضر ، فلما كان المقصودُ ذكر الفعل على جهة الإِطلاق لم يحتاج الى ذكر مفعوله ومتعلقه ، وعلى هذا ورد قوله تعالى « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَى » وثانيهما أن يُحذف من جهة اللفظ ويُراد من طريق المعنى والتقدير ، وهذا كقوله تعالى في قصة موسى مع بنتى شعيب ، فإنه حذف المفعول في أربع جمل ، فقال : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدَرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا » التقديرُ يسقون مواشيهم ، وامرأتين تذودان أغنامهما فسقى لهما مواشيهما ، بعد قولها لا نسقى مواشينا ، ومن هذا قوله تعالى « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ » اى لو شاء أن يُذهبَ لذهب وقوله « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ الْمَنَ فِي الْأَرْضِ » وغير ذلك من آيات

المشيئة والإرادة ، فإن حذف المفاعيل فيها كثيرُ الجريان
والورود ، ومن هذا قول أبي عبادة البحرى
لو شئت لم تُفسدِ سماحةَ حاتم * كرماً ولم تهديمَ ما أثرَ خالدِ
ولا تكاد ترد مفاعيلُ المشيئة الآ في الاشياء المستغرِبة
المتعجب من حالها كقوله تعالى « لو أردنا أن نتخذَ لهواً »
وقوله تعالى « لو أراد الله أن يتخذَ ولدًا لاصطفَى مما يخلقُ »

(النوع الثانى)

حذف الإضافة ، ووروده يكون على أوجه ثلاثة ، أولها
حذف المضاف نفسه ، وهذا كقوله تعالى « واسألِ القريةَ
التي كُنّا فيها والغيرِ » أى أهل القرية وأهل العير ، وقوله تعالى
« ولكنّ البرّ من اتقى » أى بر من اتقى وقوله تعالى « حتى
إذا فتحتْ يأجوجُ ومأجوجُ » والمراد سدّهما ، ومن أبيات
الحماسة ما قاله بعض الشعراء

إذا لا قيت قومي فاسأليهم

كفى قوماً لصاحبهم خبيراً

هل أعفُو عن أصول الحق فيهم

إذا عثرو وأقتطع الصدورا

أراد أنه يقطع أو غار الصدور وضفائها وأحقادها، أى
يزيلها بعفوه وصفحه وكرمه ، وحذف المضاف كثير الدّور
والجرى فى كلام الله تعالى وكلام الفصحاء ، وحكى عن
أبى الحسن الاخش أنه يُقره حيث ورد ولا يقاس عليه ،
وماقاله الأخش جيّد لا غبار عليه ، لانه من المحذوفات
المجازية ، ومن حقّ المجاز أن يُقرّ حيث ورد ، فلا يجوز أن
يقال : أكلت السُّفرة ، أى طعام السُّفرة ولا أن يقال
واسأل الأفراس ، أى أهلها ، وثانيها حذف المضاف اليه ،
وهو يأتى على القلة والنُدرة ، وهذا كقوله تعالى « لله الأمرُ
من قبلُ ومن بعدُ » أى من قبل الأشياء ومن بعدها ، ومن
هذا قولهم يومئذ ، وحينئذ ، وساعتئذ ، قال الله تعالى « يومئذ
تُحدّث أخبارها » فحذف الجملة المتقدمة المضاف اليها (إذ)
وعوّض التنوين عنها ، فما هذا حاله ، هل يعدُّ من الإيجاز أو
لا ، والأقرب عدّه من الإيجاز لأنه وإن كان قد عوّض من
الجملة المتقدمة ، التنوين ، لكنه يكون إيجازاً لا محالة ،
لأنه حذف هذه الجملة الطويلة وأقيم حرف واحدٌ مقامها ،
وأى إيجاز أبلغ من هذا الإيجاز ، وأدخل منه فى البلاغة ،
والترفة بين المضاف نفسه ، والمضاف اليه ، فى الحذف

حيث كان حذفُ المضافِ اليه على القلّة ، وحذفُ المضافِ نفسه كثيرَ الوقوع ، هو أن المضافِ اليه يكتسى منه المضافُ تعريفاً ، وتخصيصاً فحذفه لا محالة يُخلُّ بالكلام لِإِذْهَابِ فائدته بخلاف المضافِ نفسه ، فإنه لا يُخلُّ حذفه من جهة أن المضافِ اليه يذهب بفائدته . ويقوم مقامه ، وثالثها حذفهما جميعاً وهذا نادرٌ أيضاً ، ومن أمثله قوله تعالى « فقبضت قبضةً من أثر الرسول » أي من أثر حافر فرس الرسول ، ولا يكاد يوجد إلا حيث دلالةُ الكلام عليه

(النوع الثالث)

حذف الموصوف دون صفته وإقامتها مقامه ، وحذف الصفة دون موصوفها ، فهذان وجهان يرد الحذف فيهما ، الوجه الأول حذفُ الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، وهذا كثير الدّور والحَرَى في كتاب الله تعالى قال . الله تعالى « وعندهم قاصراتُ الطرفِ أترابٌ » أي حور قاصرات الطرف وقوله تعالى « وأتينا ثمودَ الناقةَ مبصرةً » أي آية مبصرة ، ولم يرد الناقة ، فإنها لا معنى لوصفها بالبصر ، وإنما أراد أنها معجزةٌ واضحةٌ لم يفكر فيها ، وأكثر ما يرد

حذف الموصوف في النداء في نحو قوله تعالى « يا أيها الرسول ،
أيها النبي ، يا أيها الذين آمنوا ومن حذف الموصوف قول
بحترى

، اخضرار من اللباس على أصفر فر يختال في صبيغة ورس
أراد على فرس أصفر ، فحذفه للعلم به ، الوجه الثاني
حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها ، وهذا يكون على القلة ،
لا يكاد يقع في الكلام إلا نادراً فمن ذلك ما قاله شيخ
لصناعة في الإعراب (سيبويه) حكاية عن العرب (سير
عليه ليل) وهم يريدون ، ليل طويل ، ومن ذلك أن يتقدم
مدح إنسان والثناء عليه فتقول بعد ذلك ، كان والله رجلاً ،
أي فاضلاً جواداً كريماً ، وهكذا تقول سألتاه فوجدناه
إنساناً أي عالماً خبيراً بالعلوم ، والتفرقة بين الصفة والموصوف
حيث كان حذف الموصوف أكثر دون صفته ، هو أن الصفة
من حقها أن تأتي من أجل إيضاح الموصوف وبيانه ، فلما
كانت الصفة مختصة بالإيضاح والبيان ، أكثر لا شك قيامها
مقام الموصوف ، بخلاف الموصوف ، فإنه يكثر إبهامه من غير
ذكر الصفة ، فلا جرم كان قيامه مقام الصفة قليلاً نادراً يرد
حيث ذكرناه

(النوع الرابع)

حذف الحروف، ولما كانت أحرف المعاني كثيرة الدّور والاستعمال في الكلام، توسّعوا في الإيجاز بحذفها، وذلك يأتي على أوجه

أولها حذف (لا) من الكلام وهي مرادةٌ وذلك كقوله تعالى (تالله تفتأ تذكر يوسف) أراد لا تفتأ ومعناه لا تزال، فحذفت توسعاً وإيجازاً وهي مرادةٌ، وعلى هذا ورد قول امرئ القيس

فقلتُ يمين الله أبرحُ قاعداً

ولو قطعوا رأسي لديكِ وأوصالي

أي لا أبرح، فحذفت (لا) وهي مرادة، وكقول أبي محجن (١) الثقفي لَمَّا نَهاه سعدُ بنُ أبي وقاصٍ رضي الله عنه عن شرب الخمر وهو يومئذ في قتال الفُرس بالقادسية

رأيت الخمر صالحةً وفيها * مناقبُ شهلك الرجل الحلما
فلا والله أشربها حياتي * ولا أسقي بها أبداً نديما

(١) هذا غلط والصواب انه لقيس بن عاصم المنقري (رأيت الخمر

الخ) الرواية

رأيتُ الخمر جاححةً وفيها * خصال تُفسد الرجل الحلما

وثانيها حذف الواو وإثباتها في الكلام فتى وُجدت في الكلام فإنها تُؤذن بالتغاير بين الجملتين ، لأن الواو تقتضى المغايرة ، ومتى كانت محذوفة فإنها تدلّ على البلاغة بالإيجاز ، وتصير الجملة جملة واحدة ، ويُصدّق ما قلناه حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال (كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينامون ثم يصلون لا يتوضّون) وفي حديث آخر بإثبات الواو وفي قوله (ولا يتوضّون) فالواو دالة على انفصال الجملة عما قبلها وعلى مغايرتها له ، وحذف الواو فيه دلالة على اتصال الجملة الثانية بالأولى والتحامها بها ، حتى كأنها أحد متعلقاتها ، لأنها اذا كانت الواو محذوفة فيها كانت في موضع نصب على الحال ، وكان الجملتان كأنهما أُفرِغَا في قالب واحد ، كأنه قال : ينامون ثم يصلون غير متوضّين ومع هذا يكون الكلام أشدّ إيجازاً وأعظم بلاغةً ، ومن أعجب مثال فيما نحن بصدده قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) لأن التقدير وودّوا ما عنتم وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) فلما حذفت هذه الواو

كان الكلام مع حذفها أدخل في الإعجاز ، وأحسن في الاختصار والإيجاز ، وأبلغ في تأليفه ونظمه ، وأحلى في سياقه وعدوبة طعمه ، لا يقال : فإن الواو قد جاءت ثابتة في قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتابٌ معلوم) وجاءت محذوفة في مثل قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) فهل من تفرقة بين إثباتها وحذفها ، وما ضابط الحذف والإثبات فيما هذا حاله ، لأننا نقول : أمّا التفرقة فهي ظاهرة ، فإن الواو إذا كانت محذوفة فهي في حكم التكملة والتتمة لما قبلها ، تُنزل منزلة الجزء منها كما أوضحناه ، وإذا كانت الواو موجودة كانت في حكم الاستقلال بنفسها ، فعلى هذا نقول : ما جاءني زيد إلا وهو ضاحك وما لقيته إلا وهو راكب ، فتثبت الواو وتحذفها على التنزيل الذي ذكرناه ، وما هذا حاله فهو تفرغ في الصفات في الاستثناء كما ورد في الآيتين جميعاً بالواو وحذفها على الجواز فيهما ، وأمّا الضابط لدخولها في الصحة والامتناع فنقول : كل اسم نكرة جاء قبل (إلا) فإنك تنظر الى العامل في تلك النكرة ، فإن كان ناقصاً فانه يمنع الإتيان بالواو ، وهذا كقولك ما أظن درهماً إلا هو كافيك ، ولا يجوز بالواو فلا تقول : إن رجلاً وهو قائم

لَمَّا كَانَ الْعَامِلُ الْأَوَّلُ يَفْتَقِرُ إِلَى تَمَامٍ ، لِأَنَّ الظَّنَّ يَفْتَقِرُ إِلَى مَفْعُولِينَ وَ (إِنَّ) يَحْتَاجُ إِلَى خَبَرٍ فَلِهَذَا اسْتَحَالَ وَجُودُ الْوَاوِ هَهُنَا لَمَّا قَرَرْنَاهُ ، وَإِنْ كَانَ الْعَامِلُ فِي النُّكْرَةِ تَامًا ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ الْإِيتْيَانُ بِالْوَاوِ وَتَرْكُهَا ، وَعَلَى هَذَا تَقُولُ : مَا جَاءَنِي رَجُلٌ الْآ وَهُوَ ضَاكٌ بِإِثْبَاتِ الْوَاوِ وَحَذْفِهَا كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ

وَنَائِلُهَا الْإِيجَازُ بِحَذْفِ بَعْضِ اللَّفْظِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ وَارِدًا عَلَى جِهَةِ السَّمَاعِ لَا يُقَاسُ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَسْتَعْمَلُ عَلَى جِهَةِ الْكَثْرَةِ دُونَ مَا عَدَاهَا وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ : عَمَّ صَبَاحًا ، فِي (اَنْعَمُ صَبَاحًا) وَقَوْلُهُ لَمْ يَكْ حَاصِلًا لَكَ دَرَاهِمٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ » لِأَنَّ الْجَازِمَ إِنَّمَا يَحْذَفُ الْوَاوُ كَمَا يُحْذَفُ مِنْ قَوْلِنَا : لَمْ يَقُلْ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنِينَ ، وَالنُّونَ حَذْفَهَا مِنْ أَجْلِ الْإِيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ وَهَكَذَا قَوْلِنَا (لَمْ أُيْلَ) فَإِنَّ الْأَصْلَ فِيهِ أَبَالِي فَحَذَفَتِ الْيَاءُ لِلْجَازِمِ كَمَا تُحْذَفُ مِنْ قَوْلِنَا (لَمْ أُمَارِ) فِي ، أُمَارِي ، ثُمَّ حَذَفُ الْأَلْفِ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ عَلَى جِهَةِ التَّخْفِيفِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْمَنْظُومِ حَذْفُ بَعْضِ الْكَلِمَةِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبِيٌّ عَلَى شَرَفٍ
مُفَدَّمٌ بِسَبَابِ الْكَتَّانِ مَلْثُومٌ

أراد بسبائب الكتان فحذف إيجازاً وهذا كله لا يقاس عليه ، وإنما يُقرُّ حيث ورد

(النوع الخامس)

في الإيجاز بحذف الأجوبة ، وذلك يأتي في أمكنة كثيرة ، أولها حذف جواب (لولا) وذلك نحو قوله تعالى في آخر آية اللعان (ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتهُ وأنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) فجواب لولا ههنا محذوف تقديره لَمَا سَتَرَ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ وَلَمَا هَدَاكُمْ إِلَى مَصْلَحَةِ اللَّعَانِ بِالْحُكْمِ فِيهِ بِهَذَا الْحَدِّ ، ولهذا عقبه بقوله (وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ بِالْإِسْتِرَاءِ عَلَيْكُمْ ، حَكِيمٌ بِإِعْلَامِكُمْ مِمَّا يَتَوَجَّهُ عَلَى الْمُلَاعَنَةِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى عَقِيبَ حَدِيثِ الْإِفْكِ (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) وَتَقْدِيرُهُ لَعَجَّلَ لَكُمْ الْعَذَابَ بِسَبَبِ اقْتِرَاءِ الْكُذْبِ وَالتَّقْوِيلِ بِمَا لَمْ يَكُنْ ، وَلِهَذَا قَالَ عَقِيبَهَا (وَأَنَّ اللَّهَ رَوِّفٌ) حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْ بِالْعُقُوبَةِ (رَحِيمٌ) بِمَا أَلْهِمَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ بِالْحَدِّ فِي الْقَذْفِ ، وَثَانِيهَا حَذْفُ جَوَابِ (لَمَّا) وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى (فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ) فَانْجَوَابُ لَمَّا هَهُنَا مَحْذُوفٌ ، تَقْدِيرُهُ فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ ، كَانَ هُنَاكَ مَا كَانَ مِمَّا تَنْطِقُ بِهِ الْحَالُ ، وَلَا يَحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ ،

من رفع البلاء وكشف الكربة، وازالة المحنة العظيمة، والغبطة
والسرور بامثال أمر الله تعالى والزُّلْفَةَ عنده والفوز برضوان
الله ، وثالثها حذف جواب (أَمَّا) ومثاله قوله تعالى (فَأَمَّا
الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) لأن
التقدير فيه فيقال لهم . أ كفرتم بعد إيمانكم ، فحذف القول
وأقام المَقُولُ مقامه ، ورابعها جواب (إِذَا) ومثاله قوله تعالى
(وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ) الى قوله
معرضين ، والتقديرُ فيه وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّقُوا أَعْرَضُوا وَأَصْرُوا
على تكذيبهم ، وقد دلَّ عليه قوله تعالى (الْآ كَانُوا عَنْهَا
مَعْرُضِينَ) وخامسها حذف جواب (لو) وهو واردٌ على الكثرة،
وهو من محاسن الإيجاز ومواقعه البديعة ، كقولك : لو زُرْتَنِي ،
لو أَكْرَمْتَنِي ، والتقديرُ لَفَعَلْتُ وَصَنَعْتُ ، قال الله تعالى (وَلَوْ
تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَآ قُوَّةَ) والتقدير فيه لرأيت أمراً بديعاً ، أو
حالةً منكراً ، وقوله (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا
يَكْفُرُونَ إِلَى قَوْلِهِ يُنصرون) والتقدير فيه لو يعلمون هذه
الأمور لما كانوا على تلك الصفات من الكفر والاستهزاء
والصدود والإينكار وهكذا قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا
سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَى)

والتقدير فيه لكان هذا القرآن ، وهو كثير الورد في القرآن ،
وحيثُ ساغ حذفه فإنه إنما يسوغ اذا كان هناك دلالة عليه ،
فأما من غير دلالة فلا يجوز بحال ، وسادسها حذف جواب
القسم ، ومثاله قوله تعالى (والفجرِ وليالٍ عشرٍ والشفعِ والوترِ
والليلِ) فجوابه ههنا يحتمل أن يكون موجوداً وهو قوله (هل
في ذلك قسمٌ لذي حجرٍ) لأنه قد تمت به الفائدة ، ويحتمل
أن يكون محذوفاً تقديره لتعذبن ، ويدل عليه قوله تعالى
(ألم تر كيف فعل ربك بعادِ إرم ذاتِ العمادِ) ونحوه قوله
تعالى (والشمسِ وضحاها) فيحتمل أن يكون جوابه
مذكوراً ، وهو قوله تعالى (قد أفلح من زكّاهها) وقد ظهرت
به الفائدة ، ويحتمل أن يكون محذوفاً أيضاً تقديره ليُعذبن ،
بدليل قوله تعالى (فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم) والحذف
فيه كثيرٌ لقيام القرينة على حذفه ، وتختلف أحوال القرائن
بحسب ما تدل عليه الدلالة

(النوع السادس)

حذف ما يكون معتمداً للجزئين ، القسم ، والشرط ،
ولو ، فهذه أمور ثلاثة ، أولها حذف القسم نفسه ، ومثاله قولك :

لا خُرْجَنَ ، والتقديرُ والله لأُخرجنَ ، قال الله تعالى (لئن أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلئن قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلئن نَصَرُوهُمْ لِيُولُنَّ الأَدْبَارَ) فهذه اللامُ هي اللام الموطئة ، والمعنى بذلك أنها وطأت الشرط وجعلته حشواً وصيرت الكلام موجهاً للقسم ، ولهذا جاءت هذه الأفعال مرفوعةً بالنون ، ولو كانت جواباً للشرط لكانت مجزومةً ، فلهذا قضينا بحذف القسم ، وثانيها حذف الشرط نفسه ومثاله قوله (إِنْ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) والتقدير فيه ، إِنْ لم تُخلصوا لي العبادة في هذه الأرض ، فأخلصوها في غيرها ، ومن هذا قولهم : الناسُ مجزيون بأعمالهم إِنْ خيراً فخيرٌ وإِنْ شراً فشرٌ ، والتقدير فيه إِنْ كان خيراً عمله فجزاؤه خيرٌ ، وثالثها حذف (لو) نفسها ومثاله قوله تعالى (وَمَا كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذْ نَزَلَ لَذَهِبٍ كُلِّ إِلهٍ) فَإِنَّ الشرط في هذا محذوفٌ ، والتقدير فيه فلو كان معه إلهٌ إِذْ نزل لذهب كلُّ إلهٍ بما خلق ، وقوله تعالى (وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تحطه بيمينك إِذْ نزلَ الأرتاب المبطون) والتقدير فيه إِذْ نزلَ ذلك لا رتاب المبطون

(النوع السابع)

حذف المبتدأ وخبره ، فمن المواضع ما يحسن فيه حذف المبتدأ ، ومنها ما يحسن فيه حذف الخبر ، ومنها ما يمكن فيه الأمران جميعاً ، فمن المواضع التي يحسن فيها حذف المبتدأ على طريق الإيجاز قولهم : الهلالُ والله ، أى هذا الهلال والله ، وقولك إذا شممت ريحاً ، المسكُ والله ، أى هذا المسكُ ، ولا يكون إلا مفرداً لأنه لا يُبتدأ إلا بالأسماء المفردة ، ويتعذر تقدير الجمل في المفردات ، وقد ترد جملةٌ على تقدير المفرد على جهة الشذوذ كقولهم (تسمعُ بالمُعديّ خيرٌ من أن تراه) والذي حسنه كونه في تأويل المصدر أى سماعك ، فأما قوله تعالى (وأن تصوموا خيرٌ لكم) فإنما جاز ذلك من أجل (أن) لأنها في تأويل المصدر أى صومكم ، ومن المواضع التي يصح فيها حذف الخبر قولك : لولا زيدٌ لكان كذا ، ومنه قولهم . لولا علىٌ لهلك عمرٌ ، والقصةُ مشهورةٌ فإنَّ عمرَ أراد أن يرحمَ حاملاً لما زنت ، فقال له أمير المؤمنين على هذا سلطانك عليها ، فما سلطانك على ما في بطنها ، فكفَّ عن ذلك ، وقال (لولا علىٌ لهلك عمرٌ ، وهذا صحيحٌ ، فإنَّ قتلَ الجنينِ من

غير بصيرة خطأ عظيمٌ ، وفي الحديث (مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ
رَجُلٍ مُسْلِمٍ وَلَوْ بِنِصْفِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ
عَيْنَيْهِ آئِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) وكما يكونُ الخبرُ مفرداً فقد
يكونُ جملةً ، والاصلُ أن يكونَ مفرداً ، وحذفُ الخبرِ
أكثرُ من حذفِ المبتدأِ ، ووجهُ ذلك هو أن المبتدأَ طريقٌ
إلى معرفةِ الخبرِ ، فإذا كان الخبرُ محذوفاً ، ففي الكلام ما يدلُّ
عليه وهو المبتدأُ ، وإذا حذف المبتدأ لم يكن في الكلام ما يدلُّ
عليه ، لأن الخبر لا يكون دليلاً على المبتدأِ

ومن المواضع التي يحتمل أن يكون المحذوف فيها ، إمّا
المبتدأُ ، وإمّا الخبرِ قوله تعالى (فصبرٌ جميلٌ) فيحتمل أن
يكون المبتدأُ محذوفاً ، وتقديره فأمرى صبر جميل ، ويحتمل أن
يكون من باب حذف الخبر ، وتقديره فصبرٌ جميلٌ أجملٌ ،
وحذفُ الخبرِ وإن كان وارداً على جهة الكثرة ، لكن
حذفُ المبتدأِ ههنا يكون أبلغ ، لأن الآية وردت في شأن
(يعقوب) فلا بد من أن يكون هناك اختصاصٌ به ، فإذا كان
تقديره فأمرى صبر جميل كان أخصَّ به وأدخل في احتمال
للصبر واختصاصه به ، وقد يُحذفُ المبتدأُ والخبرُ جميعاً إذا دلَّ
عليهما دليلٌ ، وهذا كما يقال أزيدٌ قائمٌ ، فتقول : نَعَمْ . أى

نعم زيد قائم فُحِذِفَا لما دلّ قولك نعم عليهما ، وكقوله تعالى
(واللاتي لم يحِضُنَ) لأن تقديره واللاتي لم يحضن فعُدَّتُهُنَّ
ثلاثة أشهر ، وهذا لا يكون إلا مع القرينة الدالة على ذلك ،
فهذا ما أردنا ذكره في الإيجاز بحذف المفردات في هذه
الأنواع السبعة وبالله التوفيق

✽ القسم الثاني ✽

(في بيان الإيجاز من غير حذف فيه)

اعلم أن من الإيجاز ما لا يكون فيه حذفٌ يُقَدَّرُ ، من
مفردٍ ولا جملةٍ ، ويقال له إيجاز البلاغة ، وينقسم إلى ما
يساوى لفظه معناه من غير زيادة ، ويسمى التقرير ، وإلى ما
يزيد معناه على لفظه ، ويسمى القصر ، فهذان ضربان نذكر
ما يتعلق بكل واحد منهما ، وهذا القسم من الإيجاز له في
البلاغة موقعٌ عظيمٌ ، دقيقٌ المجزى ، صعب المرتقى ، لا
يختص به من أهل الصناعة إلا واحدٌ بعد واحدٍ (ومهما
عَظُمُ المطلوب قلَّ المساعدُ)

(الضرب الاول)

في بيان الإيجاز بالتقرير وهو الذي تكون ألفاظه مساوية لمعناه لا يزيد أحدهما على الآخر بحيث لو قُدِّرَ نقصٌ من لفظه لتطرق الحُرْمُ الى معناه على قدر ذلك النقصان ، ولنُشر منه الى أمثلة خمسة

المثال الأول : ما ورد من كتاب الله تعالى وهذا كقوله تعالى (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) فقوله قُتِلَ الْإِنْسَانُ ، أبلغُ دعاءً على الانسان ، لما فيه من إذهاب الروح بسرعةٍ وفجأةٍ ، وهو أعظم في الفجاعة وقوله مَا أَكْفَرَهُ ، تعجبٌ من شدة الإفراط في كفره لِئَنعمَ اللهُ ، فلا يكاد يقرعُ السمعُ أُسْلُوبٌ أغلظُ من هذا الدعاء والتعجب ، ولا أبلغ في الملامة ولا أقطعُ للمعذرة ، ولا أعظم دلالةً على السخّط مع تقارب أطرافه وقصرِ متنه ، ثم أخذ في صفة حاله من مبدأ حدوثه الى منتهى زمانه فقال . من أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، استفهامٌ واردٌ على جهة التهكم والتقرير ، ثم قال . من نطفة خلقه ، كأنه قال تأمل

وانظر من أيّ شيء خلقتك على عِظَم هذه المخالفة وكفران
أنعمى عليك ، إنما خلقتك من نطفة وأيّ نطفة في الغلظ
والبشاعة وننّ الرائحة ، فقدّره ، فأحكم قوام خلخته وسواها
على جهة التعديل في مطابقة المنافع ، ثم السبيل يسره ، إمّا
سهلّ خروجه من بطن أمّه ، وإمّا يسّر سبيله الى ثدى أمّه ،
وإمّا يسّر سبيله من سلوك طريق الخير والشرّ ، كما قال
(وهدّيناه النّجدين) (ثم أماته) نزع منه ما ركّب فيه من
الروح ، لما يريد من إعادته (فأقبره) أى جعله في قبره
يؤارى فيه جيّفته كيلا تمزّقه السباع وتقطع أوصاله (ثم إذا
شاء أنشره) فى الآخرة للجزاء على الأعمال (كلاً) ردع
وزجر ، عقبها فى آخر الكلام تنبيهاً على أن الإنسان على ما
هو فيه مما وُصِفَ من حاله (لما يقض) شيئاً ممّا أمره الله وأنه
مُقصرٌ فى حق الله لا يألُو جهداً فى الإصرار والمخالفة ، فقد
حصل هذا الكلامُ على نهاية المطابقة للمقصود منه ، فلو
أردت زيادةً عليه لكانت فضلاً ، ولو أردت نقصاناً منه
لكان إخلاً ، ومنه قوله تعالى (على الموسع قدره وعلى
المقتّر قدره) وقوله تعالى (من كفر فعليه كفره) وقوله

تعالى (كل امرئ بما كسب رهين) وقوله تعالى (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) ومواقفه في التنزيل كثيرة

. المثال الثاني . ما ورد من السنة الشريفة كقوله صلى الله عليه وسلم (الحلال بين ، والحرام بين ، وبين ذلك مشبهات) فهذا من أجمع ما يكون للمعاني البالغة ، ومن هذا قوله عليه السلام (إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى) وقوله صلى الله عليه وسلم (الضعيف أمير الركب) وفي حديث آخر (سيروا بسير أضعفكم) وقوله لمعاذ (صل بهم صلاة أضعفهم) وقوله صلى الله عليه وسلم (دع ما يربيك الى ما لا يربيك) ومن ذلك ما قاله خطاباً لقريش (يا ويح قريش لقد نهكتهم الحرب ما ضرهم لو ماددناهم مدة ويدعوا بيني وبين الناس فإن أظهر عليهم دخلوا في دين الله وافرين وإلا كانوا قدحموا وإن أبوا فالذي نفسى بيده لا قاتلنهم على امرئ هذا حتى تنفرد سالفتي هذه أولينفذن الله أمره) وهذا الحديث قد جمع من المحاسن والإحاطة في بلاغة المعاني وفصاحة الألفاظ ما لا يقدر على وصفه قائل ، ولا يستولى على حصر لطائفه محجب ولا سائل

المثال الثالث . من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه
يخاطب فيه معاوية (فاتق الله وانظر في حقه عليك وارجع الى
معرفة ما لا تعذرُ بجهالته فنفسك نفسك فقد بين الله لك
سبيلك وحيث تاهت بك أمورُك فقد أجزيت الى غاية خُسْر
ومحَلَّة كُفْرٍ وإنَّ نفسك قد أوصلتك شرًّا وأقحمتك عيًّا
وأوردتك المهالكَ وأوعرتُ عليك المسالك) وقال عليه
السلام (عليكم بطاعة من لا تُعذرون بجهالته قد بُصرتُم إنَّ
أبصرتُم وهُدِيتُم إنَّ اهتديتُم ، عاتب أخاك بالإحسان اليه
واردُدْ شرَّه بالإِنعام عليه ، من وضع نفسه مواضع التُّهمة فلا
يلومنَّ من أساء به الظنَّ ، لا ينال العبد نعمةً إلا بفراق
أخرى ، ولا يستفيدُ يوماً من عمره إلا بفراقٍ آخر من أجله ،
من أين ترجوا البقاء وهذا الليلُ والنهار لم يرفعا من شيءٍ شرفاً
إلاَّ أسرعا الكثرة في هدم ما بنياً وتفريق ما جمعاً ، فهذا
الكلام ما ترك للإيجاز غاية الآ وصلها ، ولا نكتةً شريفةً
إلاَّ حازها وحصلها ، ومن أعجب ما فيه أنه مشتملٌ على هذه
الأسرار بالفاظه ولو حذفَتْ واحدةً منها أخلَّتْ بمعناها
الذي جاءت من أجل الدلالة عليه

المثال الرابع . ما أُثِرَ في ذلك من كلام البلغاء ، فمن ذلك

ما كتبه طاهر بن الحسين الى المأمون ، وكان واليه على عماله
بعد لقائه بعيسى بن ماهان وهزمه لعسكره وقتله إِيَّاهُ ،
فكتب الى المأمون يخبره بما كان منه في ذلك فقال . كتابي
الى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يدي وخاتمه
في يدي ، وعسكره مُصَرَّفٌ تحت أمري والسلام وهذا من
عجائب الإيجاز وبلغ الاختصار التي حوت المطلوب ، وحازت
المقصود ، ولما أرسل المهلب بن أبي صفرة أبا الحسن المدائني
الى الحجاج بن يوسف يخبره أخباراً ما هو عليه في ولايته
فقال له الحجاج . كيف تركت المهلب ، فقال له أدرك ما أمل ،
وأمن مما خاف فقال . كيف هو تجده بجنده فقال . والد
رؤف ، فقال كيف جنده له فقال . أولاد بررة ، قال .
كيف رضاهم عنه فقال . وسعهم بفضله ، وأغناهم بعدله ، قال .
كيف تصنعون إذا لقيتم العدو ، قال . نلقاهم بجدهنا ويلقونا
بجدتهم قال . كذلك الجد إذا لقي الجد قال . فأخبرتني عن
بنى المهلب قال . هم أحلاس القتال بالليل حماة السرح بالنهار ،
قال أيهم أفضل قال . هم كحلقة مبهمة مضروبة لا يعرف
طرفاها قال الحجاج جلسائه هذا والله الكلام الفصل الذي
ليس بمصنوع ولا متكلف

المثال الخامس . ما ورد من الايات الشعرية وهذا
كقول أبي نواس في صفة الخمر في أوعيتها

تُدَار علينا الراح في عَسْجَدِيَّة * حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتِهَا كَسْرَى وَفِي جَنْبَاتِهَا * مَهَّأ تَدْرِيبَهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ
فَللرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهَا جُيُوبُهَا * وَالْمَاءُ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

فما هذا حاله من الشعر الفائق والنظم الجيد الرائق ،
وحكى عن الجاحظ أبي عثمان أنه قال . لا أعرف شعراً يفضل
هذه الأبيات لابن هانيء ، ولقد أنشدتها أبا شعيب القلال ،
فقال والله يا أبا عثمان إن هذا هو الشعر الذي لو نُقِرَ لَطَنَّ ،
ومهما حركت أوتارَ نغماته لَحَنَّ ، وحسبك به إعجاباً اعترافُ
الجاحظ بحسنه ، فإنه الماهرُ في البلاغة والخريّتُ في الفصاحة ،
ومن الإيجاز بالتقرير ما قاله عليُّ بن جبلة

وما لامرئٍ حاولته منك مهزبٌ

ولو حملته في السماء المطالعُ

بلى هاربٌ لا يهتدي لمكانه

ظلامٌ ولا ضوءٌ من الصبح ساطعُ

ومن ذلك ما قاله النابغة الذبياني

فإنك كالليل الذي هو مُدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
ومن ذلك ما قاله الأعشى في اعتذاره الى أوس بن لأم
لما هجاه

وإني على ما كان مني لنادم
وإني إلى أوس بن لأم لتائب
وإني الى أوس ليقبل عذرتي
ويصفح عني ما جنيت لراغب
فهب لي حياتي والحياة لقاءم
بسرّك منها خير ما أنت واهب
سأحسب مدح فيك إذ أنا صادق
كتاب هجاء سار إذ أنا كاذب

ولقد أتى الأعشى في شعره هذا بالمعجب العجائب وحيّر
فيه الأفتدة وسحر الألباب ، لما ضمّنه فيه من رقة الألفاظ ،
التي تولّع بها كلُّ ذكيّ حفاظ

(الضرب الثاني)

في بيان الإيجاز بالقصر ، وهو الذي تزيد فيه المعاني

على الألفاظ وتفقو ، وكتابُ الله تعالى مملوءٌ منه ، ولنوردُ فيه أمثلةً خمسةً كما فعلنا بالضرب الأول بمعونة الله تعالى (المثال الأول) قوله تعالى « خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » فقد جمع في هذه الآية جميع مكارم الأخلاق ، لأن في العفو الصفحَ عمن أساء ، والرفق في كل الأمور ، والمسامحةَ والإغضاء ، وفي قوله (وأمرُ بالعرف) صلةُ الأرحام ، ومنعُ اللسان عن الكذب والغيبة ، وغضُّ الطرف عن كل مُحَرَّم ، وغير ذلك ، وفي الاعراض عن الجهال ، الصبرُ والحلمُ ، وكظمُ الغيظ ، فهذه الالفاظ وإن قلتُ فقد أنافت معانيها على الغاية ، ولم تقف على حدٍّ ونهاية ، وهذا النوع هو أعلا طبقات الفصاحة مكانا ، وأعوزها إمكانا ، ومن هذا قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة » فانظر الى هذه اللفظة الجميلة كم يندرج تحتها من المعاني التي لا يمكن حصرها ، ولا ينتهي أحدٌ الى ضبطها ، فأين هذه عما أُثِرَ عن العرب من قولهم (القتلُ أنفى للقتل) وقد تميّزت الآية عنه بوجوه ثلاثة ، أما أولاً فلأن قوله (القصاص حياة) لفظتان ، وما نُقل عنه فيه أربعُ كلمات ، وأما ثانياً فالتكريرُ فيما قالوه ، وليس في الآية تكريرٌ ، وأما ثالثاً فلأنه ليس

كلُّ قتلٍ نافيًّا للقتلِ ، وإنَّما يكونُ نافيًّا إذا كان على جهةِ القصاصِ ، وكم في القرآن من هذا القبيلِ

(المثال الثاني) ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا كقوله عليه السلام « الخراجُ بالضمانِ » والسببُ في ذلك هو أن رجلاً اشترى من غيره عبداً فأقام عنده مدة ثم وجدَ به عيباً ، فخاصمه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله . إني أستغلقُ عبدي ، فقال (الخراجُ بالضمانِ) ومعنى هذا أن غلته تكون للمشتري ، لأنه لو تلف قبل الردِّ كان تالفاً من ضمانه ، فهذا كان ضمانه عليه ، ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم (لا ضررَ ولا ضرارَ في الإسلام) ومعنى قوله لا ضررَ أي لا ينبغي لاحد أن يضرَّ غيره ، ومعنى قوله (لا ضرارَ في الإسلام) أنه لا ينبغي لك أن تضرَّ أحد ، ولا ينبغي له أن يضرَّك ، ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم (المَعِدَةُ بيتُ الداءِ والحُمِيَّةُ رأسُ الدِواءِ ، وعودُوا كلَّ جسمٍ ما اعتَادَ) فهذه الألفاظ الثلاثة قد جمعت من المعاني الحكيمة ، والأسرار الطيبية ، ما لا يحيط بوصفه إلا الله ، ومن هذا قوله عليه السلام (الطمَعُ فقرٌ واليأسُ غنى) فهذا من جوامع الكلم التي خصَّ بها

(المثال الثالث) ما ورد من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه من الكلام القصير كقوله عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف قدره ، من فكر في العواقب لم يشجع ، الناس أعداء لما جهلوا ، من استقبل وجوه الآراء عرف وجوه الخطأ ، من أخذ سنان الغضب لله قوى على قتل أسد الباطل ، وقوله : إذا هبت أمراً فقع فيه ، فإن وقوعك فيه أهون من توقيه ، آلة الرياسة سعة الصدر ، الطمع ريق مؤبّد ، ثمرة التفريط الندامة ، وقال عليه السلام أغض على القذى ، وإلا لم ترض أبداً ، وقال لكل مقبل إذربار ، وما أذبر كان كأن لم يكن ، لا يعدو من الصبور الظفر وإن طال به الزمان ، الى غير ذلك من الكلمات القصيرة التي قصرت أطرافها وفاتت العدّ في معانيها

(المثال الرابع) ما أُنثر عن أهل البلاغة قال بعض الأعراب : اللهم هب لي حقك ، وأرض عني خلقك ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا هو البلاغة ، وكما أُنثر عن الحريري في مقاماته استعمال المداراة ، تُوجب المصافاة ، وقوله مُلكُ الخلائق شينُ الخلائق ، التزامُ الحزامة ذمامُ السلامه ،

تَطَلَّبُ المَثَالِبُ ، من المَعَايِبِ ، عند الأَوْجَالِ ، يتفاضل الرجال ،
مُوجِبُ الصَّبْرِ ، ثَمَرَةُ النَّصْرِ ، الى غير ذلك ولا يكاد يوجد الآ
على القَلَّةِ في كلام الفصحاء ، والقِرَآنُ يوجد فيه كثير ، وما
ذاك الا لأنه قد حاز مُعْظَمُ البلاغة

المثال الخامس ما ورد فيه من المنظوم وهذا كقول
السموعل بن عادياء الغساني

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا

فليس الى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

فهذا البيت قد اشتمل على مكارم الأَخْلَاقِ من سَمَاحَةٍ ،
وشجاعة ، وتواضع ، وحِلْمٍ ، وصَبْرٍ ، وتكَلُّفٍ ، واحتمالِ
المكاره ، فان هذه الأمور كلها مما تُضَيِّمُ النفوس لما يحصل في
تحملها من المشقة والعناء ، ومن ذلك ما قاله أبو تمام

وظلمتَ نَفْسَكَ طَالِبًا إِنْصَافَهَا

فَعَجِبْتَ مِنْ مَظْلُومَةٍ لَمْ تُظَلِّمْ

وأراد بقوله : ظلمتَ نَفْسَكَ طَالِبًا إِنْصَافَهَا ، أنك
أَكْرَمْتَهَا على تَحْمِلِ الأَثْقَالِ في مشاق الأمور ، فاذا فعلت
ذلك فقد ظلمتها ، ثم إنك مع ظلمك إِيَّاهَا فقد أنصفتها ،

لأنك جلبت إليها أشياء حسنةً تكسبها ذكراً جميلاً ، ومجداً مؤثلاً ، فكنت منصفاً لها في صورة ظالم ، ومعنى قوله فعجبت من مظلومة لم تظلم ، أنك ظلمتها وما ظلمتها في الحقيقة ، فقد أعجب في بيته هذا بجمعه فيه بين النقيضين الظلم ، والإينصاف كما ترى ، ولنقتصر على هذا من حقائق الإيجاز ففيه كفاية

﴿ الفصل السادس ﴾

(في بيان الالتفات)

اعلم أن الالتفات من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها . والواسطة في قلائدها وعقودها ، وسُمي بذلك أخذاً له من التفات الإنسان يمينا وشمالا ، فتارة يُقبلُ بوجهه وتارة كذا ، وتارة كذا ، فهكذا حال هذا النوع من علم المعاني ، فإنه في الكلام ينتقل من صيغة إلى صيغة ، ومن خطاب إلى غيبة ، ومن غيبة إلى خطاب إلى غير ذلك من أنواع الالتفات ، كما سنوضحه ، وقد يُلقبُ بشجاعة العربية ، والسبب في تلقيبه بذلك ، هو أن الشجاعة هي الإقدام ، والرجل إذا كان شجاعاً فإنه يردُّ الموارد الصعبة ، ويقتحم

الوَرط العظيمة حيث لا يردُّها غيرُه ، ولا يقتحمُها سواه ،
ولا شكَّ أن الالتفات مخصوصٌ بهذه اللغة العربية دون
غيرها ، ومعناه في مصطلح علماء البلاغة ، هو العدول من
أُسلوبٍ في الكلام الى أُسلوبٍ آخرٍ مخالفٍ للأول ، وهذا
أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة الى خطاب ، ومن
خطاب الى غيبة ، لان الأول يعمُّ سائر الالتفاتات كلياً ،
والحدُّ الثاني إنما هو مقصودٌ على الغيبة والخطاب لا غيرُ ،
ولا شكَّ أن الالتفات قد يكون من الماضي الى المضارع ،
وقد يكون على عكس ذلك ، فلهذا كان الحدُّ الأول هو
أقوى دون غيره ، فإذا عرفت هذا فاعلم أن لعلماء البلاغة
في الوجه الذي لأجله دخلَ الالتفات في الكلام أقوالاً
ثلاثة ، فالقولُ الأولُ وهو الذي عوّل عليه ابن الأثير ،
وحاصلُ ما قاله هو أنه لا يختصُّ بضابطٍ يجمعه ، ولكنه
يكون على حسب مواقعه في البلاغة ، وموارده في الخطاب ،
وآل كلامه الى أن الناظر إنما يعرفُ حسن مواقع الالتفات
إذا نظر في كل موضع يكون فيه الالتفات ، فيعرفُ قدر
بلاغته بالإضافة الى ذلك الموقع بعينه ، فأما أن يكون

مضبوطا بضابطٍ واحدٍ فلا وجه له ، هذا ملخص كلامه بعد حذف أكثر فضلاته

القول الثاني محكيٌّ عن بعض من خاض في علوم البيان ، وتقرير ما قاله : هو أن ذلك من عادة العرب وأساليبها في الكلام ، وزيف ابن الأثير هذه المقالة ، وقال هذا التعليل هو مثل عكاز العميان ، وأراد بما قاله من عكاز العميان ، هو أن عكاز الأعمى لا يُسئل عن علة حاجته اليه ، فإنَّ علة حاجته اليه ظاهرة لا تحتاج الى بيان وكشف ، فكذا ما قالوه من تعليل ورود الالتفات بكونه أسلوباً من أساليب الكلام ، فإنَّ كونه أسلوباً من أساليب الكلام ظاهر لا يحتاج الى بيان ، وهو لعمري كما قاله ، فإنَّ كلامه لا فائدة فيه

القول الثالث محكيٌّ عن الزمخشريِّ ، وحاصل مقاله هو أن ورود الالتفات في الكلام إنما يكون إيقاظاً للسامع عن الغفلة ، وتطريباً له بنقله من خطاب الى خطاب آخر ، فإنَّ السامع ربَّما ملَّ من أسلوب فينقله الى أسلوب آخر ، تنشيطاً له في الاستماع ، واستمالة له في الإصغاء الى ما يقوله ، وما ذكره الزمخشري لا غبار على وجهه ، وهو قولٌ سديدٌ يُشير الى مقاصد البلاغة ، ويعتضدُّ بتصرف أهل الخطاب ،

ومن مارس طرفاً من علوم الفصاحة لاح له على القرب ، أن ما قاله الزمخشري قوى من جهة النظر ، يدري كُنْهَهُ النَّظَّارُ ، ويتقاعدُ عن فهمه الأغمارُ ، وقد زعم ابن الأثير ردًّا لكلام الزمخشري بوجهين ، أحدهما أنه قال إنما جاز الالتفات من أجل التنشيط للسامع ، واعترضه بأن الكلام لو كان فصيحاً لم يكن مملولاً ، وهذا خطأ وجهلٌ بمقاصد البلاغة ، فإن مثل هذا لا يُزيلُ فصاحة الكلام ، ولا ينقص من بلاغته ، ولهذا فإنه لو ترك فيه الالتفات فإنه باقٍ على الفصاحة ، ولكن الغرض أن خروجاً من أسلوب الخطاب إلى الغيبة ، يزيدُ في البلاغة ويُحسِّنُهَا ، ويكون الخطاب مع ما ذكرناه أوقع وأكشف عن المراد وأرفع ، وثانيهما قوله : إن ما قاله الزمخشري إنما يوجد في الكلام المطول ، والالتفات كما يُستعمل في الطويل فهو يستعمل في القصير ، وهذا فاسدٌ أيضاً فإن الزمخشري لم يشترط التطويل في حسن الالتفات ، فينتقض بما ذكرته ، وإنما أراد تحصيل الإيقاظ وازدياد النشاط بذكر الالتفات ، وهذا حاصلٌ في الكلام سواء كان طويلاً أو قصيراً ، فأذن لا وجه لكلام ابن الأثير على ما قصده الزمخشري وانتحاه ، ومن العجب أنه شنع فما أورده

على الزمخشري وقال : كيف ذهب عنه معرفته مع إحاطته بفن
البلاغة والفصاحة ، وما درى أن ما قاله خير مما أتى به ابن
الأثير ، فإنّ ما أراده الزمخشريّ معنى يليق بالبلاغة ،
ويزيدها قوّةً ، وما ذكره ابن الأثير ردّ الى عمّاية ، وقول
ليس له حاصلٌ ، ولا يُدرك له نهاية ، وما عابه الآ لأنه لم
يطلع على أغواره ، ولا أحاط بكنهه ، ودقيق أسراره ، ولقد
صدق من قال

وكم من عائب قولاً سليماً

وآفته من الفهم السقيم

وإذا تمّ ما ذكرناه فلنرجع الى تقرير الالتفات وتقرير

أساسه ، فنقول الالتفات يرد على ضرب ثلاثة

الضرب الأول ما يرجع الى الغيبة ، والخطاب ، والتكلم ،

فأما الرجوع من الغيبة الى الخطاب فكقوله تعالى (الحمد لله

ربّ العالمين) ثم قال بعد ذلك (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

لأن ما تقدم من قوله « الحمد لله » إنما هو للغائب ولو أراد

الخطاب ، لقال الحمد لك ، لأنك أنت ربّ العالمين ، وقوله

تعالى (وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) ولو أراد

الغيبية، لقال لقد جاءوا شيئاً إدًّا، وإنما عدل عنه الى الخطاب لما ذكرناه من الإيقاظ والتنشيط، ومن ذلك قوله تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) فهذا واردٌ على جهة الغيبة، ثم قال (الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ) وهذا واردٌ على جهة التكلم، ثم قال (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وهذا غيبةٌ أيضاً، ولو جاء به على أسلوب واحدٍ من غير الالتفات لقال سبحانه الذي أسرى عبده ليلًا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليُريه من آياته إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مِنَ الْاَلْتِفَاتِ دَلَالَةٌ عَلَى مَا قَلْنَا، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » فَهَذَا كَلَامٌ عَلَى جِهَةِ الْغَيْبَةِ إِلَى قَوْلِهِ « وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » ثُمَّ قَالَ « وَزَيْنًا السَّمَاءِ » وَهَذَا عَلَى جِهَةِ التَّكْلِيمِ بَعْدَ الْغَيْبَةِ، ثُمَّ قَالَ (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) وَهُوَ غَيْبَةٌ أَيْضًا وَقَوْلُهُ تَعَالَى « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ » خِطَابٌ لَهُمْ، ثُمَّ قَوْلُهُ بَعْدَهُ « وَجَرَيْنَ بِهِمْ » غَيْبَةٌ بَعْدَ الْخِطَابِ، وَهَذَا كَثِيرٌ الدَّوْرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَمَنْ تَأَمَّلَهُ

الضرب الثاني مختص بالأفعال وهو الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر، وهذا كقوله تعالى في قصة هود قال « إِنِّي أُنشِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ

دونه» ولو أراد المساواة بين الفعلين ، لقال أشهدُ الله وأشهدُكم ، وقد يكون رجوعاً عن الفعل الماضي الى فعل الأمر ، وهذا مثاله قوله تعالى (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) ولو جاء به على أسلوب واحد لقال : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَمَرَكُمْ أَنْ تَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ، فعلى الناظر إعمال نظره وحكّ قريحته فيما أوردناه من هذه الأمثلة وأن يضع في نفسه أنّ الانتقال من صيغة الى صيغة إنما يكون من أجل الالتفات ليكمل أمر الخطاب وتتفاوت درجته في البلاغة ، وهذا إنما يدرك بالذوق الصافي الخالص عن شوب البلادة ، وما هذا حاله فهو من دقيق علم البلاغة وغامضها

الضرب الثالث مختص بالأفعال كالأول ، خلاً أنّ الأول كان الانتقال فيه من الماضي الى المستقبل ، وهما خبران الى الإنشاء ، وهو فعل الأمر ، وههنا أخبارٌ كلّها ، المنتقلُ عنه ، والمنتقلُ إليه ، وذلك يأتي على وجهين ، الوجه الأولُ الانتقالُ عن الماضي الى المضارع ، ومثاله قوله تعالى (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدْرِ

مَيَّتِ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) فوسَطُ
قَوْلِهِ فَتُثِيرُ سَحَابًا ، وَجَاءَ بِهِ عَلَى جِهَةِ الْمُضَارَعَةِ وَالِاسْتِقْبَالِ بَيْنَ
فَعْلَيْنِ مَاضِيَيْنِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ أَرْسَلَ ، وَسَقْنَاهُ ، وَالسَّرُّ فِي مِثْلِ
هَذَا ، هُوَ أَنَّ الْفِعْلَ الْمُسْتَقْبَلَ يُوضِّحُ الْحَالَ ، وَيَسْتَحْضِرُ تِلْكَ
الصُّورَةَ حَتَّى كَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَشَاهِدُهَا ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْفِعْلُ
الْمَاضِي إِذَا عُطِفَ لِأَنَّهُ لَا يُعْطَى هَذَا الْمَعْنَى وَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ،
فَإِذَا قَالَ فَتُثِيرُ ، عَلَى جِهَةِ الْاسْتِقْبَالِ بَعْدَ مَا مَضَى قَوْلُهُ : أَرْسَلَ .
فَإِنَّمَا يَكُونُ دَالًّا عَلَى حِكَايَةِ الْحَالَ الَّتِي تَقَعُ فِيهَا إِثَارَةُ الرِّيحِ
لِلسَّحَابِ وَاسْتِحْضَارًا لِتِلْكَ الصُّورَةِ الْبَدِيعَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْقُدْرَةِ
الْبَاهِرَةِ ، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ فِيهَا هَذَا حَالُهُ فَإِنَّكَ تَقَرَّرُهُ عَلَى هَذَا
الضَّابِطِ ، وَهَكَذَا وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ) وَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ عَلَى صِيغَةِ الْمُضَارَعِ ،
وَعَدَلَ عَنِ عَطْفِ الْمَاضِي عَلَى الْمَاضِي تَنْبِيْهُاً عَلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ
ثَابِتٌ مُسْتَمِرٌّ غَيْرٌ مُتَجَدِّدٌ ، بِمُخْلَافِ الصِّدِّ ، فَإِنَّهُ مُتَجَدِّدٌ عَلَى
مَمَرِ الْأَوْقَاتِ ، وَتَكَرَّرِ السَّاعَاتِ ، فَهَذَا جَاءَ بِهِ عَلَى صِيغَةِ
الْمُضَارَعِ ، مَنْبِيْهُاً عَلَى ذَلِكَ ، وَمِنْ هَذَا النُّوعِ قَوْلُهُ تَعَالَى (أَلَمْ
تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً)
وَلَمْ يَقُلْ فَأَصْبَحَتْ عَطْفًا عَلَى أَنْزَلَ ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ أَنْزَالَ الْمَاءِ

قد انقضى ومضى ، واخضرار الارض متجددٌ كما تقول أنعم
على فلانٍ ، فأروحُ وأغذو شاكرًا له ، ولو قلت فغدوتُ
شاكرًا له لم يُفد تلك الفائدة ، لا يُقال : فهَب أن الفعل
جاء مضارعًا من أجل التنبيه على الذي ذكرتموه فأراه لم يكن
منصوبًا جوابًا للاستفهام بالهمزة في قوله (ألم تر أن الله أنزل)
وعدل به عن القياس المطرد وهو النصب ، لأننا نقول :
النصبُ إنما يكون إذا كان الأولُ سببًا للثاني كقولك :
أتقومُ فأقوم ، وههنا ليست الرؤيةُ سببًا في كون الأرض
تُصبح مخضرة ، فهذا وجب رفعه للدلالة على أنها تكون
مخضرة عقيب الإنزال للماء عليه من غير إشارة الى السببية ،
وعلى هذا يكون المعنى فيه نهاية البلاغة ، ومما ينخرطُ في
هذا السلك : ما روى من حديث الزبير بن العوام في غزوة
بدر فانه قال : لقيتُ عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على
فرسٍ وعليه لامةٌ كاملة لا يرى منه الا عيناهُ ، وهو يقول
أنا أبوذات الكرش وفي يدي عذرةٌ فأطعنُ بها في عينه
فوقع ، ثم أظأ برجلي على خده حتى خرجتُ العذرةُ من
عنقه ، فقوله أطعن ، وأظأ ، على صيغة الفعل المضارع إنما
جرى على قصد المبالغة

الوجهُ الثاني الانتقال من المضارع الى الماضي ، وهذا كقوله تعالى (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) لِأَنَّ إِشَارَةَ الْمَاضِي وَالْعُدُولَ إِلَيْهِ دَالٌ عَلَى مِبَالِغَةِ فِي الثَّبُوتِ وَالِاسْتِقْرَارِ ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ) وَلَمْ يَقُلْ : وَنَحَشَرْنَاهُمْ ، وَقَدْ يُعَدَّلُ إِلَى لَفْظِ اسْمِ الْمَفْعُولِ عَنِ الْفِعْلِ الْمَاضِي ، إِجْرَاءً لَهُ يُجْرَى الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ ، وَمِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) لِأَنَّ التَّقْدِيرَ فِيهِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ يُجْمَعُ فِيهِ النَّاسُ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ)

ومما جاء في الالتفات من الأبيات الشعرية قول جرير
متى كان الخيامُ بذي طُلُوحٍ سَقَيْتُ الْغَيْثَ أَيَّتُّهَا الْخِيَامُ
فهذا الالتفات من الغيبة الى الخطاب وكقول امرئ

القيس

تَطَاوَلُ لَيْلُكَ بِالْإِئْمِدِ * وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ * كَلِيلَةَ ذِي الْعَائِرِ الْأَرْمَدِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي * وَخُبْرَتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ
فهذه التفاتات ثلاثة قد جمعها امرؤ القيس في هذه

الآيات ، فتحصل من مجموع ما ذكرناه أن أهل البلاغة من العرب دأبهم الالتفات ، ويستكثرون منه ، وما ذاك إلا لأنهم يرون الانتقال من أسلوب الى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأكثر لنشاطه ، وأعظم في إصغائه ، وإذا كانوا يستحسنون قرى الأضياف وهو دأبهم وعليه هجيرا هم وعادتهم فيخالفون فيه بين لوز ولون ، وطعم وطعم ، أفلا يستحسنون نشاط الأفتدة وملاءمة القلوب بالمخالفة بين أسلوب ، وأسلوب ، بل يكون هذا أجدر فإن اقتدارهم على مخالفة أساليب الكلام أكثر من اقتدارهم على مخالفة الأطعمة ، لأن البلاغة في الكلام عليهم أيسر ، وهم عليها أمكن وأقدر ، فهذا ما أردناه من إيراد ما يتعلق بالالتفات من الخطاب

﴿ الفصل السادس ﴾

(ما يتعلق بالإضمار)

اعلم أن هذه الضمائر لها جانبان ، أحدهما يتعلق بجانب الإعراب ، والآخر يتعلق بجانب المعاني ، فالذي يتعلق بالإعراب قد ذكرناه في موضعه وأودعناه أسراراً بديعة كلها

مختصةٌ بحقائق الإعراب ، والذي نذكره ههنا ما يتعلق
بعلوم البلاغة وحقائقها، وتَمَامُ المقصود منه يحصل برسم مسائل
المسئلة الاولى في ضمير الشأن والقصة ويكون مرفوعاً ،
ومنصوباً ، لاتصاله بالعوامل الرافعة والناصبية ، فإذا وقع مرفوعاً
فتارةً يكون منفصلاً كقولك هو زيدٌ قائمٌ ، وقوله تعالى
(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وقوله تعالى (فإذا هي شاخصةٌ أبصارُ الذين
كفروا) في أحد وجهيه ، ومرةً يكون متصلاً كقوله تعالى
(فإنها لا تعمى الأبصارُ) وقوله تعالى (وأنه لما قام عبدُ الله
يدعوه) ونحو قولك : ظننته زيدٌ قائمٌ ، هذا كله في متصل
المنصوب ، فأما متصل المرفوع فكقولك : كان زيدٌ قائمٌ وقوله
تعالى (من بعد ما كادَ تزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم) وإنما
خلطناها في التمثيل أعني المنصوب والمرفوع لاشتراكهما في
الاتصال ، فإذا تقرر هذا فاعلم أن ضمير الشأن والقصة على
اختلاف أحواله ، إنما يرد على جهة المبالغة في تعظيم تلك القصة
وتفخيم شأنها وتحصيل البلاغة فيه من جهة إضماره أولاً ،
وتفسيره ثانياً ، لأن الشيء إذا كان مُبهِمًا فالنفوسُ متطلعةٌ
الى فهمه ولها تشوقٌ إليه ، فلاجل هذا حصلت فيه البلاغة ،

ولأجل ما فيه من الاختصاص بالأيهام لا يكاد يرد
إلا في المواضع البليغة المختصة بالفخامة
المسئلة الثانية في الضمير في (نعم وبئس) هو في قولك:
نعم رجلا زيد وبئس غلاما عمرو، فانتصاب ما بعدهما من
النكرات إنما يكون على جهة التفسير لما تضمننا من الضمائر
الدالة على الحقيقة الذهنية، ولهذا فإنه إذا ظهر فلا بد من
اشتراط كونه جنسًا فتقول فيه: نعم الرجل زيد، وبئس
الغلام عمرو، وفي هذا دلالة على كون الضمير دالا على الأمر
الذهني، لما فُسر بالجنس لما فيه من الدلالة على الحقيقة
الذهنية وهو إنما أُضمِر على جهة المبالغة في المدح والذم وهو
من الباب الذي أُبهم ثم فُسر، فتوجه البلاغة فيه من حيث
كان مبهمًا، فكان للأفتدة تطلع إلى فهمه وللقلوب تعلق
به ولها غرامٌ بإيضاحه، وقول النحاة (نعم وبئس) موضوعان
لإفادة المدح العام والذم العام يشيرون به إلى ما قلناه من
دلالاته على الحقيقة الذهنية

المسئلة الثالثة في الضمير المتوسط بين المبتدئ والخبر
وعواملهما، وهذا كقولك كان زيد هو القائم، وزيد هو
القائم، وظننت زيدا هو القائم قال الله تعالى (وكُنَّا نَحْنُ

الوارثين) (وإن ترن أنا أقل) وقوله تعالى (ولكن كانوا هم
الظالمين) والكسائي وغيره من نحاة الكوفة يسمونه العماد ،
لمطابقتة لما قبله ، وسيبويه وغيره من نحاة البصرة يسمونه
الفصل ، لأنه ورد فاصلا بين كونه وصفا وغير وصف ، فأما
الدلالة على اسميته وموضعه من الإعراب فذكره إنما يليق
بالمباحث الإعرابية ، والذي تتعرض لذكره ههنا ما يختص
بالبلاغة والفصاحة ، وقد ورد في كتاب الله تعالى وفي غيره
كما تلونا من هذه الآيات ، فوروده إنما كان من أجل
التأكيد المعنوي ، وفيه دلالة على الاختصاص فقوله تعالى
(والكافرون هم الظالمون) وقوله تعالى (ولكن كانوا هم
الظالمين) (وإن ترن أنا أقل) الى غير ذلك من الضمائر التي
وردت على هذه الصفة فانها مفيدة للتأكيد كما ترى ، لان
الكلام مع ذكرها أبلغ ، فأنت لو قلت والكافرون
الظالمون ، ولكن كانوا الظالمين ، وأسقطت هذه الضمائر ،
فإنك تجد فرقا بين الحالتين في التأكيد وعدمه ، وكما هي
مفيدة للتأكيد كما ترى ففيها دلالة على الاختصاص ، لأنه
إذا قال والكافرون هم الظالمون ، فإنما جاء بالضمير ليدل على
أنهم لكفرهم اختصوا بمزيد الظلم الفاحش ، وقوله تعالى

(أولئك هم المؤمنون حقا) فيه دلالة على مزيد اختصاصهم بالإيمان واستحقاقهم لصفته من بين سائر الخلق فيؤخذ الاختصاص والتأكيد من هذا الضمير كما أشرنا إليه

(المسألة الرابعة في توكيد الضمائر)

اعلم أن دخول التأكيد في الكلام ليس أمرا حتما ولا يكون على جهة الوجوب، وإنما يكون وروده على وجهين، أحدهما أن يكون المعنى معلوماً في النفس لا يقع فيه شك، فما هذا حاله أنت فيه بالخيار بين تأكيديه وتركه، وثانيهما أن يكون غير معلوم أو يكون مشكوكاً فيه، وما هذا حاله فالأولى تأكيديه، لإزالة احتمالها، ثم التأكيد في الضمائر بالإضافة إلى الاتصال والانفصال على أوجه ثلاثة، أولها تأكيد المنفصل بمثله، وهذا كقولك أنت، أنت وأنا، أنا قال أبو الطيب المتنبي

قبيل أنت أنت وأنت منهم وجدك بشر الملك الهمام
فقوله أنت أنت من تأكيد المنفصل بمثله، وفائدته المبالغة في مدحه بأبلغ ما يكون، فإنه لو مدحه بما شاء الله من الأوصاف الدالة على الثناء لَمَا سَدَّ مَسَدَّ قَوْلِهِ أَنْتَ أَنْتَ،

كأنه قال أنت المشار اليه بالفضل دون غيره ، فأما قوله
وأنت منهم ، فإنه وإن كان دالاً على المدح ، لكنه خارج عما
نحن فيه من التأكيد وأراد وأنت من هذا القبيل ، يريد
مدح قبيلته بكونه منهم ، فتأمل ما تضمنه هذا البيت من
مدحه ، ومدح القبيلة ، ومدح جدّه ، وهذا من بدائع أبي
الطيب ونفيس معانيه

وثانيها تأكيد المتصل بمثله في الاتصال ومثاله قولك :
إِنَّكَ إِنَّكَ لِعَالَمٍ ، وَإِنَّكَ إِنَّكَ لَجَوَادٍ ، وكقوله تعالى في سورة
الكهف في آية السفينة بعد المخالفة (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) من غير تأكيد ثم قال في آية القتل
الثانية (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ) بالتأكيد ،
والترفة بين الأمرين هو أنه أكد الضمير في الثانية دون
الأولى ، لأن المخالفة في الثانية أعظم جرماً ، وأدخل في
التعنيف لأجل الإصرار على المخالفة ، فلهذا ورد العتاب
مؤكدًا بعد الخلاف لما ذكرناه

وثالثها تأكيد المتصل بالمنفصل ومثاله قوله تعالى
(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ

الأعلى) فهذا التوكيد قد دلّ على طمأنينة نفس موسى ، وعلى الغلبة بالقهر والنصر ، وفي قوله : إِنْكَ أَنْتَ الأَعْلَى ، نهاية البلاغة ، بدليل أمور ستة ، أمّا أوّلاً فإِتيان (إِنْ) المشددة في أول الخطاب لتأكيد الامر وتقرير ثبوته ، وأمّا ثانياً فتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل بالمبالغة في تخصيصه بالقهر والغلبة ، وأمّا ثالثاً فالإِتيانُ بلام التعريف في قوله الأعلى ، ولم يقل أعلى ولا عال ، لأنها دالةٌ على الاختصاص كأنه قال أنت الأعلى دون غيرك ، وفيه تعريضٌ بأمرهم ، وتهكُّمٌ بحالهم ، وإبطالٌ لما هم عليه من أمر السحر ، وأمّا رابعاً فقوله الأعلى ، إنما جاء بلفظة أفعال ، ولم يقل العالی لأن مجيئها على جهة الزيادة في تلك الخصلة للمبالغة ، وأمّا خامساً فتحقيقُ الغلبة بقوله الأعلى ، لأن معناه الأغلب ، وعدل الى لفظ الأعلى لما فيه من الدلالة على الغلبة بالفوقية لا بالمساواة ، وأمّا سادساً فلأنه أتى بقوله إِنْكَ أَنْتَ الأَعْلَى ، على جهة الاستئناف ، ولم يقل قلنا لا تخف لأنك أنت الأعلى ، لأنه لم يجعل عدم الخوف سبباً لكونه غالباً عليهم ، وإنما نفى عنه الخوف بقوله لا تخف ، ثم استأنف الكلام بقوله إِنْكَ أَنْتَ الأَعْلَى ، فلا جرَمَ كان أبلغ في شرح صدر موسى وأقرّ لعينه في القهر والاستيلاء ،

فينحلّ من مجموع ما ذكرناه إفادة البلاغة من التأكيد كما
أشرنا إليه ، وهذا من لطيف علم البيان ، ومما تكثُر فيه
النكتُ والغرائب البديعة ، فأما تأكيد المنفصل بالمتصل فلم
يرد في كلام العرب فلا حاجة بنا الى الكلام عليه

المسألة الخامسة الإظهار في موضع الإضمار ، واعلم أن
هذا وإن كان معدوداً من علم الإعراب ، لكن له تعلقٌ بعلم
المعاني ، وذلك أن الإفصاح بإظهاره في موضع الإضمار له
موقعٌ عظيمٌ وفائدةٌ جزلةٌ ، وهو تعظيم حال الأمر المظهر
والعناية بحقه ، ومثاله قوله تعالى (أو لم يروا كيف يُبدئُ الله
الخلق ثم يعيده) ثم قال بعد ذلك (ثمَّ اللهُ يَنْشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ) فانظر الى إظهاره أسمه جلّ جلاله في قوله (ثمَّ
اللهُ يَنْشِئُ النَّشْأَةَ) وكان قياس الإعراب ثم ينشئُ النشأة
الآخرة ، لأنه قد تقدم ما يفسر هذا الضمير وهو قوله (كيف
يُبدئُ اللهُ) والفائدة في ذلك هو المبالغة في الأمر المظهر
وإظهار الفخامة فيه ، وكقوله تعالى (القارعةُ ما القارعةُ)
وقوله (الحاقةُ ما الحاقةُ) وقد يرد الإظهار على جهة الإنكار
وشدة الغضب والتهكم بحالهم والتعجب من عنادهم وجحدهم ،

وهذا كقوله تعالى (ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كَفَرُوا) ثم قال بعد ذلك (وقال الكافرون هذا ساحر كَذَّابٌ) والغرضُ هو إفراط النكير عليهم والتعريض بأنهم الكفرة حقاً أهل التمرُّد الذي لاشك فيه، والمرآء الذي لا مدفع له، وفي التنزيل كثيرٌ من هذا، ليُدركه من كان له ذهن حاضرٌ وفؤادٌ حديدٌ وحظي من الله بتوفيق وألقى السمع وهو شهيد

﴿ الفصل السابع ﴾

في بيان منزلة اللفظ من معناه وكيفية اضافته الى قائله، وكيفية دلالاته على معناه وبيان قوة المعنى لقوة اللفظ اعلم أن هذا الفصل إنما أوردناه ههنا لكونه مشتملاً على قوانين تتعلق بالدلائل الإفرادية، ولها تعلق بما نحن فيه من علم المعاني، وتفيد فيه فائدة جزلةً غير خافية، وجملتها أربعة

﴿ القانون الأول ﴾

(في بيان منزلة اللفظ من معناه . وبيان درجته منه)

اعلم أن الذي عليه علماء الأدب من أهل اللغة وعلم الإعراب وهو الذي عوّل عليه جماهير الأصوليين أن دلالة

الألفاظ على معانيها ، إنما هو من جهة الموضوعة ، وخالف في ذلك طوائف ، واستقصاء الكلام يليق بالمباحث الكلامية ، فإذا قلت : قام زيد فإنه يُفِيدُ بالوضع أموراً ثلاثة ، القيام ، وزيد ، واتصاف زيد بالقيام ، فإذا كانت الألفاظ مفيدة للمعاني كما ترى لكونها موضوعةً من أجلها ، فاعلم أن الذي عليه أهل التحقيق أن الألفاظ تابعة للمعاني ، وقد صار صائرون إلى أن المعاني تابعة للألفاظ ، والذي أوقعهم في هذا الوهم وقرّر عندهم هذا الخيال ، هو أنهم لما رأوا المعاني لا يرسخ معقولها في الأفتدة الآ بعد أن تحرق الألفاظ قراطيس أسماءهم ، فتوهموا من أجل ذلك أنها تابعة للألفاظ ، والمعتمد في بطلان هذه المقالة أوجه ثلاثة ، أولها هو أن معنى الفرس ، والأسد ، والإنسان ، مفهوم عند العقلاء لا يتغير ، والعبارات عن كل واحدٍ من هذه الحقائق تختلف عليه بحسب اختلاف اللغات من العربية ، والفارسية ، والتركية ، والرومية ، والسريانية ، فلو كانت المعاني تابعة للألفاظ كما زعموه لوجب أن تكون مختلفةً لاختلاف هذه الألفاظ ، فلما عرفنا خلاف ذلك دلّ على صحة ما قلناه ، من كون المعاني أصلاً للألفاظ ، وثانيها أن المعاني منها ما يكون معنى واحداً ، ثم

توضع له ألفاظٌ كثيرةٌ تدلّ عليه وتشعر به ، فلو كانت المعاني تابعةً للألفاظ لكان يلزم اذا كانت الألفاظ مختلفةً أن تكون المعاني مختلفة أيضاً ، فلما كان المعنى واحداً والألفاظ متغايرةً بطل ما قالوه ، وثالثها أن المعاني لو كانت تابعةً للألفاظ للزم في كل معنى أن يكون له لفظ يدلّ عليه ، وهذا باطل ، فإن المعاني لا نهايةَ لها ، والألفاظ متناهيةٌ ، وما يكون بغير نهاية لا يكون تابعاً لما له نهايةٌ ، وإنما كانت الألفاظ متناهيةً ، لأنها داخلةٌ في الوجود ، وكلُّ ما دخله الوجود من المكوّنات فله نهايةٌ لاستحالة وجود ما لا نهاية له ، وموضعه الكتب العقلية ، وقد رمزنا الى دليله هناك ، وإنما كانت المعاني بلا نهايةٍ ، لأنها غير موجودة ، وإنما هي حاصلةٌ في الذهن ، وما وُجد فقد تنهى ، فأما ما لا يوجد فليس له غايةٌ ، كالحقائق الذهنية ، والأمر المتصورة ، فإنه لا نهاية لها قبل تعلق العلم بها ، فأما بعد تعلق العلوم بها فهي منحصرةٌ بانحصار علومها

لا يُقال فإذا كانت المعاني سابقةً على الألفاظ ، وهي أصل لها ، فما تريدون بقولكم إن الألفاظ دالة على المعاني ، وهذا يشعر بأن المعاني تابعةٌ للألفاظ ، لأننا نقول : هذا

فاسدٌ، فإننا قد أوضحنا أن الالفاظ تابعة للمعاني بما سبق من الأدلة فلا وجه لتكريره، قوله فما تريدون بقولكم إن الالفاظ دالة على المعاني، قلنا الغرض من قولنا إن الالفاظ دالة على المعاني، هو أن المعاني سابقة في الثبوت والاستقرار على الالفاظ، وهي بلا نهاية لكن احتيج الى معرفة بعض تلك المعاني التي بلا نهاية من أجل التصرفات، وإحراز مقاصد الخلق، فلاجل هذا وضعوا لما تمس الحاجة اليه من المعاني ألفاظاً تدل عليها وتكون مشعرة بها، لتواضعهم على إفادتها ليتمكن التخاطب بها ويسهل قضاء الأوطار بسبب ذلك، وما كان عنه غنية فلا حاجة الى أن يضعوا له ألفاظاً تدل عليه لوقوع الاستغناء عنه بما ذكرناه، فينحل من مجموع ما ذكرناه أن الالفاظ تابعة للمعاني، وأنها بلا نهاية، وأن الالفاظ متناهية بما شرحناه والحمد لله

﴿ القانون الثاني ﴾

(في كيفية دلالة على معناه)

اعلم أن الالفاظ في دلالتها على ما تدل عليه من المعاني لا يخلو حالها في الدلالة، إما أن تكون مما يدخلها المجاز، أو

مما لا يدخله المجاز فإن كان الثاني فهو الأعلام كزيد وعمرو،
وليس من همنا ذكرها، وإنما غرضنا أن نذكر أسماء
الأجناس، وما لا يجوز تغييره عن وضعه الأصلي، ثم هي
في ذلك على مراتب

(المرتبة الاولى)

الألفاظ المتواطئة وهي اللفظة الدالة على أفراد متعددة
باعتبار أمر جامع لها، فقولنا هي اللفظة نحتز به عن المتباينة،
فإنها لا تكون متباينة إلا إذا كانت الألفاظ متعددة،
وقولنا الدالة على أفراد متعددة، نحتز به عن المترادفة،
فإنها دالة على معنى واحد لا غير، وقولنا باعتبار أمر جامع
لها، نحتز به عن المشتركة، فإنها دالة على أفراد متعددة على
جهة البدلية، لا باعتبار أمر جامع لها، وإنما يجمعها جامع
اللفظ لا غير، ومثاله قولنا رجل، وفرس، وأسد، فإن كل
واحد من هذه الألفاظ دال على أفراد متعددة باعتبار أمر
جامع لها، كالرجولية في قولنا رجل وهكذا الفرسية والاسدية،
وتنقسم الى مستفرقة، وصالحة، فالمستفرقة هي قولنا: الرجال،
والإنسان، والصالحة وهي ما تدل عليه من غير استغراق

كقولنا انسان ، وفرس ، والتفرقةُ بين الألفاظ العامة والصالحة هو أن العامّ دال على جهة الاستغراق ، كالرجال ، بخلاف الصالحة فإن دالاتها إنما هو على جهة الصلاحية دون الاستغراق ، فالعامّةُ يندرج تحتها الأفراد التي بلا نهاية على جهة الوجوب ، والصالحة يندرج تحتها الأفراد التي بلا نهاية على جهة الصلاحية لا غير ، فأما الكلام فيما يعمّ من الألفاظ ، وما لا يعمّ ، وكيفية عمومهِ فإنما يليق بمقاصد أصول الفقه وقد أوردنا فيه تفصيلاً شافياً

(المرتبة الثانية)

في بيان الألفاظ المتباينة ، وهي الألفاظ المتعددة الدالة على المعاني المختلفة ، فقولنا : هي الألفاظ ، نحتزُ به عن اللفظة الواحدة ، فإنه لا يقال فيها إنها متباينةٌ ، والتباينُ إنما يكون واقعاً في الألفاظ المتعددة ، وقولنا الدالة على المعاني المختلفة ، نحتزُ به عن المترادفة ، فإنها ألفاظٌ مختلفةٌ دالةٌ على معنى واحدٍ ، ومثاله قولنا ، سماءٌ ، وأرضٌ ، وجسمٌ ، وعرضٌ ، فإنها ألفاظٌ مختلفةٌ دالةٌ على حقائق مختلفة

(المرتبة الثالثة)

الترادفة ، وهي الألفاظ المختلفة في أنفسها دون معانيها ، وهذا كقولنا نَظَرٌ ، وَفِكْرٌ ، وَعِلْمٌ ، وَمَعْرِفَةٌ ، وَلَيْثٌ ، وَأَسَدٌ الى غير ذلك من أنواع الترادف وهكذا قولنا ، سَيْفٌ ، وَصَارِمٌ ، وَمُهَنْدٌ ، فهذه الألفاظ متفقةٌ في كونها دالَّةٌ على حقيقة واحدة لا تختلف أحوالها في الدلالة عليها كما مثلنا ، نَعَمْ ، قد يقع الاختلاف في أمور عارضةٍ لها وهذا كقولنا صَارِمٌ ، وَمُهَنْدٌ ، فَإِنَّهُمَا وَإِنْ كَانَا دَالِّينِ عَلَى حَقِيقَةِ السَّيْفِ لَا يَخْتَلِفَانِ فِيهَا ، لَكِنَّ الصَّارِمُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى الْقَطْعِ ، وَقَوْلُنَا مُهَنْدٌ ، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى نَسْبَتِهِ إِلَى الْهِنْدِ ، وَقَوْلُنَا عِلْمٌ ، وَمَعْرِفَةٌ ، فَإِنَّهُمَا وَإِنْ اتَّفَقَا فِي دِلَالَتِهِمَا عَلَى مَعْقُولِ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ ، لَكِنَّ أَحَدَهُمَا يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْمَعْرِفَةُ ، وَالْعِلْمُ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ ، فَهَذِهِ أُمُورٌ عَارِضَةٌ يَقَعُ فِيهَا الْاِخْتِلَافُ ، وَقَدْ يَقَعَانِ مَوْقِعًا وَاحِدًا بِحَيْثُ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِمَا اِخْتِلَافٌ عَلَى حَالٍ كَقَوْلِنَا لَيْثٌ ، وَأَسَدٌ

(المرتبة الرابعة)

في بيان الألفاظ المشتركة ، وهي اللفظة الواحدة الدالَّة

على أزيد من معنى واحدٍ مختلفةً في حقائقها على الظهور بوضعٍ واحدٍ ، فقولنا هي اللفظة الواحدة ، ولم نقل هي الألفاظ ، لأن الاشتراك قد يكون في اللفظة الواحدة ، وفي الألفاظ المجتمعة ، بخلاف التباين ، والترادف ، فإنهما لا يقعان إلا في مجموع الألفاظ ، لفظتين فصاعداً ، وقولنا الدالة على أزيد من معنى واحد ، نحتز به عن اللفظة المفردة التي لا تدل إلا على معنى واحد ، فإنها لا تكون مشتركةً ، وأكثر الكلام على الوضع في الدلالات الإفرادية ، لأن الاشتراك على خلاف الأصل . وقوله مختلفةً في حقائقها ، نحتز به عن المتواطئة ، فإن اختلافها ليس في الحقائق ، وإنما اختلافها في العدد كرجل ، وإنسان ، فإنهما دالان على أفرادٍ متعددةٍ ، لكنها غير مختلفة في حقائقها ، لأنها اتفقت في أمر جامع لها ، كالرجولية ، والإنسانية ، وقولنا على الظهور ، نحتز به عن الألفاظ المشتبهة كلفظة النور ، فإنها تطلق على الشمس ، والنار ، والعقل ، فقد دلت على أكثر من حقيقة واحدة مختلفة في حقائقها ، فإن حقيقة النار مغايرةٌ لحقيقة الشمس والعقل ، لكن اختلافها في هذه الحقائق ، ليس أمراً ظاهراً كظهور الأسماء المشتركة ، بل لا يمتنع اتفاقها في أمر جامع لها ، وإن

خفى على الأذهان وكان في غاية الدقة ، فإنّ المعنى المفهوم من حقيقة النور ، متفقٌ فيه ، وإنّ كانت حقائقها مختلفة كما أشرنا إليه وقولنا بوضع واحد ، نحتز به عما يدلّ على شيء بالحقيقة ، وعلى ما يخالفه بالمجاز ، كقولنا أسدٌ ، وجمارٌ ، فإنّهما قد دلّا على أمرين مختلفين ، لكن بوضعين

فإنّ وضع ما ذكرناه من الأمر الجامع لها على خفائه فذكر الاحتراز جيّدٌ لا غنى عنه ، وإنّ خفى وكان في غاية الدقة ولم يكن له هناك حقيقةٌ فلا وجه للاحتراز وكانت المشتبهة داخلة تحت اللفظة المشتركة من غير تفرقة بينهما

(المرتبة الخامسة)

في بيان الألفاظ المستغرقة ، ومن جملة ما يعرض لألفاظ الاستغراق ، فإنّه من الأمور المهمّة لتعلقه بالمسائل الدينية الوعيدية ، وفيه مضطرب النظائر من الاصوليين في المباحث الفقهية ، ويشمُّ رائحةً من علوم المعاني ، فلا ينبغي إغفاله وهي ألفاظ العموم ، ثم معناها ما دل على معنيين فصاعداً من غير حصرٍ ، فقولنا ما دلّ على معنيين ، عامٌ في الاستغراق والاشتراك ، وقولنا من غير حصر ، تخرج عنه

الأسماء المشتركة ، فإن ما تدلّ عليه منحصرٌ ، وهي منقسمة
الى ما يكون مستعملًا في حق العقلاء كمن ، والذين ،
والمسلمين ، والرجال ، وفي غير العقلاء كما ، والأفراس ، والى
ما يكون للعقلاء وغير العقلاء كأيّ ، وكلّ ، فهذه الألفاظ
كلها مستغرقة لما تصلح له ويندرج تحتها ، وإنما ذكرناها لَمَّا
ذكرنا منازل الألفاظ ودرجتها ، والآ فوضعها اللائق بها
أصول الفقه ، ونذكر على أثرها ما يكون لائقًا بها من ذكر
الفروق بينها وذكر ما هو مندرج تحتها ونُردفه بالمراتب

(المرتبة السادسة)

(في إيراد الفروق بين هذه الألفاظ)

اعلم أن كلّ من أحاط علمًا بما ذكرناه من ماهيّتها ،
فإنه لا يقع عليه لبسٌ في كلّ واحدٍ منها بغيرها وإنما نُورد
التفرقة على جهة الإيضاح والبيان ، وجملة ما نُورده من ذلك
فروقٌ خمسة

(الفرق الأول)

بين المشتركة والمتشابهة

اعلم أن الشيخ أبا حامد الغزاليّ قدّر أمر التفرقة بينهما

بما حكيناه من قبل ، وهو أن المشتبهة متفقة في أمر يجمعها كما قلناه في لفظة النور ، بخلاف اللفظة المشتركة ، فإنه لا اشتراك بينها في أمر معنوي بحال ، فان صح ما قاله الغزالي في اشتراكها في أمر معنوي وإن خفي ودق فهما مفترقان ، ويمكن أن يقال إن الأمر الذي قاله ليس أمراً حقيقياً ، وإنما هو خيال ، فيجب اندراجها تحت المشتركة ، وينزل الخلاف في لفظة النور ، على ما ذكرناه من تلك الأنوار ، منزلة إطلاق لفظة اللون على جميع أنواع اللون ، فإن حصلت تفرقة بينها وبين لفظ اللون فما قاله الشيخ أبو حامد مقبول ، وإن لم يكن تفرقة بينهما معقولة فلا وجه للتفرقة بينهما وكانا مشتركين كليهما فينبغي التعويل على ما أشرنا إليه في ذلك

(الفرق الثاني)

بين المتواطئة والمشاركة ، وهو أن المتواطئة دالة على الاشتراك بين المفردات في أمر معنوي يجمعها ، كرجل ، وفرس ، بخلاف المشاركة ، فإنه لا اشتراك بين المفردات الآتية في أمر لفظي كالقرء ، على الطهر ، والحيض ، والشفق على الحمرة ، والبياض

(الفرق الثالث)

بين المتباينة من الألفاظ والمترادفة ، وذلك إنما تكون
التفرقة بينهما من جهة أن الاختلاف في الألفاظ المتباينة تابعٌ
لاختلاف معانيها ، فهي مختلفة الألفاظ والمعاني جميعاً ،
بمخلاف المترادفة فإن ألفاظها وإن كانت مختلفة متباينةً ،
لكن المعاني فيها متفقةٌ ، فإنها دالةٌ على معنى واحد ، وإن
تكررت عليه الألفاظ كما مرّ بيانه

(الفرق الرابع)

التفرقة بين المتواطئة ، والمستغرقة ، وهي إنما تكون من
جهة أن المتواطئة دالةٌ على المفردات من جهة الصلاحية دون
الشمول ، ودلالة المستغرقة إنما هو من جهة دخولها تحتها
واندراجها فيها على جهة الاستغراق ، ومن ثمّ جاز الاستثناء
من الألفاظ المستغرقة ، كالرجال والمسلمين ، ولم يجز في
المتواطئة كرجال ، ومسلمين ، تقول جاءني الرجال الآ زيدا ،
ولا تقول جاءني رجال الآ زيدا ، نعم التواطؤ لا بدّ من أن
يكون سابقاً على الاستغراق ، فلا يرد الآ حيث يكون
متقدماً عليه

(الفرق الخامس)

بين المتواطئة والمشتبهة ، وحاصله أنا نقول إن صح ما
قاله الشيخ أبو حامد من كونها مجتمعة في أمر معنوي على دقته
وغموضه فهي تكون من جملة المتواطئة ، فلا وجه للفرقة
بينهما بحال ، وإن صح ما ذكرناه من الاحتمال ، وهو أنها غير
متفقة في أمر معنوي فهي لاحقة بالألفاظ المشتركة ، والفرقة
بين المتواطئة والمشاركة قد ذكرناه فلا وجه لتكريره ، فهذا ما
أردنا ذكره من معرفة هذه الفروق وتقريرها ، وإن أهملنا
شيئاً من ذكر الفروق فهو مندرج تحت ما أشرنا إليه

(المرتبة السابعة)

في بيان ما أُلحق بهذه الألفاظ وليس منها
اعلم أن ما ذكرناه من الألفاظ كالمواطئة والمتباينة ،
والمترادفة ، والمشاركة ، فلا خلاف بين النظائر في تغايرها ،
وأن كل واحد منها مستعمل فيما ذكرناه ، وإنما يؤثر الخلاف
في التشابهة ، وقد ذكرنا وجه النظر فيها ، وهل تكون لاحقة
بالمواطئة ، أو بالمشاركة ، فأما ما وراء ذلك من المترادفة ،

كالناهل ، للعطشان ، والريان ، والمشككة ، كقولنا :
سُدْفَةٌ ، في الضوء ، والظلام ، والمبهمة ، كقولنا : القسَطُ ،
فإنه يستعمل في العدل ، والجور ، فيقال فيه : قَسَطَ . إذا
عدل ، وقَسَطَ . إذا جارَ ، فكأها مندرجةٌ تحت ما ذكرناه من
المشتركة ، وإنما هي عبارات مختلفة على معنى واحد ، ولهذا
فإن ألفاظها مشعرةٌ بالاشتراك فإن التردد إنما يكون فيها
من أجل عدم القرينة على ما أُريد منها من معانيها ، وهكذا
ما قلناه من التشكيك ، فإن الشك إنما حصل لما كان لا يُعلم
المقصودُ منها ، والمبهمةُ إنما عرض الأبهام فيها من جهة
ما ذكرناه من الاحتمال فيها ، فصارت مشتركة فيما أشرنا إليه ،
فالكلامُ فيها كالكلام في المشتركة من غير تفرقة ، وإنما
الخلاف في عبارةٍ فيها

﴿ القانون الثالث ﴾

(في بيان قوة اللفظ لقوة المعنى)

أعلم أن هذا الباب له حظ وافرٌ من علوم المعاني ، وله
فيها قدمٌ راسخة ، وقد ذكره ابن جنى في كتاب الخصائص ،
وأورده ابن الأثير في كتابه المثل السائر ، وما ذاك إلا لعلمها

بعلو مكانة في أبواب المعاني فنقول : قوّة اللفظ لأجل قوّة
المعنى ، إنما تكون بنقل اللفظ من صيغة إلى صيغة أكثر
منها حروفاً ، فلاجل ذلك يقوى المعنى لأجل زيادة اللفظ ،
والآ كانت زيادة الحروف لغواً لا فائدة وراءها ، وذلك
يكون في الأسماء ، والأفعال ، والحروف ، فهذه ثلاثة أمثلة
نذكر ما يتعلق بكل واحد منها على حياله

(المثال الاول)

في الأسماء وهذا كقوله تعالى (الحى القيوم) فإنه أبلغ
من قائم وقوله تعالى (علام الغيوب) فإنه أبلغ من عالم وقوله
تعالى (مقتدر) فإنه أبلغ من قادر ونحو قوله تعالى (والله
يحب التوابين ويحب المتطهرين) فإن فعلاً . أبلغ من فاعل ،
ومتطهر . أبلغ من طاهر ، لأن التواب هو الذى تتكرر منه
التوبة مرة بعد أخرى ، وهكذا المتطهر ، فإنه الذى يكثُر
منه فعلُ الطهارة مرة بعد مرة ، وهكذا القول فيما كان مشتقاً
من الفعل ، فإن زيادة لفظه دالة على زيادة معناه قال أبو نواس
فعموت عنى عفو مقتدر * جلت له تقم فألغاهما
ولم يقل قادر ، مبالغة في الأمر ، وهكذا حال

الأوصاف الجارية على الله تعالى اذا عدل بها عن منهاج
الاشتقاق على جهة المبالغة ، وحكى ابن الأثير عن جماهير
النحاة أنهم يقولون إن (عليا) أبلغ من عالم ، واستضعف
هذه المقالة ، وزعم أن الأمر على خلاف ذلك وأن عالماً أبلغ
من عليم ، لأن عالماً متعدّ وعليمٌ غيرٌ متعدّ ، فلهذا كان
أبلغ لما ذكرناه ، فأما عدّةٌ أحرفها فهي سواءٌ ، وهذا الذى
ذكره فاسدٌ ، فإن الدلالة على بلاغة (عليم) ليس من جهة
عدّة الأحرف ولا من جهة التعدى واللزوم ، فيصح ما ذكره ،
وإنما حصلت المبالغة فيه من جهة الاستعمال لأنهم
لا يستعملونه إلا فى مواضع البلاغة ، بخلاف قولنا عالم ، فبطل
ما توهمه

(المثال الثانى)

فى الأفعال

وهذا كقوله تعالى (فكُبِّكِبُوا فيها) فإنه مأخوذ من
الكبِّ وهو القلب ، لكنّه كرّر الباء للمبالغة فيه ، ومن هذا
قوله تعالى (لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكتسبت) وهذا من
لطف الله ورحمته ، فإنه جعل الثواب على أدنى ملابسةٍ

للطاعة ، فهذا أتى فيه بالثلاثي المجرد ، وجعل العقاب على مزاولة عظيمة للفعل . وعلاج ، فهذا خصه ببناء المبالغة بالزيادة على الثلاثي ، ومن هذا قوله تعالى (فسيكفّهم الله) ولو قال : فكفاك إياهم لم يكن فيه بلاغة ، وهكذا قولهم : اخشوشن ، في خشن ، واعشوشب المكان ، اذا أعشب وكثر شجره ، وإنما عدل عن بنائه الثاني للمبالغة في ذلك المعنى

(المثال الثالث)

في الحروف

وهو قليل الاستعمال ، وهذا كقولنا : سأفعل ، وسوف أفعل ، فإن زمان (سوف) أوسع من زمان السين ، وما ذاك إلا لأجل امتداد حروفها وهكذا فإن التأكيد بإن الشديدة أكد من التأكيد بإن المخففة ، ونحو (لكن) فإنها مع التضعيف أكد منها مع التخفيف ، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن المبالغة في الألفاظ إنما تكون تبعاً للبلاغة في المعاني ، فلا جرّم تكثرت الألفاظ لأجل ذلك

(القانون الرابع)

في جهة اضافة الكلام الى من يضاف اليه

اعلم أن كلّ ثمرٍ ونظمٍ من جميع الكلمات فله جهتان ،
الجهة الاولى أن يكون فاعلاً له في الحال ، فاذا قال الواحد
منا (الحمد لله رب العالمين) (وقفاً نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ
ومنزلاً) فإن هذا الكلام يضاف اليه على جهة أنه فعلاً
وأوجدته بقدرته ، ولهذا فإنه واقف على حسب قصده وداعيته
كسائر أفعاله ، فانه لا فرق بين إيجادهما لما قلناه بلسانه ، وبين
تحريك يده في أن كل واحد منهما مضافٌ اليه على معنى أنه
فعله واخترعه

الجهة الثانية أن يكون مضافاً اليه على معنى أنه ابتداءً
وأنشأه أولاً ، فإن الحمد لله رب العالمين ، مضاف الى الله
تعالى على معنى أنه أنشأه ، وهكذا قوله (قفا نَبِّكَ مِنْ
ذِكْرِي) فإنه مضاف الى امرئ القيس ، وكل واحد من
هاتين الإضافتين حقيقة في الإضافة ، لأنهما يسبقان الى
الفهم ، فلا وجه لجعل أحدهما حقيقةً ، والآخر مجازاً ، فإذا
تمهدت هذه القاعدة ، فالبلاغة إنما تحصل بتأليف الكلام

ونظمه وإعطائه ما يستحقه من الإعراب ، وإعمال العوامل ،
وتوخي جميع معاني النحو ومجاريه التي يستحقها ، وبيان ذلك
هو أن وضع الكلم المفردة بالاضافة الى واضع اللغة لا تغير
لها ، والتصرف لأهل البلاغة إنما هو في التأليف ، ألا ترى
أن أفراد قولنا (الحمد لله رب العالمين) مقولة على السنة الناس ،
والإعجاز إنما كان من أجل نظمها وتأليفها بحيث كان الحمد
مبتدأ ، والله متأخراً عنه خبره ، ورب العالمين ، مضاف ، وإجراؤه
صفة لما قبله في الإعجاز من جهة الانتظام ، فإذن حال أنفس
الكلام مع المؤلف كحال الإبريسم مع ناسج الديباج ،
والذهب مع صائغ التاج ، فحظه من ذلك إنما هو تأليفها
ونظمها لا غير

(الفصل الثامن)

في الاعتراض ، وبعضهم يسميه الحشو ، وقبل الخوض
فيما نريده من خصائصه نذكر ماهية الاعتراض والمعترض
فيه ، فنقول : أما الاعتراض فهو كل كلام أدخل في غيره
أجنبي بحيث لو أسقط لم تختل فائدة الكلام ، وأما المعترض
فيه فهو كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب بحيث لو
أسقط لبقى الكلام على حاله في الإفادة ، مثال ذلك قولنا :

زيد قائم فهذا لا محالة كلامٌ مفيدٌ ، وهو مبتدأٌ وخبرٌ ، فإذا
أدخلنا عليه لفظاً مفرداً فقلنا : زيدٌ والله قائمٌ ، جاز ، فإذا
أزلنا القسم ، بقيَ الأولُ على حاله ، وهكذا إذا أدخلنا في
هذا الكلام كلاماً مركباً فقلنا : زيد على ما به من قلة ذات
اليد كريمٌ ، فقد أدخلنا بين المبتدئِ وخبره كلاماً مركباً ، وهو
قولنا على ما به من قلة ذات يده ، فهذا هو حدُّ المعترض فيه
والاعتراض ، فإذا عرفت هذا فاعلم أن للاعتراض مدخلين
(المدخلُ الأول)

يتعلق بعلم الإعراب ، ثم هو ينقسم الى ما يكون جائزاً
وغير جائز ، فأما الجائز فهو ما يكون فاصلاً بين الصفة
والموصوف ، وبين المعطوف والمعطوف عليه ، وبين القسم
وجوابه ، الى غير ذلك مما يحسن استعماله في اللغة العربية ، وأما
غير الجائز فهو الاعتراض بين المضاف والمضاف اليه ، وبين
حرف الجر ومجروره الى غير ذلك مما يقبح استعماله ، وليس
من همتنا ذكر ما هذا حاله ، لأن هذا إنما يليق بالمباحث
الإعرابية ، وكتابتنا إنما نذكر فيه ما يتعلق بعلوم المعاني دون
ما عداه ، فلا يُعزج أحدهما بالآخر ، وأيضاً فإن هذا

الكتاب لا يخوض فيه الا من له وطأة في علم الاعراب ،
وخطوة في الإحاطة بحقائق العربية فلا جرم أغنانا ذلك عن
الكلام في الأسرار النحوية والمباحث الاعرابية

(المدخل الثاني)

يتعلق بالبلاغة والفصاحة

اعلم أن الاعتراض قد يدخل لفائدة جارية مجرى
التأكيد ، وقد يكون داخلاً لغير فائدة ، فهذان ضربان

(الضرب الاول)

ما يكون دخوله من أجل الفائدة التي تليق بالبلاغة ،
وهذا كقوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم وإِنَّه لقسّمٌ لو
تعامون عظيمٌ) ففي هذه الآية اعتراضان ، أحدهما بجملة
اسمية ابتدائية ، وهي قوله (وإِنَّه لقسّمٌ لو تعامون عظيم)
فأتى بها اعتراضاً بين القسم وجوابه ، وإنما أتى به على قصد
المبالغة المقسم به واهتماماً بذكر حاله قبل جواب القسم ، وفيه
الإعظام له والتفخيم لشأنه ، وذلك يكون أوقع في النفوس
وأدخل في البلاغة ، وثانيها بجملة فعلية بين الصفة والموصوف

ج ٢ م ٢٢ — (الطراز)

وهو قوله تعالى (لو تعلمون) فإنه وسطه بين الصفة وموصوفها
تفخيماً لشأنه وتعظيماً لأمره ، كأنه قال وانه لقسم لو علمتم حاله
أو تحققت أمره ، لعرفتم عظمه ونخامته شأنه ، فهذان
الاعتراضان قد اختصا بمزيد البلاغة وموقع الفخامة مبلغاً لا
يُنال ، ومن هذا قوله تعالى (ويجعلون لله البناتِ سبحانه ولهم
ما يشتهون) فقوله (سبحانه) كلمةٌ تنزيهيةٌ أوردتها اعتراضاً بين
الجملتين مبالغة في التنزيه عما نسبوه اليه من اتخاذ البنات
ومبالغة في الإنكار عليهم في هذه المقالة ، فانظر الى ما
اشتملت عليه هذه اللفظة أعني قوله (سبحانه) من حسن
الموقع بكونها واردة على جهة الاعتراض ، وما تضمنته من
الفوائد الشريفة والأسرار الخفية ، من الإنكار والرد والتهمك ،
وإظهار التعجب من حالهم وغير ذلك من اللطائف ، فسبحان
الله لقد أنشأت هذه الآية للعارفين استطرافاً وعجباً ،
وحرّكت في قلوبهم أشواقاً وطرباً ، لما اشتملت عليه من
عجائب الفصاحة التي لا ينطق بها لسان ومن غرائب البلاغة
ما لا يطلع على فجّهها إنسان

ومن الاعتراض الرشيح قوله تعالى في سورة يوسف
(قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض) فقوله

(لقد علمتم) اعتراض بين القسم وجوابه ، وفائدته تقرير علمهم بالبراءة عن الفساد والبعد عن شهمة السرقة ، ثم إنهم مع إثبات علمهم بذلك أكدوا ذلك بالقسم مبالغة في الأمر ومن الاعتراض الذي طبق مفصل البلاغة قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً حملته أمه وهنأ على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي) فقوله حملته أمه الى قوله عامين ، وارد على جهة الاعتراض بين الفعل ومتعلقه ، وسر ذلك هو أنه لما ذكر توصية الوالدين عقبه بما يؤكد أمر الوصية . ويؤذن باستحقاقها من أجل ما تكابده الأم من المشاق في حمل الولد وفصاله ، وما في أثناء ذلك من مشقة التربية والمزاولة لمصالحه ، والحنو والتعطف عليه ، وخص الام بالذكر ، تنبيهاً على اختصاصها بمزيد المشقة وتعاطي المباشرة له في كل أحواله ، فتوسط هذا الاعتراض بما ذكرناه ، قد اشتمل على الإشارة الى ما قررناه مع احتوائه على حسن الوصف وجودة السياق كما ترى ، ومن شريفه قوله تعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مُفتَرٍ) فقوله والله أعلم بما ينزل ، اعتراض بين إذا وجوابها ،

وفائدته تقرير لمصلحة التبديل ، وتعريضٌ بجهلهم بمعرفة ذلك ، وإعلامٌ لهم بأن الله تعالى هو المتولى لذلك ، فهذه الجملة الابتدائية الواردة اعتراضاً قد قامت مقام ما ذكرناه من هذه الأسرار

ومن غريبه وعجيبه قوله جلّ وعلا (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فقلنا) فقوله : والله مُخْرِجٌ ، جملة ابتدائية وردت معترضة بين الكلامين وفائدتها التقرير في نفوس السامعين بأن تدافعُ بنى إسرائيل في قتل النفس ليس نافعا لهم في إخفائه وكتمانه ، لان الله تعالى مظهره وتعريفه بأنه تعالى مُطَّلَعٌ على كل خافية ، وأكرمُ بمعاني التنزيل ، فما أنفعها وأعلى مكانها وأرفعها ، والاعتراضُ في القرآن أكثرُ من أن يُحصَى ، ومما ورد من المنظوم في الاعتراض قولُ امرئ القيس

فلو أن ما أسعى لأذني معيشة

كفاني ولم أطلب قليل من المال

فقوله (ولم أطلب) واردٌ على جهة الاعتراض بين الفعل

وفاعله ، وإنما أورده ، تعريفاً بتحقيق أمر المعيشة وإعراضاً

عنها وأنه يأتي بأسهل أمر ، وإنما الذي يحتاج الى العناية هو
طلب الملك والمجد المؤثّل كما قال

ولكنما أسعَى لمجدٍ مؤثّلٍ
وقد يُدركُ المجدَ المؤثّلَ أمثالي

ومن ذلك ما قاله أبو تمام

وان الغنى لي إن لحظت مطالي

من الشعر الآ في مديحك أطوعُ

فقد اشتمل على اعتراضين ، أحدهما قوله ان لحظت

مطالي ، والآ خر قوله (الا في مديحك) والمعنى في البيت

كله ، أن الغنى أطوع لي من الشعر لو لحظت مطالي ، وقوله

الآ في مديحك ، جاء بالجملة الاستثنائية مقدّمة ، وموضعها

التأخير ، فاعترض بها بين الجملة الشرطية ، وخبر إن ، والمرادُ

من هذا هو أن مطالبه من الشعر إذا لحظ نجاحها فالغنى بها

أسهل من الشعر في مدح كلّ أحد الآ في مديحك ، فإن

الشعر أسهل على ، وهذا من محاسن ما يوجد في الاعتراض ،

ومن ذلك قول كثير عزة

لَوَ أَنَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ

رَأَوْكَ لَعَلَّمُوا النَّاسَ الْمِطَالَا

فقوله : وأنتَ منهم ، اعترضَ بينَ لو وجوابها وفائدته
التصريح بما هو المقصودُ من ذمّه وتأكيده انصرافَ الذمِّ إليه ،
ومنه قول أبي تمام

رَدَدْتَ رَوْتَقَ وَجْهِ فِي صَحِيفَتِهِ

رَدَّ الصِّقَالَ بِهَاءِ الصَّارِمِ الخِذْمِ

وما أُبَالِي وخيرُ القولِ أَصْدَقُهُ

حقنتَ لي ماءَ وجهي أمَ حقنتَ دمي

فقوله (وخيرُ القولِ أَصْدَقُهُ) من الاعتراضِ الرائقِ

وفائدته تحقيقُ المماثلةِ بينَ صيانةِ الوجهِ وحقنِ الدمِ

(الضربُ الثاني)

(من الاعتراضِ)

وهو الذي يأتي لغير فائدة ، ثم هو على وجهين ، الوجه

الأولُ منهما أن يكون غير مُفيد لكنه لا يكسبُ الكلامَ

حسنًا ولا قبحًا ، وهذا كقول زهير

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ

ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسْأَمُ

فقوله (لا أبالك) من الاعتراضِ الذي ليس فيه فائدة

توكيد ، وليس فيه قبحٌ وهكذا ورد في قول النابغة

تقول رجالٌ يجهلون خَلِيقَتِي

لَعَلَّ زِيَادًا لَا أَبَالِكَ غَافِلٌ

فهذا وأمثاله يُعْتَفَرُ فيه هذا الاعتراض وان كان لا فائدة

تحتة ، الوجه الثاني أن يكون من غير فائدة ، لكنه يكون

قبيحاً لخروجه عن قوانين العربية وانحرافه عن أقيستها

كقول من قال

فقدو الشكُّ بينَ لي عَنَاءٌ

بِوَشْكَ فِرَاقِهِمْ صُرْدٌ يَصِيحُ

وإنما كان قبيحاً لأنه اعترض بين قد و فعلها بقوله

(والشك) ومثل هذا قبيحٌ لا يُعْتَفَرُ وهو في النثر أقبحُ منه في

النظم ، لأن الناظم يضطره الوزنُ فيُعْذِرُ فيه بعضَ مُعْذِرَةٍ ،

فأمّا الناثرُ فلا عذرَ له في مثل هذا ، لأنه لا يُرَاعِي وَزْنَ

يلزمه استقامته ، وكتابُ الله تعالى ، والسنةُ الشريفةُ ، وكلامُ أمير

المؤمنين ، منزّهٌ عن مثل هذا الاعتراض ، لأنه غيرُ لائقٍ

بالكلمات البليغة

* الفصل التاسع *

(في التأكيد)

أعلم أن التأكيد تمكينُ الشيء في النفس وتقوية أمره ،
وفائدته إزالةُ الشكوك وإمطاةُ الشبهات عما أنت بصدده ،
وهو دقيقُ المأخذ ، كثيرُ الفوائد ، وله مجريان

(المجرى الأول)

عام وهو ما يتعلق بالمعاني الإعرابية ، وينقسم الى لفظيٍّ
ومعنويٍّ ، وليس من همنا إيرادُهُ ههنا لأمرين ، أمّا أولاً
فلانحراف ما يتعلق بمقاصد الإعراب عما يتعلق بمقاصد
البلاغة ، وما نحن فيه إنما هو كلامٌ في مقاصد البلاغة ، وأمّا
ثانياً فلأن كتابنا إنما يخوض فيه من له ذوقٌ في علم العربية
وكانت له حظوةٌ وافرةٌ فيها .

(المجرى الثاني)

خاص يتعلق بعلوم البيان ، ويقال له التكرير أيضاً ،
وليس يخفى موقعه البليغٌ ولا علوُّ مكانه الرفيع ، وكم من كلامٍ
هو عن التحقيق طريد ، حتى يخالطه صفوُ التأكيد ، فعند

ذاك يصير قِلادةً في الجيد ، وقاعدةً للتجويد ، ثم ما يكون متعلقاً بعلوم البيان قد يكون تأكيداً في اللفظ والمعنى ، وقد يتعلق بالمعنى دون اللفظ ، فهذان قسمان

﴿ القسم الأول ﴾

(ما يكون تأكيداً في اللفظ والمعنى جميعاً)

اعلم أن ما نوردُه في هذا القسم ينبغي إمعانُ النظر فيه لغموضه ودقة مجاريه ، ومن أجل ورود التأكيد من جهة اللفظ والمعنى والتكرير في كتاب الله تعالى ، ظنَّ بعض مَنْ ضاقتْ حوصلتهُ ، وضعفت بصيرتهُ عن إدراك الحقائق ، والتطلع الى ما أخذ الدقائق أنه خال عن الفائدة ، وأنه لا معنى تحته إلا مجرد التكرير لا غير ، وهذا خطأ وزلل ، فإن كتاب الله تعالى لم يبلغ حدَّ الإعجاز في البلاغة والفصاحة سواء من بين سائر الكلمات ، ولو كان فيه ما هو خال عن الفائدة بالتكرير لم يكن بالغاً هذه الدرجة ولا كان مختصاً بهذه المزية ، وأيضاً فإن سائر الكلمات التي هي دونه في الرتبة قد يوجد فيه التكرير مع اشتغالها على الفائدة فكيف هو ، ونحن الآن نعلو ذروة لا يُنال حضيضها في بيان معاني

الألفاظ المكررة ، في لفظها ومعناها في كتاب الله تعالى ،
ونظّم أنها مع التكرير ، أن تكريرها إنما كان لمعانٍ جزلةٍ ،
ومقاصدٍ سنيةٍ بمعونة الله تعالى ، فمن ذلك قوله تعالى في
سورة الرحمن (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فهذا تكرير
من جهة اللفظ والمعنى ، ووجه ذلك أن الله تعالى إنما أوردتها
في خطاب الثقلين الجن والانس ، فكلُّ نعمةٍ يذكرها ، أو
ما يؤوّل الى النعمة ، فإنه يُردفها بقوله (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ) تقريراً للآلاءِ ، وإِعظاماً لحالها ، ومن ذلك في
سورة القمر قوله (ولقد يَسْرَتْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ
فكيف كان عذابي ونذُر) وإنما كرّره لما يحصل فيه من
إيقاظ النفوس بذكر قصص الأولين ، والاتعاظ بما أصابهم
من المثَلاتِ ، وحلّ بهم من أنواع العقوبات ، فيكون بمنزلة
قرعِ العَصَا ، لثلاث تستولى عليهم الغفلة ، ويغلب عليهم
الذهول والنسيان ، وهكذا ما ورد في سورة المرسلات
وغيرها ، وإِنَّمَا كرّر ذلك لأنه لما ذكر يوم القيامة وأنه كائنٌ لا
محالة ، ثم عدّد هذه الأمور كلّها ، وأنها كالدلالة عليه ، وما
من واحدةٍ منها إلا ويُعقّبها بقوله (وَيَلْبِسُ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ)
مبالغة في الإنكار عليهم وتأكيدهم لوقوع السخط والغضب

لأجل تكذيبهم ، وحذاراً عن الإتيان بمثل ما أتوا به من إنكار هذا اليوم العظيم ، وهكذا القول فيما ورد من الآيات المكررة ، فإنها لم تتكرر إلا لمقصدٍ عظيمٍ في الرمزِ إلى ذلك المعنى الذي سيقَت من أجله ، فليحكِّ الناظرُ قلبه في إدراك تلك اللطائف وليجعلها منه على بالٍ وخاطرٍ ، ولا يتساهل في إحرازها فيلمحها بمؤخر عينه ، فإنها مشتملةٌ على أسرار ورموز ، ومن أحاط بها فقد أوتي من البلاغة مفاتيح الكنوز ، هذا كله فيما نكرّر لفظه مرّاتٍ كثيرة ، من آي التنزيل ، فأما ما كان تكريره مرتين فهو غيرُ خالٍ عن فائدة ظاهرة ، وهذا كقوله تعالى (ويريد الله أن يُحقِّ الحقَّ بكلماته) ثم قال بعد ذلك (ليحقِّ الحقَّ ويُبطلَ الباطلَ) فهذا وإن تكرر لفظه ومعناه ، فلا يخلو عن حال لأجله وقع التغايرُ ، وذلك من وجهين ، أمّا أولاً فلأن الأول وُاردٌ على جهة الإنشاء ، والثاني وُاردٌ على جهة الخبر ، وأمّا ثانياً فلأن الأول وُاردٌ في الإرادة ، والثاني وُاردٌ في الفعل نفسه ، ولأن الأول الغرضُ به إظهارُ أمر الدين بنصرة الرسول بقتل من نأواهُ ، ولهذا قال بعده (ويقطع دابر الكافرين)

والغرضُ بالثاني التمييزُ بين ما يدعو الرسولُ اليه من التوحيد ، وإخلاص العبادَةِ لله ، وبين أمر الشُّرك وعبادة الأصنام ، ولهذا قال بعده (ولو كره المجرِّمون) ومن ذلك قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) ثم قال بعد ذلك (إنَّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فظاهر هذه الآية التكريرُ ، وليس الأمرُ كذلك فإنَّ الحَصْرَ وإنَّ كان شاملاً لهما ، لكنّه مختلفٌ ، فالآيةُ الأولى إنما وردتْ في حصر الإيمان ، وأنه لا إيمان حقيقةً إلاَّ الإيمانُ بالله ورسوله ، وما عداهما لا يعد من الإيمان ، ولا يكون داخلياً في ماهيته ، وتعريضاً بحال من أنكر التوحيد والنبوة ، فإنه غيرُ داخل في هذه الصفة بحال ، والآيةُ الثانيةُ فإنَّما وردتْ على جهة الحَصْر في المستأذنين ، كأنه قال صفةُ الاستئذان مقصورةٌ على كل من آمن بالله ورسوله ، فلا يتأخر إلاَّ بأمر من جهتك ، ولا يُقدِّمُ ولا يُخجِمُ إلا عن رأيك ، لاطمئنان نفسه بالإيمان ، ورُسُوخ قدمه فيه ، فهذا هو المستأذنُ حقيقةً ، فأما من كان غير مؤمن بالله ولا معرِّجٍ على التصديق بك ، فليس من

استئذانك في وردٍ ولا صدرٍ ، فقد ظهر بما ذكرناه تغيُّرُ
الآيتين بما أبرزناه من معناهما ، فهكذا تفعل في كل ما ورد
عليك من الآي القرآنية ، فإن التكرير فيه كثيرٌ ، ورُبَّ
كلامٍ يكون الإطنابُ فيه أبلغ من الإيجاز ، وتصير
البساطةُ له كالعلم والطراز ، ولولا خشيةُ الإطالة لأوردنا
جميع التكريرات كلها ، وأظهرنا تغيُّرها ، وفيما أشرنا إليه
كفاية لما نريده من ذلك ، ومن التكرير الفائت ما ورد في
السنة الشريفة كقوله صلى الله عليه وسلم في وصف يوسف
الصديق عليه السلام (الكريم بن الكريم بن الكريم بن
الكريم) يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، يعني
أنه نبي ابن نبي بن نبي بن نبي ، فقد تُوسخ من الأُصْلَابِ
الشريفة إلى الأرحام الطاهرة ، فهذا تَكْرِيرٌ بالغٌ دال على
نهاية الشرف ، وإِعْظَامِ المنزلة ، ورفع الرتبة عند الله ، ومنه
قول أمير المؤمنين كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ (اللهم إني أستعديك على
قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي وَصَغَّرُوا عَظِيمَ
قَدْرِي ، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مَنَازِعِي أُمْرًا هَوِيَ لِي ثُمَّ قَالُوا أَلَا فِي
الْحَقِّ أَنْ نَأْخُذَهُ ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ نَمْنَعَهُ ، وَإِنَّمَا كَرَّرَ قَوْلَهُ
فِي الْحَقِّ ، مِبَالِغَةً فِي التَّوَجُّعِ ، وَإِعْظَامًا فِي التَّهَكُّمِ بِهِمْ ،

حيث اعتقدوا أن منعه هو الحق بزعمهم ، فهذا من التكرير
الذى قد بلغ فى الفصاحة أعلاها ، وأصعد فى ذروتها وحل
أقصاها كما ترى ، ومن الأبيات الشعرية ما يليق ذكره ههنا
فمن ذلك قول المتنبي

العارض الهتن بن العارض الهتن :-

ن العارض الهتن بن العارض الهتن

فهذا من باب التكرير ، ثم من الناس من صوبه فى
تكريره هذا . ومنهم من قال انه قد أساء فيما أورده من ذلك ،
والأقرب أنه نجيذ فى مطلق التكرير كما حكيناه فيما أوردناه
من آى التنزيل ، فان ما أورده من هذا التكرير دال على
إغراق المدوح فى الكرم ، لكن إنما عرض فيه ما عرض
لمن أنكره ، وزعم أنه غير محمود فيما جاء به من جهة أن لفظه
العارض ، ولفظة الهتن ، ليستا واردتين على جهة البلاغة فيهما
لقلة الاستعمال لهما ، فمن أجل هذا كان ما قاله ليس بالغافى
البلاغة مبلغا عظيما لا من جهة التكرير ، فانه محمود لا محالة
كما أشرنا اليه ، ومن ذلك ما قاله أبو نواس

أقنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما ويوم للترحل خامس
والمراد من هذا أنه أقام بها أربعة أيام ، وهذا تكرير

ليس وراءه كبيرُ فائدةٍ ولا اختصَّ بحلاوةٍ ، ومن عجيب
أمره أنه جعل هذا في عجزِ آياته السينية التي حكيناها عنه في
الإيجاز التي مطلقها قوله

ودارِ ندامى عطلوها وأذَلجُوا

بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ

فلقد جمع فيها بين الكُرِّ والدُرِّ وبين البعرِ ، والمسك

الأذفر ومن هذا قول أبي الطيب

وقلقتُ بالهمّ الذي قلقتُ الحشا

قلاقلُ عيشٍ كلهنّ قلاقلُ

وقوله أيضاً

ولم أرَ مثلَ جيرانى ومثلى لمثلى عندِ مثلهم مُقامُ

فهذا وما شا كله ليس من التكرير الحسن كما أسلفنا

في غيره

﴿ القسم الثانى ﴾

من التكرير في المعنى دون اللفظ ، وهذا القسم يستعمل

كثيراً في القرآن وغيره ، ويجيء مفيداً وغير مفيد ، فهذان

ضربان نذكرهما يتعلق بكل واحد منهما

(الضرب الأول)

ما يرد على جهة الفائدة ، وهذا كقوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا
الْأَمَانََّةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ) فقوله تعالى
(وَالْجِبَالِ) واردة على جهة التأكيد المعنوي ، وفائدته تعظيم
شأن هذه الأمانة المشار إليها وتفخيم حالها ، وقوله تعالى
(وَلِتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) فقوله (يدعون إلى الخير) عام في كل
شيء ، وإنما كرر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جهة
التأكيد والمبالغة ، وقوله تعالى (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)
فإنما خص النخل والرمان بالذكر ، وإن كانا داخلين تحت
الفاكهة ، تعظيماً لأمرهما ومبالغة في رفع قدرهما ، وهكذا
ما ورد في السنة في حديث حاطب بن أبي بلتعة حيث كتب
إلى قريش يشعروهم بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان
منه من إخفاء أمره في غزوة بدر ، فانه كتب مع امرأة
تُشعروهم ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين والزبير
والمقداد فأدركوها وجاؤا بالكتاب ، فقرأه الرسول فقال
ما هذا يا حاطب ، فقال يا رسول الله : والله ما فعلت ذلك

كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ،
وقد زعم بعض من لا دُرْبَةَ له أن هذا من باب التكرير ،
لأن الكفر والردّة والرضا بالكفر كلها أمورٌ كُفْرِيَّةٌ ،
وهذا فاسدٌ فإنها أمورٌ متغايرةٌ ، لأن مراده بقوله (ما
فعلت ذلك كفرًا) أى وأنا باق على الكفر وقوله (ولا
ارتدادًا) أى أنى ما كفرت بعد إسلامي ، وقوله (ولا رضا
بالكفر) معناه ولا آثرتُ جانب الكفار على جانب
المسلمين ، وهذه معانٍ متغايرةٌ واقعةٌ موقعا حسنا ، ومن ذلك
ما روى عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه من قوله (فمن شواهد
خلقه خلقُ السمواتِ مَوْطِدَاتٍ بلا عَمَدٍ ، قائمات بلا سَنَدٍ)
فالقِيَامُ والتوطيدُ ، وقوله بلا عَمَدٍ ، وقوله بلا سَنَدٍ ، متقاربةٌ
في المعنى يجمعهنّ جامع التوكيد المعنوي ، وقوله عليه السلام
(دعاهنّ فأَجِبْن طَائِعَاتٍ مُدْعِنَاتٍ غَيْرَ مُتَلَكِّثَاتٍ وَلَا
مُبْطِئَاتٍ ، وَالتَّلَكُّهُ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْإِبْطَاءِ ، وَمِنَ التَّوَكُّيدِ
المعنوي ما قاله المقنّع الكِنْدِيُّ في الحماسة
وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي
وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلَفٌ جَدًّا

إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيّعوا غيبي حفظت غيوبهم
وإن هم هوروا عني هويت لهم رشدًا

فانظر الى هذه الأبيات ، ما أجمعها لفنون الإيصال ،
وأبلغها في مراعاة جانب الحق والاعتراف ، فهذه الألفاظ
وإن كانت متغايرة ، لكنها متطابقة في المقصود دالة عليه ،
وكما يرد التأكيد المعنوي على ما ذكرناه فقد يرد يبرهان
يشهد له ، وتارة يرد على جهة العزيمة ، ومرة بغير ذلك ، فهذه
وجوه ثلاثة ، أولها ما يرد يبرهان دال عليه وهذا كقول
أبي نواس

قل للذي بصروف الدهر عيّرنا
هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر يعلو فوقه جيف
وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم لا عديد لها
وليس يكسف إلا الشمس والقمر
فقوله أما ترى البحر ، وقوله وفي السماء نجوم ، إنما أوردهما

على جهة الاستدلال والتقرير لما ادّعاه من معاندة الدهر لذوى
الأخطار وأهل المراتب العالية

وثانيها أن يكون وارداً على جهة العزيمة والاهتمام
بأمره ، وهذا كقوله تعالى (فلا أقسمُ بمواقع النجوم وإِنَّه
لقسمٌ لو تعلمون عظيم) فقوله (وأِنَّه لقسم) إنما ورد على
جهة التأكيد لقوله (فلا أقسم) على جهة العزيمة لكونه
قسماً بالغاً عظيماً

وثالثها أن يكون وارداً على خلاف هذين الوجهين ،
وهذا كقوله

فدعوا نزال فكنتم أول نازل

وعلام أركبهُ اذا لم أنزل

فقوله (فعلام أركبه) واردٌ على جهة التأكيد لقوله
(فكنتم أول نازل) بالاستفهام على جهة التقرير وكقوله
ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم

بهن فلولٌ من قرأع الكتاب

فقوله (غير أن سيوفهم) إنما ورد على جهة التأكيد
المعنوي ، لكونهم شُجعاناً ، فأورده على صيغة الاستثناء ،
وكقول طرفة

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا
صَوَّبُ الرِّيحِ وَدَيْعَةٌ تَهْمَى
فقوله (غير مفسدها) واردٌ على جهة التأكيد بصيغة
الاستثناء ، فهذا ما أردنا ذكره من التأكيد المعنوي الذي
ورد لفائدة

﴿ الضرب الثاني ﴾

من التأكيد من غير فائدة وهو أن ترد لفظتان مختلفتان
يدلّان على معنى واحد ، وهذا كقول أبي تمام
قَسَمَ الزَّمَانُ رُبُوعَنَا بَيْنَ الصَّبَا
وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أَثَلَاثًا
فالصبا والقبول ، لفظتان يدلّان على معنى واحد ، وهما
اسمان للريح التي تهبّ من ناحية المشرق ، ونحو قول الخطيب
قالت أمّامة لا تجزع فقلت لها
ان العزاء وإنّ الصبر قد غلبنا
فالعزاء هو الصبر ، لأن معنهما واحد ، وكقول عنتره
حُيِّتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادِمَ عَهْدِهِ
أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثِمِ

فقوله (أقوى وأقفر) لفظان دالان على معنى واحد كما ترى وكقول بعض الشعراء من اهل الحماسة
إِنِّي وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِي غَائِبًا
لَمُقَازِفٌ مِنْ خَلْفِهِ وَوَرَائِهِ

فقوله (من خلفه وورائه) كلمتان دالتان على معنى واحد ، هذا ما ذكره ابن الأثير ، والاقرب أن وراء ، قد يُستعمل بمعنى قدام كما قال تعالى (وكان وراءهم ملك) أى قدامهم ، ولأنه اذا كان بمعنى قدام ، كان أدخل في المدح وأعظم ، لتضمنه تعميم الأحوال في الحياطة والدفاع عنه ، فهذا وما شا كله قد وقع فيه نزاع بين علماء البيان ، فمنهم من رده وقال إن ما هذا حاله بمنزلة التكرار اللفظي ، فاذا كان التكرار معيياً فلا فرق بين أن يكون من جهة اللفظ ، أو يكون حاصلاً من جهة المعنى ، ومنهم من قبله محتجاً بأن الألفاظ اذا كان فيها تغييرٌ فليس معيياً ، وقد استعمله الفصحاء ، فدل ذلك على جوازه ، والمختار عندنا فيه تفصيلٌ ، وحاصله أنا نقول : أمّا النائرُ فلا يُغتفر له مثل هذا ، وهو أن يأتي بكامتين دالتين على معنى واحد من غير فائدة ، وليس هناك ضرورةٌ تلجته الى ذلك ، فهذا كان معدوداً في النثر من العيِّ المرذود

فلا تَقَبَّلُهُ ، وَأَمَّا النَّاضِمُ فَانهُ إِنِ اتَى بِهِمَا فِي صَدْرِ الْبَيْتِ فَلَا عَذْرَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ مَخَالَفٌ لِلْبَلَاغَةِ وَالْبِرَاعَةِ فِي الْفَصَاحَةِ ، وَيَدُلُّ عَلَى ضَيْقِ الْعَطَنِ فِي الطَّلَاقَةِ وَالذَّلَاقَةِ ، وَإِنِ كَانَ فِي عَجْزِ الْأُيَاتِ فَمَا هَذَا حَالُهُ يُعْتَفَرُ لَهُ مِنْ أَجْلِ الضَّرُورَةِ الشَّعْرِيَّةِ ، وَقَدْ اغْتَفَرَ أُمَّةُ الْإِدْبِ لِلشَّعْرَاءِ كَثِيرًا مِنْ الضَّرُورَاتِ قَدْ قَرَّرْنَا فِي الْكُتُبِ الْأَدْبِيَّةِ وَأَظْهَرْنَا الْجَائِزَ مِنْهَا وَالْمَمْتَنِعَ وَالْحَسْنَ وَالْأَحْسَنَ ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ كَلَامُ ابْنِ الْأَثِيرِ فِي كِتَابِهِ الْمَثَلِ السَّائِرِ وَبِتَمَامِهِ يَتِمُّ الْكَلَامُ فِي التَّوَكِيدِ

﴿ الفصل العاشر ﴾

(في بيان المفردات التي خرجت عن هذه الفصول العشرة)

اعلم أن من الألفاظ المفردة ما يتعلق بالبلاغة ، ويستعمل في مواطن الفصاحة ، ولم يمكن إيرادُه في أثناء هذه الفصول ، لاختلافها لكونها غير مندرجة تحت ضابط واحد ، فلا جرم أفردناها بكلام يخصصها ، وهي منقسمة باعتبار الكلمة الى ثلاثة أصناف

(الصنف الأول)

(ما يتعلق بالاسماء ونورد منها صوراً)

الصورةُ الأولى قولهم (هذا) وهو من أسماء الإشارة، وهو إنما يرد على جهة الإشارة الى كلام سابق، ومثاله قوله تعالى (هذا وإن للمتقين لحسن مآبٍ) فإنه لما قص ما ذكره من حديث الأنبياء أيوب وإسماعيل واليسع وذى الكفل، أكد تلك القصص باسم الإشارة، والعطف بذكرها على ما سبق، ليؤكد أمرها ويوضح حالها من أجل أن لا يخالج فيها لبسٌ أو يعتريها ريبٌ، ومصداق ما قلته من إفادتها للتأكيد هو أنها لا تأتي الا وتعقبها إن المؤكدة كما في ظاهر الآية من أجل إفصاح ما قلته من تأكدها، وهذا كقولك لبعض إخوانك: رأيتك أن تفعل كذا وكذا، ثم تقول بعد ذلك: هذا وإن الأمر اليك فافعل ما ترى، والمعنى هذا الذي أراه مصلحة لك في الدين والدنيا، واليك الخيرة بعد في أمرك، وكقوله تعالى (هذا وإن للطاغين لشر مآبٍ) فإنه ذكرها عقيب قوله (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين فيها يدعون فيها بكل فاكهة كثيرة وشراب) أي هذا نعيم، وملك مقيم،

وشرفٌ وعلوٌ مرتبةً ، والجملة التي بعدها ليس لها موضعٌ من
الإعراب ، لأنها واردةٌ على جهة الابتداء ، ولهذا جاءت
متصلةً بها ، لتدلّ على تأكيدها ، وقد يجيء بعدها جملةٌ حاليةٌ ،
وهذا كقولك لمن يفشلُ ويضطربُ حاله وينزعجُ قبل
ملازمة الحرب : هذا ولم تُشجرِ الرماحُ ، ولا وقعت المكافحةُ
بالصِفاح ، ومثل قولك لمن لا ثبات له في الأمر الذي يُحاوله ،
ولا ترسخ قدمه عند مشارفة ما هو بصدده : هذا ولم يطرِ
الذبابُ ، والمعنى هذا حالك ولم تقع في الشدائد ، ولا مارست
المكاره ، فكيف حالك إذا كَلَمَتِكَ شفارُها ، وأصابك
لَهَبُها وشرارُها ، ويتصدى في قولنا : هذا من جهة الإعراب
وجهان ، أحدهما الرفعُ على أنه مبتدأ وخبرُه محذوفٌ ، تقديرُه
هذا على ما قرّرتَه ، وثانيهما النصب على أنه مفعولٌ لفعلٍ
محذوفٍ ، تقديرُه أعرفُ هذا ، وكلا الوجهين لا غبار عليه
الصورة الثانية قولنا : (اللهم) فأما الكلامُ على لفظها ،
وكيفية تركيبها فقد ذكرناه في حقائق الإعراب فلا وجه
لإيراده ههنا ، وإنما نذكر ما يتعلق بخصوصية البلاغة ومجيئها
على أثرِ عمومٍ ، حشواً في الكلام ، حثاً للسامع على رعاية القيد ،
وتنبيهاً له على جريان العموم الآتي في حالة القيد ، ومثاله قولنا أنا

لا أنقطعُ عن زيارتك ، اللهم إلا أن يمنعي ما نع ولا أترك
الإحسان اليك ، اللهم إلا أن يحول بيني وبينك البعد ، وقد وقع
في الحريريات : وما قيل في المثل الذي سار سائرهُ ، خيرُ
العشاء سوافرهُ ، الا ليُعجل العشي ، ويُجتنب أكلُ الليل الذي
يُعشى ، اللهم إلا أن تقد نارُ الجوع ، وتحول دون الهجوع ،
فهي كما ترى واقعة بين كلامين منبهة على مراعاة القيد الذي
ذكرناه

الصورة الثالثة (كلُّ) فإنه دال على الشمول

اعلم أنك اذا قلت : جاءني القوم كلُّهم ، فإنه دالُّ
بحقيقة وضعه على أن كلَّ واحد منهم قد وقع منه المجرى ،
ويرفعُ أن تكون مُتجوِّزاً في نسبة المجرى الى جميع القوم
بأن يكون الجائي بعضهم لكون المتخلف عنهم واحداً أو
اثنين ، أو لكون المتخلفين لا يعتدُّ بهم ، كما يقال أجمعت
الأمّة على كذا ، وأنت تريد العلماء منهم لأن من عداهم لا
اعتداد به ، أو أن تكون نسبت المجرى الى جميعهم لأجل
صدوره من بعضهم كما قال تعالى (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ) والعاقر لها
من قوم صالح هو (قَدَارٌ) لتنزّلهم في الرضا منزلته ، واذا قلت :

ج ٢ م ٢٥ — (الطراز)

ما جاءني القوم كلهم ، فإنه يفيد أن واحداً منهم قد جاء لأجل الشمول ، فالنفي والاثبات يقعان على ما ذكرناه ، نعم إنما يقع الخلاف إذا كان النفي واقعاً على لفظه (كل) كقولك ما كل القوم جاءني) أو غير واقع عليها كقولك (كل القوم ما جاءني) فهذان تقريران ، التقرير الأول في حكم النفي إذا وليته لفظه الشمول وكانت مندرجة تحتها ، سواء كانت عاملة فيه في مثل قولك . ما كل طعامك مأكولا ، أو غير عاملة كقولك : ما مأكول كل طعامك ، فالنفي في هذه الصورة واقع على الشمول فلا يناقضه مجيء بعض القوم ، ولا أكل بعض الطعام ، لأن النفي واقع على الشمول والاثبات واقع على بعضه ، فلا تناقض هناك ، لاختلاف تعلقها بما يتعلقان به ، وإنما تقع المناقضة إذا كان متعلقها واحداً ، وعلى هذا يحمل بيت

أبي الطيب المتنبي

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فالنفي واقع على (كل) المفيد للشمول ، وعلى هذا يجوز أن يكون الإنسان مدركاً بعض متمناه ، فلا مناقضة فيه لما ذكرناه وهكذا قول من قال (ما كل رأي الفتى يدعوه إلى

(الرشد) ومنه قول بعض الشعراء (ما كلُّ ماشيةٍ بالرحلِ
شِمَالُ) والشمال الناقة السريعة ، وأراد أن بعض ما يمشى
بالرحل ليس سريعاً في سيره ، ومنه قولهم (ما كلُّ سوداءِ تمرة)
يعنى أن بعض ما يكون أسود ليس تمراً ، وليس منه
الحديث النبوى حين سلّم على ثلاث من الظُّهر ، فقال له ذو
اليدين يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت ، فقال عليه
السلام كلُّ ذلك لم يكن ، وأراد ما كان شىء من ذلك فقال
ذو اليدين تقريراً لِمَا قد تحقّقه من الحال ، بعضُ ذلك قد كان ،
فجواب الرسول صلى الله عليه وسلم على غير ظاهر الحال ،
وجوابُ ذى اليدين على ما تحقّقه من الأمر في التغيير ، وغرضه
أن بعضه قد كان وهو النسيانُ دون القصر ، فلما كان حرفُ
النفى غير متصدّر على (كلّ) وهو (لم) جاء نفيّاً للفعل على
جهة العموم كما ذكرته ، التقريرُ الثانى أن يكون النفى واقعاً
على غير (كلّ) كقولك كلُّ الأصحاب ما جاءنى ، وكلّ الرجال
ما أكرمت ، وكلّ القوم ما لقيت ، فمتى كان الأمر كما قلناه
كان نفيّاً للفعل متصلاً بالكل ، فيناقضه ما جاء على خلافه ،
فإذا قلت : كلّ الإخواب ما جاءنى ، وكلّ الرجال ما

أكرمت ، فإنه يناقضه ، بل جاءني بعضهم ، لأنك نفيت
الفعل على جهة الإِطلاق ، فلاجل هذا ضاده ما جاء على
عكسه ، ومنه قوله عليه السلام لدى اليدين كل ذلك لم
يكن ، وقد قررناه من قبل ، وقول أبي النجم
قد أصبحت أم الخيار تدعى

على ذنباً كله لم أصنع
فإنه أراد أنه لم يصنع شيئاً منه ، وإنما كان المعنى هكذا ،
لما كان النفي واقعاً على الفعل ، وليس واقعاً على (كل) فهذا
كان عاماً ، ومنه قول بعضهم
فكيف وكلّ ليس يعدو حمامه

وما لامرئٍ عما قضى الله مزحلاً
فالنفي متصلٌ بالفعل ، فهذا كان عاماً ولو قلت : وليس
كلّ يعدو حمامه ، لأفسدت المعنى ، لأنه يوهم أن بعض الناس
يسلم من ملاقاته الحمام ، وهو محالٌ ، ومنه قول دعبل
فوالله ما أدري بأىّ سهامها

رمتني وكلّ عندنا ليس بالمكدي
أبا لجيد أم مجزى الوشاح وإننى
لأشهم عينيتها مع الفاحم الجعد

أراد أن سهامها كلها قاتلةٌ لا يوجد فيها مُكَدِّ بكلِّ حال ، وأَكْدَاهُ إذا نَقَصَهُ ، وَأَكْدَاهُ ، إذا منَعَهُ ، فينحلُّ من مجموع ما ذكرناه ههنا أنْ (كَلَّ) إذا ولي حرف النفي في قولك : ما كلُّ الرجال قائمٌ ، وما كلُّ الرجال جاءني ، فإنه واقع على شموله ، سواء كان عاملاً فيه أو غير عامل ، كقولك : ما كلُّ الرجال لقيت أو أكرمت ، وما كلُّ الرجال قام ، فإذا كان النفي واقعاً على الشمول كان مؤثراً فيه النفي ، فلا يناقضه ما جاء على عكسه ، فعلى هذا تقول في : ما كلُّ الرجال جاءني بل جاءني بعضهم ، فلا مناقضة فيه ، بخلاف ما إذا كان حرفُ النفي واقعاً حشواً في نحو قولك : كلُّ الرجال ما لقيت ، وكلُّ الرجال ما أكرمت ، فإنه يكون واقعاً على نفي الإكرام معلقاً بالشمول ، فلهذا إذا وقع ما يخالفه ، كان مناقضاً له ، فإذا قلت : كلُّ الرجال ما جاءني ، فإنه يناقضه بل جاءني بعضهم ، وسرُّ التفرقة ما ذكرناه من تصدير حرف النفي ووقوعه حشواً وتوجهُ النفي إلى الشمول خاصةً ، وأفاد ثبوت الفعل أو الوصف لبعضٍ ، أو تعلُّقه به ، وما كان على خلاف ذلك كان عامماً في الشمول والآباد ، وما ذكره الشيخُ عبدُ القاهر حيث قال : إن كانت كلمةُ (كلِّ) داخلةً في حيز

النفي بأن تأخرت عن أداته كقوله : ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، أو معمولةً للفعل المنفي نحو ما جاءني القوم كلهم ، أو لم آخذ كل الدراهم ، أو كل الدراهم لم آخذ ، فالمعنى على نفي الشمول ، مطابق لما ذكرناه في هذين التقريرين وضابطاً لما كان من النفي متعلقاً بالشمول دون الآحاد وما كان عاماً فيها

(الصنف الثاني)

ما يتعلق بالأفعال ، وأكثرها متعلق بعلوم الإعراب ، فلا حاجة بنا الى ذكره ، وإنما نذكر منها صورةً واحدة وهي لفظة (كاد) وهي موضوعة للمقاربة دالةً عليها ، وقد وقع فيها خلاف بين النحاة ، فمن قائل إنها كالأفعال فتكون في الإثبات إثباتاً ، وفي النفي نفيًا ، ومن قائل إنها تُخالف الأفعال ، فتكون في الإثبات للنفي وفي النفي للإثبات ، وصار صائرون الى التفرقة ، فتكون في الماضي اذا نفي للإثبات ، وفي المستقبل كالأفعال ، تمسكاً بقوله تعالى (وما كادوا يفعلون) وقد فعلوا ، والمختار أنها جاريةٌ على حكم الأفعال في النفي والإثبات ، فاذا قلت : ما كاد يفعل ، فالغرض أنه لم يفعل ولا قارب الفعل ، واذا قيل : يكاد يفعل .

فالمرادُ من ذلك أنه قارب فعله ولم يفعله ، فتجدها مطابقة
للأفعال في نفيها وإثباتها ، فأما ما قاله ذو الرمة في قصيدته
الحائية

إذا غيَّرَ النَّأْيُ المحبين لم يكذِّ

رَسِيسُ الهَوَى من حُبِّ مِيَّةٍ يَبْرَحُ

فإنه يُحكى أنه لما أنشد هذا البيت ، ناداه ابنُ شُبْرُمَةَ

يا غِيْلَانُ أراه الآن قد بَرِحَ ، فشققَ ناقته ، وجعل يتأخر

بها ويفكر ثم قال

إذا غيَّرَ النَّأْيُ المحبين لم أجِدْ

رَسِيسَ الهَوَى من حُبِّ مِيَّةٍ يَبْرَحُ

قال عنبسةُ فحكيت لابنِ القصة فقال أخطأ ابن

شبرمة حين أنكر على ذي الرمة ، وأخطأ ذو الرمة ، حيث

غيَّرَ شعره لقول ابن شبرمة ، وإنما هذا كقول الله تعالى

(ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إذا أُخرجَ يده لم يكذِّ يراها)

والمعنى أنه لم يرها ولم يُقارب رؤيتها ، وهكذا القول في جميع

مواردها يكون وضعها على هذا الوضع من غير مخالفة للأفعال

(الصنف الثالث في الحروف)

واعلم أن الكلام في أسرار الحروف يتعلّق بعلم الإعراب،
وإنما نذكر أفراد من الحروف لها تعلقٌ بالبلاغة ومواطنِ
الفصاحة ، ونورد من ذلك صوراً

(الصورة الأولى)

(انما) في قولك : إنما أنت الكريم ، وهي ترد للحصر
فيما هي فيه ، فعنى إنما في قوله تعالى (إنما إلهكم إله واحد)
ما إلهكم إلا إله واحد ، قال ابو علي الفارسي في الشيرازيات ،
يقول جماعة من النحاة في قوله تعالى (إنما حرّم ربّي الفواحش
ما ظهر منها وما بطن) إن المعنى فيها ما حرّم ربّي الآ
فواحش ، وقد رأيتُ ما يدلّ على ذلك ويؤذن بصحته ،
كقول الفرزدق

أنا الذائدُ الحامي الذمّار وإنّما

يدافعُ عن أحسابهم أنا أو مثلي

فانفصال الضمير دال على ذلك ، كما لو قال ما يدافع

عنهم إلا أنا أو مثلي ، وقال أبو إسحاق الزجاج والذي اختاره
في قوله تعالى (إنما حرّم عليكم الميتة) أنه في معنى ما حرّم

عليكم الآ الميته ، لأن (إِنَّمَا) إِنَّمَا تَأْتِي إِثْبَاتًا لما يُذَكَّر بعدها ،
ونفيًا لما سواه ، قال الشيخ عبد القاهر لم يَعْنُوا بذلك أنهما
يكونان بمنزلة المترادفين ، لأنه رُبَّمَا يصلح أحدهما حيث لا
يصلح الآخر ، ولهذا فانك تقول : ما من إِلَهٍ إِلَّا اللهُ ، وما
أحدٌ إِلَّا يقولُ ذاك ، فما هذا حاله يصلح فيه (ما) و (الآ)
ولا يصلح فيه (إِنَّمَا) وتقول إِنَّمَا هو درهمٌ لا دينار ، فيصلح
فيه (إِنَّمَا) ولا تقول : ما هو الا درهمٌ لا دينار

﴿ دقيقة ﴾

اعلم أن (إِنَّمَا) الأَصْلُ في وضعها أن تكون لما لا
يجهله المخاطب أو ما ينزل منزلته ، فأما الأول فمثاله قوله تعالى
(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) وقوله (إِنَّمَا أَنْتَ مَنْذِرٌ) و (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ)
و (إِنَّمَا أَنْتَ مَنْذِرٌ مِنْ يُخْشَاهَا) وقوله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللهُ
من عباده العلماء) الى غير ذلك مما يتضح الأمر فيه ويكون
ظاهرًا ، وأما مثال الثاني فقولك : إِنَّمَا هو أخوك ، وإِنَّمَا هو
صاحبك القديم ، فتذكر هذا لمن يعترف بحقه ويقرُّ به ، غير
انك تريد أن تنبِّهه الى ما يجب من حق الأخوة وحرمة
الصحبة ، قال الشاعر

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ السَّمَاءِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
وتقول : إِنَّمَا هُوَ أَسَدٌ وَسَيْفٌ صَارِمٌ ، أَيْ أَنَّ هَذِهِ
الصفات ثابتةٌ لازمةٌ له

﴿ الصورة الثانية ﴾

(حرف الاثبات)

وهو (أَنْ) وَإِنَّمَا ترد على جهة التأكيد للجملة
الابتدائية ، وتدخل الفاء عليها وقد لا تدخل ، وهو الأكثر
المستعمل في كتاب الله تعالى ، والضابط لدخولها وعدم
دخولها هو أنها إذا كانت مذكورة للربط بين الجملتين حتى
كأنهما قد أُفْرِغَا فِي قَالِبٍ وَاحِدٍ وَسُبُكَا سَبِكًا مُنْتَظَمًا ،
فإنها تأتي بغير فاءٍ وهذا كقوله تعالى (وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ
إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وقوله تعالى (اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ
زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ) وقوله تعالى (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ
سَكَنٌ لَهُمْ) وقوله تعالى (وَلَا تُخَاطَبْتِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَهُهُمْ
مُعْرِقُونَ) وقوله تعالى (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) وهذا واردٌ
في التنزيل كثير لا يُحصى كثرةً أعني زوال الفاء عنها كما

مثله ، فأما كلام علماء البيان فالفاء إنما حذفت وهي مما تؤذن بالوصل لأن الحال محمول على تقدير سؤال كأنه قال قائلٌ : هل صلاة الرسول سَكَنَ لَهُمْ ، فقيل له : إنها سَكَنَ لَهُمْ ، وهكذا القول في جميع ما أوردناه من الأمثلة فإنه واردٌ على هذه الطريقة وعلى ما ذكرناه ، فإنه يخالف ما قرروه في ذلك ، والغرض من زوالها ما قررناه من كون الجملتين مُزَجَّجًا مُزَجَّجًا واحداً وكقول من قال

فَغَنَّيَا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ * إِنَّ غِنَاءَ الْإِبْلِ الْخُدَاءُ

وقول بعضهم

عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ * إِنَّ غِنَى الْأَنْفُسِ فِي الْيَأْسِ

وقول بعض الشعراء

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضًا رُفِحَهُ * إِنْ بَنَى عَمِكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

وحيث تكون الجملة الثانية مغايرةً للجملة الأولى فَإِنَّ

الفاء تأتي متصلةً بها وهذا كقوله تعالى (فَإِنَّكُمْ وَمَا

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) وقوله تعالى (فَإِنَّهُمْ لَا كِلُونَ مِنْهَا

فَالَّذِينَ مِنْهَا الْبَطُونُ) ومن خواص هذا الحرف أن له من

المكانة ما يكسو ضمير الشأن أُبْهَةً وبلاغة يعرَى عنها إذا

هو فارق ظلّه ، ومثاله قوله تعالى (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)

وقوله تعالى (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ) وحكي عن الاخفش
أن الضمير في (أنها) راجعٌ الى الإبصار ، ويكون من
قبيل الإيضار قبل الذكر على شريطة التفسير

(الصورة الثالثة)

همزة الاستفهام ، وتختلف معانيها بحسب اختلاف
مواقعها ، فمن وجه الاستفهام . أن تستفهم عما تكون شاكاً
فيه ، فإذا وليت الهمزة الأسماء فالشك يكون في الفاعل ،
فتقول : أأنت فعلت هذا ، إذا كان الشك في الفاعل من هو ،
فإذا قلت : أأنت كتبت هذا الكتاب ، كنت غير شاك
في الكتبِ نفسه ، وإنما وقع الشك في الكاتب ، وتقول :
أأنت قلت شعراً لمن تحقق قول الشعر ، وإنما وقع شكه في
قائله ، قال الله تعالى (أأنت فعلت هذا يا إبراهيم)
فلم يقع شكهم في الفعل أصلاً ، وإنما وقع الشك في الفاعل ،
ولهذا كان جواب إبراهيم بذكر الفاعل مطابقاً لما قالوه من
ذلك ، وهكذا قوله تعالى لعيسى عليه السلام (أأنت قلت
للناس اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) على جهة التقرير
من جهة الفاعل ، وإن وليت الفعل كان الشك واقعاً فيه

كقولك : أَخْرَجْتَ مِنَ الدَّارِ ، وَأَقْلَمْتَ شَعْرًا ، فَالاستفهامُ
إِنَّمَا وَقَعَ فِي الْفِعْلِ كَمَا تَرَى ، وَلِهَذَا كَانَ جَوَابُهُ (بِنَعْمٍ أَوْ لَا)
وَهَذَا كُلُّهُ إِنْ كَانَ الْوَاقِعَ مَاضِيًا ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مُضَارِعًا فَهُوَ
عَلَى وَجْهَيْنِ ، الْوَجْهَ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا أَنْ يَكُونَ لِلْحَالِ ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ
تَكُونَ الْجُمْلَةُ مُصَدَّرَةٌ بِالْفِعْلِ أَوْ بِالِاسْمِ ، فَإِنْ صُدِّرَتِ الْجُمْلَةُ
بِالْفِعْلِ ، وَمِثَالُهُ أَنْ تَقُولَ لِمَنْ هُوَ مُشْتَغَلٌ بِالْفِعْلِ أَتَفْعَلُ هَذَا ،
وَيَكُونُ الْمَعْنَى مَعَهُ أَنْكَ أَرَدْتَ أَنْ تَنْبَهَهُ عَلَى فِعْلٍ وَهُوَ يَفْعَلُهُ
مُؤَهَّمًا أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كُنْهَ حَقِيقَةَ وَجُودِهِ وَأَنَّهُ جَاهِلٌ بِهِ ، وَإِنْ
كَانَتِ الْجُمْلَةُ مُصَدَّرَةٌ بِالِاسْمِ كَقَوْلِكَ : أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا ،
يَكُونُ الْمَعْنَى فِيهِ أَنْكَ تَكُونُ مُقَرَّرًا لَهُ بِأَنَّهُ هُوَ الْفَاعِلُ ، وَكَانَ
وَجُودُ ذَلِكَ الْفِعْلِ ظَاهِرًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ كَائِنٌ
وَمَوْجُودٌ ، هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ الْفِعْلُ الْمُضَارِعَ لِلْحَالِ وَمِنْهُ قَوْلُ
الشَّاعِرِ

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرُفِي مُضَاجِعِي

وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ

كَأَنَّهُ أَرَادَ تَكْذِيبَهُ وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى مَا قَالَهُ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ

الْوَجْهَ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ لِلِاسْتِقْبَالِ ثُمَّ إِمَّا أَنْ تَكُونَ

الْجُمْلَةُ مُصَدَّرَةٌ بِالْفِعْلِ كَقَوْلِكَ : أَتَفْعَلُ هَذَا فِي أَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ ،

ويكون معناه إنكار الفعل نفسه ، وتزعم أنه غير كائن ، وأنه لا ينبغي ان يكون أبداً ، وإمّا أن تكون مصدرية بالاسم كقولك : أنت تفعل كذا وأنت موجه الإِنكار الى الفاعل أى أنه لا يتأتى منه ذلك الفعل ولا يستطيعه ، ويوضحه أنك اذا قلت : أنت تمنعنى عن الفعل ، كنت منكراً منعه وأنه غير قادر وإنما يقدر على ذلك غيره قال **أَتْرُكُ** **إِنْ** **قَلَّتْ** **دِرَاهِمُ** **خَالِدٍ** * **زِيَارَتُهُ** **إِنِّي** **إِذَنْ** **لَللَّيْمِ** هكذا قرّر علماء البيان دخول الهمزة على هذه الأوجه كما ترى

﴿ الصورة الرابعة ﴾

(فى حروف النفي وهى ما . ولن ، ولا ، ولم)

وأعلم ان لحروف النفي تعلقاً بالبلاغة لما يلحقها من الأسرار القرآنية والمعاني الشعرية بحسب مواقعها ومواردها ، لها بالاضافة الى الأزمنة التى تدخل عليها ثلاث حالات ، الحالة الأولى أن تكون داخلية على الفعل لنفى الأزمنة الماضية وهذا نحو قولنا : لم ، ولما ، فإنهما موضوعان من أجل نفي الماضى ، خلافاً لـ (لما) مفارقة (للم) من وجهين ، أمّا أولاً فلا أن (لم)

لنفي فعلٍ ليس معه قد ، (ولمّا) لنفي فعل معه قد ، فلم لنفي قولنا : فَعَلَّ فتقول في جوابه لم يفعل ، وأمّا ثانياً فلأن نفي (لما) أبلغ من نفي لم ، ولهذا فإنك تقول : نَدِمَ ولم ينفعه الندم ، أي نُفِيَ ندمه وتقول ندم ولما ينفعه الندم أي الى وقته ، فحصل من هذا ان نفي (لما) أبلغ من نفي (لم) لما قررناه والسبب في ذلك أن (لما) أُنْفَسُ في حروفها من (لم) فلا جَرَمَ حصلت المبالغة فيها من أجل ذلك

الحالة الثانية أن تكون داخلة لنفي الحال وهي (ما) فتقول ما يفعل زيدٌ ، وما زيد منطلقاً ومنطلقٌ ، فالرفع لغة بني تميم ، والنصب في الخبر لغة أهل الحجاز ، وهي في جميع مداخِلها لنفي الحال سواء كان دخولها على الفعل ، أو على الاسم رافعةً للخبر أو ناصبةً له ، ومصدّقٌ ككونها واردةً في أصل وضعها لنفي الحال ، امتناع قولنا : **إِنْ تَكْرَمْنِي مَا أُكْرِمُكَ** ، لأن الشرط للاستقبال ، فلو كانت لنفي المستقبل لجاز ذلك كما جاز في نحو **لِنْ أُكْرِمُكَ إِنْ أَكْرَمْتَنِي** لما كانت مطابقة للشرط في صلاحية الاستقبال ، فإن وردت لنفي المستقبل فانما هي على المجاز ، والحقيقة ما ذكرناه من نفي الحال ،

واستغراق الكلام في أسرارها انما يليق بالمقاصد الاعرابية وفيما ذكرناه غنيّة فيما نريده ههنا

الحالة الثالثة (لا) و (لن) وهما موضوعان لنفي الأزمنة المستقبلية ، فإن استعملتا في غير الأزمنة فإنما يكون على جهة المجاز والاستعارة ، فيشتركان جميعاً في كونهما دالتين على النفي مطلقاً ، وفي كونهما لنفي الأزمنة المستقبلية ، وهذا لا يقع فيه خلاف بين أئمة الأدب من أهل اللغة والنحاة في وضعهما حقيقةً لما ذكرناه ، وإنما يفترقان من جهة أن (لن) أكد من (لا) في نفي المستقبل مطلقاً ، قال الزمخشري فيما عملته في مفضّله و (لن) للنفي لتأكيد ما يُعطيه (لا) من نفي المستقبل ، وأراد بما قاله أن (لن) في النفي مرشدةٌ الى التأكيد ، وأن نفيها أبلغ من نفي (لا) ولهذا جاءت على أنها معطيةٌ لما أعطته (لا) مع زيادة بلاغة في تلك الفائدة التي أدّتها (لا) ويقوّى ما ذكره الشيخ من طرق ثلاثة

الطريق الأول قوله تعالى في آية (لا تدركه الأبصار) فنفي الإدراك عن ذاته على جهة العموم في الأزمنة المستقبلية ، فلما أراد المبالغة في النفي بأبلغ من ذلك قال : جواباً لسؤال موسى حيث قال (ربّ أرني أنظر اليك قال لن تراني) فأتى

بالجواب على جهة المبالغة بقطع الرجاء وحسناً لمادّة الطمع والتشوّق الى ذلك لأحد، ويؤيد كونه وارداً على جهة المبالغة، هو أنه عقبه بالتعليق على أمر محال حيث قال (ولكن انظر الى الجبل) الآية فتعيقه بالمحال عقيب ما قرّره من المبالغة بالنفي فيه دلالة قاطعة على ما ذكرناه من مقالة الشيخ بلا مريّة

الطريق الثاني قوله تعالى في آية (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين) ثم قال (ولا يتمنّونه أبداً فجاء في الجواب ههنا بلا، وقال في آية أخرى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين) ثم قال في هذه الآية (ولن يتمنّوه أبداً) فجاء في الأولى (بلا) وجاء في الثانية (بلن) لأنه لما لوحظ في الثانية معنى البلاغة من جهة أنه أكّده، بلكم، على جهة الملك والاختصاص من بين سائر الناس ووصف الدار بكونها آخرةً مبالغةً في أمرها وإيضاحاً لشأنها، وقرّره بقوله (عند الله) إيضاحاً للأمر أيضاً ثم قال (خالصة) يعني مختصين بها دون غيركم، وهكذا قوله (من دون الناس) فيه

نهاية الاختصاص ، فلما حصل تأكيد هذا الخطاب بهذه الأنواع من التوكيد ، أتى بالنفي (بَلَنْ) لما بالغ في إتيانه بالغ في نفيه (بَلَنْ) وهذا كله دال على كونها موضوعة للمبالغة

الطريق الثالث هو أنه بالغ في ما نفى (بَلَنْ) بأن أكد بقوله (أبدأ) وفي هذا أعظم دلالة على أن وضعها للمبالغة في النفي ، فهذه الطرق الثلاث كلها مقررة لما ذكره الشيخ من أن (لَنْ) لتأكيد ما تُعطيه (لا) من نفي المستقبل ، فأما ابن الخطيب أبو المكارم صاحب التبيان فقد يتلکأ في قبول ما ذكرناه ، وزعم أن الأمر على العكس مما أوردناه ، وأن النفي (بلا) أكد من النفي (بَلَنْ) وقال : إن الزمخشري إنما ذهب إلى هذه المقالة بناء على مذهبه في الاعتزال ، من نفي الرؤية واستحالتها على الله تعالى ، وهذا خطأ منه ، فإننا قد دللنا على كون (لَنْ) دالة على مبالغة النفي بها في الأزمنة المستقبلية ، ومن العجب أنه قال : إنما صار الزمخشري إلى ما حكيناه عنه لأجل الاعتزال ، فليس الأمر كما زعمه ، وإنما صار إليه للدليل الواضح من جهة نص الأدباء واستعمال أهل اللغة على ذلك ، ومما يؤيد ما ذكرناه ويوضحه هو أن الله تعالى لما نفى (بلا) إدراك الإبصار عن ذاته بقوله

تعالى (لا تدركه الأبصار) اى المبصرون بالأبصار على جهة العموم والاستغراق فى الأزمنة المستقبلية من غير مبالغة هناك وقال رداً لسؤال موسى حيث قال (أرنى أنظر اليك قال لن ترانى) فجاء بهذه اللفظة قطعاً لطمع الرؤية وإحالة لها بكونه أجابه بما يفيد الاستغراق والتأيد ، واستقصاء الكلام فى استحالة الرؤية من الادلة النقلية يليق بالعلوم الدينية وقد أشرنا اليها فى كتاب النهاية وبالله التوفيق

﴿ الصورة الخامسة ﴾

(لو) ووضعها فى الشرط للماضى كما كانت (إن) شرطاً فى المستقبل خلافاً للفراء فإنه زعم أنها شرطٌ فى المستقبل كإِن ، وتطلبُ فعلين تعلقَ الثانى منهما بالأول تعليقَ المسببِ بالسبب ، فإن كانا منفيين لفظاً فهما مثبتان من جهة المعنى ، وإن كانا مثبتين لفظاً فهما منفيان من جهة المعنى ، وإن كان الأول مثبتاً والثانى منفيًا ، أو بالعكس فهما فى المعنى على المناقضة من لفظهما : لا يقال : فاذا كان الأمر كما قلموه فى (لو) فكيف يمكن تزييل الحديث النبوى الوارد فى حق (صهيب) فى قوله عليه السلام (نِعَمَ العبدُ صهيبٌ لو لم يخفِ

الله لم يعصه) فانه إذا كان الأمرُ على ما قررتموه في (لو) كان حاصله أنه خاف الله فعصاه ، وهذا يفيد أن يكون الخوف سبباً في المعصية ، والحقيقةُ على خلاف ذلك : لأننا نقول : أمّا القانون المعتبرُ في (لو) والجاري على الاطراد فهو ما ذكرناه ، فإذا ورد ما يخالفه ، وجب تأويله على ما يوافق مجراه وله تأويلات ثلاثة ، التأويلُ الأولُ أن جريها على ما ذكرناه من الأوجه الأربعة هو المطرد لكن قد يعرض من ذلك بسبب القرائن ما يوجب كون النفي باقياً على حاله من إفادته للنفي ، وللقرائن تأثير عظيم في تغيير الألفاظ في العموم ، والخصوص ، والحقائق ، والمجازات ، وعلى هذا يكون المعنى في الخبر أن الله تعالى خصه بطهارة في باطنه وقوة في عزمته بحيث إنه لو انتفى الخوف عن قلبه فإنه لا يلبس معصية ، فكيف به وقد حصل في أرفع مكان من الخوف وأعلاه ، وعلى هذا يكون النفي على حاله من غير تقرير كونه ثابتاً من أجل القرينة وهذا كقوله تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحرُ يمُدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلماتُ الله) فظاهر الآية دالٌّ على ثبوت النفاذ لكلمات الله تعالى لأنه منفي في ضمن (لو) فلهذا لم يكن بدُّ من بقائه

على حاله لأجل القرينة كما ذكرناه في مسألة صهيب ، والله اعلم
التأويل الثاني أن (لو) وضعها للتقدير ، والتقدير هو أن
يعطى الموجود معنى المعدوم أو المعدوم معنى الموجود كما في قوله
تعالى (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) فإنه قدر وجود
الآلهة ثم رتب على وجودهم الفساد ، فإذا تمهدت هذه القاعدة
فاعلم انه قد يؤتى بها لقصد الإثبات للحكم على تقدير لا
يناسب الحكم ليفيد ثبوت الحكم على خلاف الذي فيه
مناسبة ويكون ذلك من طريق الأولى ، فيعلم ثبوت الحكم
مطلقا ، فيجب تنزيل مسألة (صهيب) على هذا ، فإنه إذا
لم يخف الله لم يصدُر منه عصيان ، لما أعطاه الله تعالى من
تزكية النفس ، وطهارة القلب ، فكيف به وقد استمسك
بالعروة الوثقى من الخوف ، فعلى هذا يكون انتفاء العصيان
أولى وأحق ، ومثاله قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً
لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون) فعلى هذا يجب
تنزيل معنى الآية على ما قررناه من قبل ، فيكون التقدير
فيها لو فهمهم الله تعالى لما أجدى في حقهم التفهيم ، لما
اختصوا به من التمرّد والعناد فكيف حالهم وقد سلبهم القوة
الفاهمة ، فيكون مع هذا أبلغ في انتفاء الفهم وأدخل في

عدم القبول والهداية لا محالة ، وتقول لألْزَمَنَّ صَحْبَتَكَ ولو
أَقْصَيْتَنِي وَلَا تُشْكِرَنَّكَ ولو لم تعطني ، الى غير ذلك من
الأمثلة ، وكقول امرئ القيس

فقلتُ يمينَ اللهِ أبرحُ قاعدا

ولو قطعوا رأسي لديكِ وأوصالي

فإذا كان ملازماً لها مع تقطيع الأوصال فملازمتها مع
المحبة والألفة تكون أدخل لا محالة ، وهذه الواو هي المٌطلعة
على هذه الأسرار ، فاذا قُدِّرَ زوالها زالت البلاغة ، وكقول زهير
ومن هابَ أسبابَ المنايا يَلْنَةُ

ولو رام أسباب السماء بِسَلْمٍ

والمعنى في هذا أن كل من كان هائباً لأن تناله المنايا
في غاية البعد عنها ، فهي لا محالة واقعةٌ به ومُصِيبَةٌ له ،
فكيف حال من لا يدخل في قلبه هيبةٌ لها ، هي في الإِصابة
له أدخلٌ وأقربٌ الى هلاكه وأسرعُ

التأويل الثالث أن تكون (لو) في بابها بمنزلة إن

الشرطية كما قاله الفراء ، وعلى هذا يكون دخول حرف النفي
مفيداً لمعناه من النفي من غير قلب له كما كان ذلك في إن

الشرطية من غير فرق بينهما ، وعلى هذا يكون معناه أنه إن لم يخف الله فلا يعصيه بحال كما تقول إن لم تُكرمني لم أكرمك فالأكرامان منفيان ، وعلى هذا يكون الخوفُ منفيًا والعصيانُ مثله في النفي أيضاً ، والتأويلان الأولان عليهما يكون التعويلُ ، لأن (لو) شرط فيما مضى بخلاف إن ، خلافاً لما زعمه الفراء ، وقد قررنا معناها في الكتب الاعرابية

(الصورة السادسة) ما ، وإيّا ، اعلم أن (ما) و (إيّا) إذا تركبا في الكلام فانهما يفيدان الحصر لامحالة ، إيّا في الاسماء ، وإيّا في الصفات ، فهذان وجهان ، الوجه الأول الحصر في الاسماء ، إيّا في الفاعل كقولك ما ضرب عمرًا الا زيد ، فالعنى في هذا أنه لا ضاربَ لعمر و الا زيد ، وإيّا في المفعول كقولك ، ما ضرب زيد الا عمرًا ، فالعنى فيه أنه لا مضروب لزيد الا عمرو ، ولو قلت ما ضرب الا عمرًا زيد ، كانا سواء ، لأن الغرض هو حصر المفعول ، وهو ما يلي (إيّا) سواء تقدم الفاعل أو تأخر عن المفعول ، ومما جاء في حصر الفاعل قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فالعنى أنه لا خاشيَ لله الا هم ، وأنهم هم المستبدون بمراقبة الله تعالى وتعظيم شأنه من بين سائر الخلق ، ولو كان الحصر واقعاً في

المفعول لانعكس المعنى ، فلو قال إنما يخشى العلماء الله ،
لكان تقديره ما يخشى العلماء الا الله ، وعلى هذا يكون
الحصر في المخشي لا في الخاشي ويفيد أن المخشي هو الله دون
غيره ، وعند هذا لا يمتنع أن يُشارك العلماء غيرهم في خشية
الله ، فعلى المعنى الأول الخشية محصورة في العلماء ، وعلى
المعنى الثانى الله المخشي دون غيره ، ومع هذا يكون مخشيًا
للعلماء ولغيرهم ، وسرُّ التفرقة بين المعنيين إنما يحصل من جهة
ما ذكرناه من انحصار الفاعل ، والمفعول بعد (الآ) كما
قرّرناه ، وإنما كان الحصر مختصاً بالآ ، ولم يكن حاصلًا
قبلها ، لأن الحصر من أثر (إلّا) وأثرُ الحرف لا يحصل
الآ بعده ، ولا يكون حاصلًا قبله ، الوجه الثانى الحصرُ في
الصفات ، أمّا حصر الاسماء عليها ، فكقولك : ما زيد الآ
قائمًا ، فإنك نفيت أن يكون زيدٌ على صفة من الصفات
الآ صفة القيام ، وأمّا حصرها على الاسماء فكقولك : ما قائم
الا زيد ، فإنك نفيت أن يكون القيام لأحد الآ لزيد ،
فالحصرُ إنما يتناول ما بعد (الآ) كما قرّرناه ، فعلى هذا
يكون اعتبار المسائل في الأسماء والصفات في الحصر ، فإن
قال قائل هل يكون قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن)

من باب التقديم والتأخير ، أو يكون من باب الحصر ، فإن كان من باب الحصر فليس هنا ما يوجب الحصر ويقتضيه من الأحرف التي تدلُّ عليه ، وإن جعلتموه من باب التقديم والتأخير ، فأظهروا التفرقة بين المعاني في التقديم والتأخير ، والجوابُ أمّا الحصرُ فلا مدخل له ههنا ، لفقد ما يكون دالاً على الحصر من أحرف المعاني وهي ، انما ، وما ، والا ، وإذا بطل أن تكون الآية من باب الحصر وجب جعلها من باب التقديم والتأخير وعلى هذا يكون لها في الإعراب تفسيران ، ويكون المعنى فيها تابعاً للإعراب كما نوضحه

التفسيرُ الأول أن يكون الجعل من باب التصيير كقوله تعالى (وهو الذي جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً) وهو كثيرُ الدُّور والاستعمال في كتاب الله تعالى ، وعلى هذا يكون له مفعولان ، فالمفعولُ الأول هو الشركاء ، والثاني هو الظرف ، وهو قوله (لله) وعلى هذا يكون الإِنكار متوجهاً على أن يكون لله تعالى شركاء على الإطلاق ، ويكون انتصاب (الجن) على اضمار فعل محذوف ، كأنه قيل فمن جعلوا لله شركاء ، قيل جعلوا الجن ، فالأولى جملة على حيالها ،

والثانية جملة على حيالها ، وعلى هذا لا يكون فيه تقديم ولا تأخير بالإضافة الى الجن والشركاء ، لانقطاع أحدهما عن الآخر كما ترى ، نعم يمكن تقدير التقديم والتأخير بالإضافة الى الظرف نفسه ، فيقال : هل من فرق بين تقديم الظرف على الشركاء وتأخيره ، والذي يمكن من التفرقة فيه هو أن يقال : إن الظرف اذا كان متقدما كما في نظم الآية وسياقها ، فإنّ الإنكار متوجهٌ من الله حيث جعلوا له شريكا مع أن فيه دلالةً على أنهم لم يجعلوا لغيره شركاء ، بخلاف ما لو قال : وجعلوا شركاء لله ، فإن الإنكار حاصلٌ فيه ، لكن ليس فيه دلالةٌ على أنهم ما جعلوا لغيره شركاء ، ونظير ذلك قولك : ما أمرتك بهذا ، وما بهذا أمرتك ، فإنك اذا أخرت الظرف كان حاصله نفي الأمر عن نفسك من غير أن يكون فيه دلالةٌ على أنك أمرته بشيء آخر ، بخلاف ما اذا قلت : ما بهذا أمرتك ، فإنه كما هو دال على نفي الأمر عن نفسك ، فإنه دال على أنك قد أمرته بشيء آخر ، وهكذا تكون الآية كما قررتها

التفسير الثاني أن يكون المفعول الأول لجعل ، هو الجن ، والمفعول الثاني هو الشركاء ، وعلى هذا يكون الظرف

ليس بعمد ويكون متعلقا بشركاء ومن ههنا يظهر سرُّ التفرقة بين التفسيرين ، فأنت على التفسير الأول يظهر لك أن الإينكار إنما توجه عليهم من جهة إضافة الشركاء الى الله تعالى على جهة الإيطلاق ، سواء كان من جهة الجن ، أو من جهة غيرهم ، لأن المعنى أنه لا شريك لله في الإلهية ، لا من الجن ، ولا من غير الجن ، بخلاف المعنى الثاني ، فإن الإينكار إنما كان متوجها من جهة مشاركة الجن لا غير ، ولا شك أن الإيطلاق مخالف للتقييد ، وعلى هذا يكون التفسير الأول أخلق بالآية وأدل على المبالغة من التفسير الثاني ، وبما ذكرناه تدرك التفرقة بينهما ، ولقد كان إيراد هذه الآية حقيقا بفصل التقديم والتأخير لكونها منه وأخص به ، والذي جرَّ من إيردها ههنا هو ما عرض فيها من الإشكال ، هل هي من باب الحصر ، أو من باب التقديم والتأخير ، فقس على هذا ما يرد عليك من أسرار النظم ، فإن تحته أسراراً جمّة ، ونكتاً غزيرة ، تنبّهك على كثير من الفوائد ، وتطلعك على المناظم والمعاهد ، هذا إذا لحظت من الله بتوفيق ، يهدي الى كل طريق من الخير والتحقيق

الصورة السابعة بيان فوائد (إِنَّ) وجعلتها أربع
الفائدة الأولى أنها كما أشرنا إليه تربطُ الجملةَ الثانيةَ
بالأولى ، وبسببها يحصلُ التأليفُ بينهما ، حتى كأنَّ
الكلامين قد أفرغاً إفراغاً واحداً ، ولو أسقطتها ظهر التنافرُ
بينهما وبطلت الملازمة ، وهذا كقوله تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
مَقَامٍ أَمِينٍ) بعد قوله (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ) فلو
قال : فالمتقون في مقام أمينٍ ، كان من حسن النظام بمعزل
الفائدة الثانية أنَّ لضمير الشأن والقصة معها من حسن
الموقع ، وجودة النظام ، ورشاقة التأليف ، ما لا يمكن وصفه ،
وهذا كقوله تعالى (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ) وقوله تعالى (إِنَّهُ
مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) وقوله تعالى (إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا
بِجَهَالَةٍ) وقوله تعالى (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)
الفائدة الثالثة أنها تهيبُ النكرةَ وتجعلها سالحةً لأنَّ
يُحَدِّثُ عَنْهَا وَهَذَا كَقَوْلِهِ

إِنَّ دَهْرًا يَضُمُّ شَمْلِي بِسُمْدِي
لِزْمَانٍ يَهْمُ بِالْإِحْسَانِ

وكقوله

إِنَّ شَوَاءَ وَنَشْوَةَ وَخَبَبَ الْبَازِلِ الْأُمُونِ

وسرُّ ذلك هو أنها لما كانت موضوعة لتأكيد الجملة
الابتدائية لا جرمَ اغتفر دخولها على النكرات وهيأتها
للحديث عنها كما ذكرناه

الفائدة الرابعة هو أنها اذا دخلت على الجملة الابتدائية
فقد يجوز الاقتصار على الاسم دون الخبر وهذا كقوله
إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلًّا وَإِنَّ فِي السَّفَرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلًا
وهذا إنما يكون حيث يكون الخبرُ معمولاً مدلولاً
عليه بالقرينة ، لأن المعنى إِنْ لَنَا مَحَلًّا فِي الدُّنْيَا وَإِنْ لَنَا مُرْتَحَلًّا
إِلَى الآخِرَةِ ، فهذا ما أردنا ذكره من هذه الصور الخارجة
عن الضوابط ، وبتمامه يتم الكلام في الفصل العاشر من الباب
الثاني من فن المقاصد ، وهو الكلام في الدلائل الإفرادية
وبالله التوفيق

الباب الثالث

(في مراعاة أحوال التأليف وبيان ظهور المعاني المركبة)

اعلم ان جميع ما أسلفناه إنما هو كلامٌ في الأمور
الإفرادية إلا أن يعرض عارضٌ فيجربى في الأمور المركبة ،
والذي نذكره الآن إنما هو كلامٌ في الأمور المركبة ، إلا

أن يعرض ما يوجب الإفراد ، وقبل الخوض فيما نريده من ذلك نذكر تمهيداً لما نريد ذكره من بعد ، وينبئ على قواعد ثلاث

(القاعدة الأولى)

يجب على الناظم والناثر فيما يقصد من أساليب الكلام مراعاة ما يقتضيه علم النحو أصوله وفروعه من تعريف المبتدأ وتقديمه وجوباً ، إذا كان استفهاماً ، أو شرطاً ، وجوازاً في غير ذلك ، ومراعاة تنكير الخبر ، وتقديمه إذا كان المبتدأ نكرة ، وأن يُراعى في الشرط والجزاء ، كون الجملة الأولى فعلية وجوباً ، والثانية بالفاء إذا كانت جملة اسمية ، أو فعلية إنشائية ، كالأمر والنهي ، أو خبرية ماضية ، وأن يأتي بالواو في الجملة الاسمية إذا وقعت حالاً ، وتحذف مع المضارع المثبت ، وأن يضع كل حرف لما يقتضيه معناه بالأصالة ، فيأتي (بما) لنفي الحال و (بلا) لنفي الاستقبال و (بإن) الشرطية في المواضع المحتملة المشكوك فيها و (باذا) في المواضع الصريحة و (بإذ) لما مضى وينظر في الجمل ، وما يجب من مراعاة عود الضمير فيها وما لا يجب ، ويتصرف في التعريف والتكثير ، والتقديم

والتأخير ، والإيضاار والإظهار ، ومواضع الاتصال والانفصال
فى الضماثر ، وتعلقات الحروف الى غير ذلك مما توجهه صناعة
علم الاعراب ، ويوجهه حكمه

(القاعدة الثانية)

يجب عليها مراعاة ما يقتضيه اللفظ من الحقيقة والمجاز
واعلم أن المجاز يدخل دخولا أوليا ، وله مدخل عظيم ، وهو
أحق بالاستعمال فى باب الفصاحة والبلاغة ، وقد شرحنا
قوانينه فيما سبق فأغنى ذلك عن الإعادة ، والذي نريد ذكره
هنا هو أن فائدة الكلام الخطابى إنما يكون لإثبات الغرض
المقصود فى نفس السامع ، وتمكّنه فى نفسه على جهة التخيل
والتصور ، حتى يكاد ينظر اليه عيانا ، وبيان ذلك أنا إذا قلنا
زيد أسد ، فإنه يفيد فائدة قولنا زيد شجاع ، لكن التفرقة
بين القولين فى التصور والتخيل ظاهرة ، فإن قولنا : زيد
شجاع ، لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرىء فى
الحروب ، مقدام على الأبطال ، وإذا قلنا ، زيد أسد ، فإنه
يتخيل عند ذلك صورة الأسد وهيئته وما هو متصف به من
الشجاعة والبطش ، والقوة والاستطالة على كل حيوان ،

واختصاصه بدقّ الفرائس وهضمها، وهذا لا نزاع فيه ،
ومما يوضح ما ذكرناه هو أن العبارة المجازية تكسب الإنسان
عند سماعها هزةً وتُحرِّكُ النشاط، وتُمَايلُ الأعطاف ، ولأجل
ذلك يُقدِّمُ الجبانُ ، ويسخو البخيلُ ، ويحلّم الطائشُ ، ويبدل
الكريم نهايةَ البذل ، ويجدُ المخاطبُ بها نشوةً كنشوة الخمر ،
حتى إذا قطع ذلك الكلامُ أفاقَ من تلك السكرة ، وهبَّ
من سِنَّةِ تيك النومة ، وندِمَ على ما كان منه من بذل مال ،
أو ترك عقوبة ، أو إقدام على أمر هائل ، وهذه هي فائدة
سحر لسان الفصيح اللوذعيّ ، المستغنى عن إلقاء الجبال
والعصىّ ، ومصدقُ هذه المقالة قوله صلى الله عليه وسلم : إنَّ
من البيان لسحراً ، يُشير به الى ما قلناه ، فهذه هي فائدةُ
المجاز ، نعم إذا ورد كلامٌ يكون محتملاً للحقيقة والمجاز جميعاً
في موارد الشريعة ، كان حملُه على حقيقته أحقَّ من حمله على
مجازه ، لأنها هي الأصل ، والمجاز فرعٌ ، وقد قررنا هذا
المأخذ في الكتب الأصولية ، وهما ما يتعلق بعلوم البلاغة

(القاعدة الثالثة)

يجب مراعاة أحوال التأليف بين الألفاظ المفردة ،

والجمل المركبة ، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة آخذاً بعضها
بأعناق بعض ، وعند ذلك يقوى الارتباطُ ويصفو جوهرُ
نظام التأليف ، ويصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص
المتلائم الاجزاء ، أو كالعقد من الدرّ فصلّت أسماطه بالجواهر
واللآلئ ، فخلص على أتم تأليف ، وأرشق نظام ، ولنضرب
في ذلك مثالين

(المثال الأول) في المدح وهذا كقول البحري

بلونا ضرائب من قد مضى فما إن رأينا لفتح ضريباً
هو المرء أبدت له الحادثاً ت عزمًا وشيكًا ورأيًا صليباً
تنقل في خلقى سوؤدٍ سماحاً مرجى وبأساً مهيباً
فكالسيف إن جثته صارخاً وكالبحر إن جثته مستشيباً

فانظر إلى إجادته في تأليف هذه الكلمات التي صارت
كالأصباغ التي يعمل منها النقوش ، فما أحسن موقع قوله
هو المرء ، كأنه قال (فتح) هو الرجل الكامل في الرجولية ،
ثم تأمل الى تنكيره السؤدد وإضافة الخلقين اليه ، ثم عقبه
بقوله : فكالسيف ، فلقد أجاد في التشبيه وأحسن في صوغه
(وليس كل آذان تسمع القيل) فليس إذا راق التنكير في

موضعٍ يرُوق في كلِّ موضع ، بل ذاك على حسب الانتظام
وما أخذ السياق يفوق ويزداد إعجاباً وحسنًا ، فأنت اذا فكرت
في هذه الأبيات وجدتها قد اشتملت على نهاية المدح مع
ما حازته من جودة السبك وحسن الرصف في أسهل مأخذٍ
وأعجبه ، وهكذا يكون الإعجابُ في القلة والكثرة بحسب
ما ذكرناه

(المثال الثاني) في الـذمّ وهذا كقول الشاعر

قومٌ اذا استنبَح الأضيافُ كلبَهُمُ

قالوا لأُمَّهمُ بُولى على النارِ

(١) فتأليف هذا البيت مشتمل على نهاية الهجاء حتى

لا تكاد لفظه من ألفاظه إلا ولها حظٌّ في الـذمّ والنقص لهؤلاء ،
فقوله (قوم) هو مخصوص بالرجال ، وفيه دلالة على أنهم أعرابٌ

(١) فتأليف الى آخر ما قال في بيان وجوه الـذم فيه . عبارة

سخيفة وهالك عبارة الاصمعي . قال هذا البيت أهجى بيت قالته
العرب . لانه جمع ضرورياً من الهجاء . نسبهم الى البخل لكونهم
يطفئون نارهم مخافة الضيفان . وكونهم يبخلون بالماء فيعوضون
عنه البول . وكونهم يبخلون بالحطب فنارهم ضعيفة تطفئها بولة .
وكون البولة بولة عجوز . وهي أقل من بولة الشابة . ووصفهم بامتهان
أمهم . وذلك للؤمهم .

جُفَاءً لَيْسَ لَهُمْ ثُرُوءٌ وَلَا تَمَكَّنُ فَلَإِي لَفُونٌ شَيْئًا مِنْ مَكَارِمِ
الْأَخْلَاقِ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى (بَاذًا) الَّتِي تُؤْذَنُ بِالشَّرْطِ الْمُؤَقَّتِ
الْمَعِينِ ، لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْأَضْيَافَ لَا يَمْتَادُونَهُمْ إِلَّا فِي الْأَوْقَاتِ
الْقَلِيلَةِ ، ثُمَّ إِنَّهُ عَقِبَهُ بِسِينِ الْاسْتِفْعَالِ لِتَوْذِنِ أَنْ كَلْبَهُمْ لَيْسَ
مِنْ عَادَتِهِ النَّبَاحِ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ مِنْهُ ذَلِكَ عَلَى جِهَةِ النَّدْرَةِ لِإِنْكَارِهِ
لِلضَّيْفِ ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِمْ ، ثُمَّ جَاءَ بِالْأَضْيَافِ عَلَى جَمْعِ الْقَلَّةِ ،
لَمَّا كَانُوا لَا يَقْصِدُهُمْ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ ، ثُمَّ عَرَّفَهُ بِاللَّامِ إِشَارَةً إِلَى
أَنَّهُمْ قَوْمٌ مَعْرُودُونَ لَا يَقْصِدُهُمْ كُلُّ أَحَدٍ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ أَيْضًا عَلَى
أَنَّهُمْ كَلْبُهُمْ لَا يَنْبَحُ إِلَّا بِالْإِسْتِنْبَاحِ لِهَزَالِهِ وَقَلَّةِ قُوَّتِهِ مِنَ الْجُوعِ
وَالضَّعْفِ ، ثُمَّ أَفْرَدَ الْكَلْبَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ سِوَاهُ
لِحَقَارَةِ الْحَالِ وَكَثْرَةِ الْفَقْرِ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَضَافَ الْكَلْبَ إِلَيْهِمْ
اسْتِحْقَارًا لِحَالِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى بِقَالُوا ، لِيَعْرِفَ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ
لَا خَادِمَ لَهُمْ يَقُومُ مَقَامَهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّهُمْ يَبَاشِرُونَ حَوَائِجَهُمْ
بِأَنْفُسِهِمْ ، ثُمَّ جَعَلَ الْقَوْلَ مِنْهُمْ مَبَاشَرَةً لِأَمِهِمْ ، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ
يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَخْلُفُهَا مِنْ خَادِمَةٍ وَغَيْرِهَا فِي إِطْفَاءِ النَّارِ ، فَأَقَامَ
أَمَّهُمْ مَقَامَ الْأُمَّةِ وَالْخَادِمَةِ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ لَهُمْ ، وَلَمْ يُشَرِّفْهَا
عَنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَائِلِينَ لَمَّا يَسْتَنَكِرُ مِنْ لَفْظِ الْبَوْلِ لِأَنَّ
ذَكَرَهُ يَشْعُرُ بِذِكْرِ مَخْرَجِهِ مِنَ الْعَمُورَةِ فِي حَقِّ الْأُمِّ فَلَمْ يَكُنْ

هناك حشمة لهم ولا مروءة في إضافة ما أضيف إليها من ذلك، ثم قال على النار، فيه دلالة على ضعف نارهم لقلّة زادهم، وأنه يطفئها بولة، وأنها إنما أمرت بذلك، كي لا يهتدى الأضياف اليهم ولا يعرفوا مكانهم، ثم أتى بلفظة على، ولم يقل فوق النار، ليدل بحرف الاستعلاء على أنها قصدت حقيقة الاستعلاء بالبول قائمة من غير مبالاة في التستر ولا مروءة في تغطية العورة، فقد وضح لك بما قررناه أن التأليف هو العمدة العظمى والقانون الأكبر في حسن المعاني وعظم شأنها ونخامة أمرها، ومن الأمثلة الرائقة ما يؤثر عن أمير المؤمنين فإله في أول خلافته: (ان الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشرّ، فخذوا منهج الخير تهتدوا، واصدقوا عن سبب الشرّ تقصدوا، الفرائض الفرائض، أدوها الى الله تؤدكم الى الجنة، إن الله تعالى حرّم حراماً غير مجهول، (١) وفضل حرمة المسلم على الحرّم كلها، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقبتها، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق، ولا يحلّ أذى المسلم الا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم وهو الموت فان الناس أمامكم

(١) سقط هنا قوله . وأحلّ حلالاً غير مدخول

وإن الساعة تخذوكم من خلفكم ، تخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر
بأولكم آخركم ، اتقوا الله في عباده وبلاده ، فإنكم مسؤولون
حتى عن البقاع والبهائم ، وأطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم
الخير فخذوا به ، ، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه) فلينظر الناظر
ما اشتمل عليه هذا الكلام من حسن التأليف وبديع
التصريف ، وليلاحظ ما تضمنه قوله ، تخففوا تلحقوا ، بعين
البصيرة وما اشتمل عليه من بلاغة المعاني وجزالة الالفاظ ،
وإنه لكلام من استوى على عرش البلاغة واستولى ، ودل
بالارشاد على مصالح الدين والدنيا ، فعليك بمراعاة جانب
التأليف فإنه القطب الذي تدور عليه أرحية البلاغة ، ولا
سبيل الى جذبته بزمامه ، والاستيلاء على كماله وتمامه ، الا
بعد إحراز فصول تكون محتوية على أسرارها ، ومستولية على
المقصود منه

— الفصل الاول —

(في ذكر الاطناب وبيان معناه)

اعلم أن الاطناب واد من أودية البلاغة ، ولا يرد الآ
في الكلام المؤلف ، ولا يختص بالمفردات ، لأن معناه

لا يحصل الآ في الأمور المركبة ، فمن أجل هذا خصصناه
بالإيراد في هذا الباب ، والاطنابُ مصدرُ أطنب في كلامه
إطناباً ، إذا بالغ فيه وطول ذيوله لافادة المعاني واشتقاقه من
قولهم: أطنب بالمكان اذا طال مقامه فيه ، وفرس مطنب (١)
اذا طال متنه ، ومن أجل ذلك سُمي حبل الخيمة طنباً لطوله ،
وهو تقيض الإيجاز في الكلام ، فلنذكر ماهيته والتفرقة بينه
وبين التطويل ، ثم نذكر أقسامه ، ثم نردفه بذكر الأمثلة
فيه ، فهذه مباحث ثلاثة تفصلها بعمونة الله تعالى

﴿ البحث الاول ﴾

(في ماهيته والتفرقة بينه وبين التطويل)

ومعناه في لسان علماء البيان هو زيادة اللفظ على المعنى
لفائدة جديدة من غير تريد فقولنا: هو زيادة اللفظ على المعنى ،
عامٌ في الإطناب ، وفي الألفاظ المترادفة كقولنا : ليثٌ
وأسدٌ ، فإنه كله من باب زيادة اللفظ على معناه ، وقولنا لفائدة ،
يخرج عنه التطويل ، فإنه زيادة من غير فائدة ، وقولنا جديدة ،

(١) صوابه وفرس أطنب . وصفا من طب الفرس . كطرب

تخرج عنه الالفاظ المترادفة ، فإنها زيادة في اللفظ على المعنى لفائدة لغوية ، ولكنها ليست جديدة ، وقولنا من غير ترديد ، يحترز به عن التواكيد اللفظية كقولنا : اضرب اضرب ، فانها زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة ، وهو التأكيد ، لكنه ترديد اللفظ وتكريره ، بخلاف الإطناب فانه خارجٌ عن التأكيد ، فوضح بما ذكرناه شرح ما هيّة الإطناب بهذه القيود التي أشرنا إليها ، فصارت الأمور التي يُلبس بها الإطنابُ ثلاثة ، التطويل ، وهو مزيد من غير فائدة ، والتكرير ، والترادف ، وقد خرج التكرير بقيد التردد ، وخرج المترادف بقيد الفائدة الجديدة ، وخلص باعتبار هذه القيود عن غيره من سائر الحقائق ، فكان حاصل الإطناب الاشتداد في المبالغة في المعاني ، أخذاً من قولهم : أطنبت الريح ، اذا اشتد هبوبها ، وأطنب الرجلُ في سيره ، إذا اشتد فيه ، وهو غير مناقض لما ذكرناه في اشتقاقه في صدر الباب

(وأما) التفرقة بينه وبين التطويل فاعلم أن علماء البيان لهم في ذلك مذهبان ، المذهب الاول أن الإطناب هو التطويل ، وهذا هو المحكيُّ عن أبي هلال العسكري ، وعن

الغانمي أيضاً ، وقالوا : ان كتب الفتوح والتقاليد كلها ينبغي أن تكون مطوّلة كثيرة الاطناب ، لأنها مما يقرأ على عوام الناس لا فتقارها الى البيان ، فكلامهما يقضى بأنه لا تفرقة بين الإطناب والتطويل ، المذهب الثاني أنهما يفترقان فان الإطناب يذكر لفائدة عظيمة بخلاف التطويل ، فإنه لا فائدة وراءه ، وهذا هو الذي عليه الأكثر من علماء البلاغة ، واليه يشير كلام ابن الأثير وهذا هو المختار ، ويدل على ما قلناه من التفرقة بينهما ، هو أن الإطناب صفة محمودة في البلاغة ، بخلاف التطويل ، فإنه صفة مذمومة في الكلام ، وما ذاك إلا لأن الإطناب يحى من أجل الفائدة بخلاف التطويل ، فإنه يكون من غير فائدة ، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن ما يتوصل به الى البغية من معاني الكلام أمور ثلاثة ، الإيجاز ، والإطناب ، والتطويل ، فأما الإيجاز فهو دلالة اللفظ على معناه من غير نقصان فيخل ، ولا زيادة فيمِل ، وقد رمزنا الى أسرارها فيما سبق ، وأما التطويل والإطناب فهما متساويان في تأدية المعنى ، خلا أن الإطناب مختص بفائدة جديدة ، ولأجلها كان ممتازاً عن التطويل ، ومثال ما قلناه من ذلك كمن سلك لطلب مقصد من المقاصد ثلاث طرق فانها

كلها موصلةٌ الى ما يريد ، فأحدها أقربُ الطَّرُق ، وهو
نظير الإيجاز والطريقان الأخریان متساويتان في الإِطالة ،
وهما نظيرا الإِطناب والتطويل ، خلا أن أحدهما مختصٌّ إما
بمُتَنَزِّهٍ حَسَنٍ ، أو بِمَيَاهِ عَذْبَةٍ ، أو زيارة صديق أو غير ذلك
من الفوائد فهو نظير الإِطناب كما لخصناه ، وأصدقُ مثال في
الإيجاز ، والإِطناب ، والتطويل ، ما حكاه ابن الأثير وهو
أن المأمون لما وجّه طاهرَ بن الحسين في عسكر لحرب عيسى
ابن ماهانَ فقتله وهزم عسكره ، واستولى على جنده ثم كتب
اليه طاهر يخبره بذلك فقال : كتابي الى أمير المؤمنين ورأسُ
عيسى بن ماهان بين يدي وخاتمه في يدي ، وعسكره
مُتَصَرِّفٌ تحت أمري والسلام ، فهذا كتاب قد أوجز فيه غاية
الإيجاز وأتى فيه بالغرض المقصود من غير تطويل ولا إِطناب ،
لاشتماله على تفاصيل القصة وإجمالها ، وهو من أحسن أمثلة
الإيجاز ، وإن وجهته على جهة الإطناب فإنك لتشرح القصة
مفصلة وتودع التفاصيل زُبْدًا عظيمة من تعظيم المأمون وقوة
سلطانه ونهضة جُند الإسلام واستطاته على الكُفَّار من
أهل الردة ، لأن عيسى بن ماهان كان نصرانياً فيما قيل ،

ويُحكى صفة الواقعة وما كان مع فوائد عظيمة ونكت جمة ،
فما هذا حاله يكون إطناباً لاحتوائه على ما ذكرناه من الفوائد،
وإن حكاها بصفة التطويل العري عن الفوائد بان يقول
صدر الكتاب يوم كذا من مكان كذا في شهر كذا والتقى
عسكرنا وعسكره ، وتزاحف الجمعان ، وتطاعن الفريقان ،
وحجى القتال واشتدّ النزال مع تفاصيل كثيرة ثم قتل
عيسى بن ماهان واحترأ رأسه ونزع الخاتم من يده ، وترك
جسده طعاماً للطيور والسباع والذئاب وغير ذلك من تفاصيل
الوقعة ، فهذا يقال له التطويل من جهة أن تفاصيل الوقعة
خالية عن الفوائد الغزيرة التي يُحتاج الى مثلها فهذه هي أمثلة
الأُمور الثلاثة قد فصلناها ليحصل التمييز بينها

(البحث الثاني)

(في ذكر تقسيم الاطناب)

واعلم ان الإطناب قد يكون واقعاً في الجملة الواحدة ،
وقد يرد في الجمل المتعددة ، فهذان القسمان نذكر ما يتعلق
بكل واحدٍ منهما بمعونة الله تعالى

(القسم الأول)

ما يكون متعلقاً بالجملة الواحدة ، وتارة يردُّ على جهة الحقيقة
وتارة يردُّ على جهة المجاز ، فهذان وجهان

(الوجه الاول)

ما يرد من الإِطْناب على جهة الحقيقة وهذا كقولنا :
رأيتُه بعيني ، وقبضته بيدي ، ووطئته بقدمي وذقته بلساني
الى غير ذلك من تعليق هذه الأفعال بما ذكرناه من الأدوات
وقد يظنّ الظانّ أن التعليق بهذه الآلات انما هو لغو لا
حاجة اليه فإنّ تلك الأفعال لا تُفعل الا بها ، وليس الامر كما
ظنّ بل هذا انما يقال في كل شيء يعظم مناله ويعزّ الوصول
اليه ، فيؤتى بذكر هذه الادوات على جهة الاطناب دلالةً
على نيته ، وأن حصوله غير متعذر ، وعلى هذا ورد قوله تعالى
(ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ) وقوله تعالى (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ
بِأَلْسِنِكُمْ) لأن هذه الآيات انما وردت في شأن الإفك وفي
جعل الزوجات أمهات ، وفي جعل الأذعياء أبناءً ، فأعظم
الله الرّدّ والإِنكار في ذلك بقوله (وتقولون بأفواهكم) على
أهل الإفك في الرمي بفاحشة الزنا لمن هي ظاهرة العفاف

والسّر وبقوله (ذلكم قولكم بأفواهكم) على من قال لزوجته
هي عليه كظهر أمّه ، أو لمن قال لملوكه يا بنيّ فبالغ في الردّ
بهذه المقالة والنكير عليها عن أن تكون الزوجة أمّاً والعبد
ابنّاً وأنّ مثل هذا يكون محالاً ، وهو أن يُجمع بين الزوجية
والأُمومة وبين البنوة والعبودية ، ومن هذا قوله تعالى
(ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه) فقد علم ان القلب
لا يكون الا في الجوف ولكن الغرضُ المبالغةُ في الإنكار
بأن يكون للإنسان قلبان ، أكّد ذلك بقوله في جوفه ، ومن
هذا قوله تعالى (فخرّ عليهم السقفُ من فوقهم) فإنّ المعلوم من
حال السقف أنه لا يكون الا من فوق ، وإِنما الغرضُ المبالغةُ
في الترهيب والتخويف والإنكار والردّ كما أشار اليه بقوله
(قد مكرّ الذين من قبلهم فأتى الله بُنيانهم من القواعد)
يعنى بالخراب والهدم فخرّ عليهم السقف من فوقهم ، تشديداً
في الأمر ، وتهويلاً لهم ، واعظاماً لحاله وهكذا قوله تعالى
في سورة الحاقة (نَفْخَةٌ واحدةٌ ودَكَّةٌ واحدةٌ) فإنّ
التاء مؤذنةٌ بالوحدة ، ولكنه أتى بالصفة على جهة المبالغة
بالإطناب في نخامة الأمر وعظمه ، فأما قوله تعالى (ومناة
الثالثة الأخرى) فليس هذا من باب الإطناب بالتأكيد ،

وانما هو من أجل مراعاة سجع الآي ، فإنها من أول السورة
على الألف ، فلاجل هذا قال (الثالثة الأخرى) مراعاةً
لما ذكرناه

(الوجه الثاني)

فيما يرد على جهة المجاز في الإطناب ، وهذا كقوله تعالى
(فإنها لاتعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوب التي في
الصدور) فالفائدة بذكر الصدور ههنا وإن كانت القلوب
حاصلةً في الصدور على جهة الإطناب بذكر المجاز ، وبيانه
هو أنه لما علم وتَحَقَّق ان العمى على جهة الحقيقة إنما يكون
في البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يذهب نورها ويزيله ،
واستعماله في القلوب إنما يكون على جهة التجوز بالتشبيه ،
فلما أُريد ما هو على خلاف المتعارف من نسبة العمى الى
القلوب ونفيه عن الأبصار ، لا جرمَ احتاج الامر فيه الى
زيادة تصوير وتعريف ، ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب ،
لا الأبصارُ ، ولو قال فإنها لاتعمى الأبصارُ ولكنها تعمى
الأبصار التي في الصدور ، لكان مفتقراً الى ذكر الصدور ،
كافتقار القلوب ، لكن القلوبُ أُدخل في الحاجة ، ولهذا

وردت الآية عليه لانه قد يتجاوز بلفظة الأَبصار في العقول ،
ولا يتجاوز بالقلوب عن العقول فلاجل هذا كان ذكرُ قوله في
الصدور عقيب القلوب أحسن من ذكرها عقيب الأَبصار
لما ذكرناه ، وهذا من لطائف علم البيان ومحاسنه

(القسم الثاني)

في بيان ما يرد في الجمل المتعددة ، ويرد على صور
مختلفة ، وكلها وإن اختلفت فانها ترجع الى الضابط الذي
ذكرناه من قبل ، ونشيرُ منه ههنا الى ضروب أربعة ، وفيها
دلالة على غيرها بمعونة الله تعالى

(الضرب الأول) ما يكون عائداً الى النفي والإثبات ،

وحاصله راجعُ الى أن يُذكر الشيء على جهة النفي ، ثم يُذكر
على جهة الإثبات أو بالعكس من ذلك ، ولا بد أن يكون
في أحدهما زيادة فائدة ليست في الآخر يؤكد ذلك المعنى
المقصود ، والأ كان تكررأ ، ومثاله قوله تعالى (لا يَسْتَأْذِنُكَ
الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يُجاهدوا بأموالهم
وأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَليمٌ بِالْمُتَّقِينَ) ثم قال تعالى (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ
الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخرِ وارْتَابَتِ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي

رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) فالآية الثانية كالأية الأولى الآ في النفي
والاثبات ، فإن الأولى من جهة الإثبات ، والثانية من جهة
النفي ، فلا مخالفة بينهما إلا فيما ذكرناه ، خلا أن الثانية اختصت
بمزيد فائدة ، وهي قوله (وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم
يترددون) إعلاماً بحالهم في عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ،
وأنتهم في وجل وإشفاقٍ من تكذيبهم ، حيارى في ظلم
الجهل ، لا يخلصون إلى نور وهدى ، ولولا هذه الفائدة
لكان ذلك تكريراً ولم يكن من باب الإطناب ، ومن هذا
قوله تعالى (وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ
الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) فقوله : يعلمون . بعد قوله : لا يعلمون ،
من الباب الذي نحن بصدده ، ولهذا فانه نفي عنهم العلم بما
خفى عنهم من تحقيق وعده ثم أثبت لهم العلم بظاهر الحياة
الدنيا ، فكأنه قال : علموا ، وما علموا ، لأن العلم بظاهر
الأمور ليس علماً على الحقيقة ، وإنما العلم هو ما كان علماً
بطريق الآخرة ومؤدياً إلى الجنة ، فلولا اختصاص : قوله
يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون
لكان تكريراً لا فائدة تحته ، فلاجل ما ذكرناه عد من

الإِطْنَاب لاشْتِمَالِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْفَائِدَةِ الَّتِي لَخَصْنَاهَا
(الضرب الثاني) أَنْ يُصَدَّرَ الْكَلَامُ بِذِكْرِ الْمَعْنَى
الوَاحِدِ عَلَى الْكَمَالِ وَالْتِمَامِ ، ثُمَّ يُرَدَّفُ بِذِكْرِ التَّشْبِيهِ عَلَى جِهَةِ
الِإِيضَاحِ وَالْبَيَانِ وَمِثَالُهُ قَوْلُ أَبِي عِبَادَةَ الْبَحْتَرِيِّ
(ذَاتِ حَسَنِ لَوْ اسْتَزَادَتْ مِنَ الْحُسْنِ إِلَيْهِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدًا)
(فَهِيَ كَالشَّمْسِ بِهَجَةٍ وَالْقَضِيبِ اللَّسَدِ قَدًّا وَالرُّثْمِ طَرْفًا وَجِيدًا)
فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ كَانَ كَافِيًّا فِي إِفَادَةِ الْمَدْحِ ، وَبِالغَايَةِ
الْحُسْنِ ، لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ لَوْ اسْتَزَادَتْ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدًا ، دَخَلَ
تَحْتَهُ كُلُّ الْأَشْيَاءِ الْحَسَنَةِ ، خِلَافَ أَنْ لِلتَّشْبِيهِ مَزِيَّةً أُخْرَى تَفِيدُ
السَّمْعَ تَصَوُّرًا وَتَخْيِيلًا لَا تَحْصُلُ مِنَ الْمَدْحِ الْمَطْلُوقِ ، وَهَذَا
الضَّرْبُ لَهُ مَوْجِعٌ بَدِيعٌ فِي الْإِطْنَابِ وَهَكَذَا وَرَدَ قَوْلُهُ أَيْضًا
تَرَدَّدَ فِي خَلْقِي سُودِدِ * سَمَاحًا مُرَجِّيَّ وَبَأْسًا مَهِيْبًا
فَكَالسَيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا * وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَشِيْبًا
فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ دَالٌّ عَلَى نَهَايَةِ الْمَدْحِ ، لَكِنَّ الْبَيْتَ الثَّانِيَّ
مَوْضِعٌ وَمُبَيِّنٌ لِمَعْنَاهُ ، لِأَنَّ الْبَحْرَ لِلسَّمَاحِ ، وَالسَيْفَ لِلْبَأْسِ
الْمَهِيْبِ ، مَعَ اخْتِصَاصِهِ بِالتَّشْبِيهِ الْفَائِقِ الَّذِي يَكْسِبُ الْكَلَامَ
رَوْنَقًا وَجَمَالًا ، وَيَزِيدُهُ قُوَّةً وَكَمَالًا ، وَلَهُ وَقَعٌ فِي الْبَلَاغَةِ

وتأكيد في المعنى ، والتفرقة بين هذا الضرب وما قبله ظاهرة
لا خفاء بها ، فان هذا واردٌ على جهة التشبيه بعد تقدم
ما يرشد الى المعنى ويقويه ، بخلاف الضرب الأول ، فإن
الإطناب فيه من جهة المفهوم المعنوي ، وبيانه هو أنه لما قال
في الآية الأولى (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر
أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم) أشعرَ ظاهرُها من جهة المفهوم
أن غير هؤلاء بخلافهم ، وأنهم المخصوصون بالاذن ، فاذا قال
بعد ذلك (إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر)
كان هذا مؤكداً لمفهوم الآية الأولى موضعاً له ، مع ما أفاد
من تلك الفائدة التي ذكرناها ، وهو اختصاصهم بالريب
والوجل والتردد والحيرة ، وهكذا الكلام في الآية الثانية
فانه لما قال ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فنفي نفيًا عامًا
أشعرَ ظاهرُه أنهم غيرُ عالمين بعلم الدين ، وحقائق علم الآخرة ،
ومفهومها أن معهم علماء من ظاهر الدنيا ، فاذا قال بعد ذلك
(يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) كان إطناباً لمفهومها مؤكداً
مع زيادة فائدة فيه ، وهو غفلتهم عن أمور الآخرة واعراضهم
عنها ، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن الإطناب في الضرب

الأول إنما يظهر من جهة ما ذكرناه من المعنى المفهوم ، وان
الاطناب في الضرب الثاني إنما يظهر من جهة اللفظ بإيراد
التشبيه للإيضاح والتقرير كما أشرنا إليه

(الضرب الثالث) أن يذكر الموصوف فيؤتى في ذلك
بمعان متداخلة خلاً أن كل واحد من تلك المعاني مُختصٌّ
بخصيصة لا تكون للآخر ، ومثاله قول أبي تمام يصف
رجلاً أنعم عليه

مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيْعَةٍ

بِكِرٍّ وَإِحْسَانٍ أَغْرَّ مُحْجَلٍ

فقوله منة مشهورة ، وصنيفة بكر ، واحسان اغرّ محجل
محجل ، معان متداخلة ، لأن المنة والاحسان والصنيفة كلها
أمور متقاربة بعضها من بعض ، وليس ذلك من قبيل التقرير ،
لأنها إنما تكون تكريراً لو اقتصر على ذكرها مطلقاً من
غير صفة كأن يقول منة وصنيفة وإحسان ولكنه وصف
كل واحدة منها بصفة تُخالف صفة الآخر ، فلا جرم
أخرجها ذلك عن حكم التكرير ، فقال (منة مشهورة)
لكونها عظيمة الظهور لا يمكن كتمانها، وقوله (صنيفة بكر)
فوصفها بالبكارة، أي أن أحداً من الخلق لا يأتي بمثلها من قبل

ومن بعدُ ، وقوله (وإِحسانٌ أغرَّ محجَّل) فوصفه بالفرة ليدلَّ
بذلك على تعداد محاسنه وكثرة فوائده ، فلما وصف هذه
المعاني المتداخلة الدالة على شيء واحدٍ بأوصافٍ متباينةٍ صار
ذلك إطناباً ولم يكن تكريراً ، وكقول أبي تمام أيضاً
ذِكْرُ سَجَايَاهُ تَضِيفُ ضِيُوفُهُ

وَيَرْجَى مُرْجِيَهُ وَيُسْأَلُ سَائِلُهُ

فإنَّ غرضه فيما قاله ذكرُ المدوح بالكرم وكثرة العطاء ،
خلا أنه وصفه بأوصافٍ متعددة ، فجعل ضيوفه تضيف ،
وراجيه يُرْجَى ، وسائله يُسْأَلُ ، وليس هذا من باب التكرير ،
لأنَّ كلَّ واحدٍ منها دالٌّ على خلاف ما دلَّ عليه الآخر
لأنَّ ضيفه يستصحب ضيفاً طمعاً في كرم مُضِيفِهِ ، وسائله
يُسْأَلُ ، أي أنه يُعْطَى السائلين عطاءً جزلاً يصيرون به
مُعْطِينَ غَيْرِهِمْ ، وراجيه يرجى ، أراد أنه إذا تعلق به رجاء
راجٍ فقد ظفرَ بنجاح حاجته وفاز بإنجاز مطلبه ، وهذا أعظم
وصف وأبلغه

(الضرب الرابع) من الإطناب أنَّ المتكلم إذا أراد
الإطناب فإنه يستوفي معاني الغرض المقصود من رسالة ، أو
خطبة ، أو تأليف كتاب ، أو قصيدة ، أو قرطاس ، أو غير

ذلك من فنون الكلام ، وهذا هو أصعبُ هذه الضروب الأربعة ، وأدقها مسلكاً ، وأضيقها جرياً ، لكونه مشتملاً على لطائف كثيرة ، ويتفرع الى فنون واسعة ، تتفاضل فيها المراتب ، وتتفاوت فيها الدرَجُ في أساليبِ النظم والنثر ، والتبريز فيه قليلٌ ، فما قلتُ ألفاظه وكثرت معانيه فهو الإيجاز ، وما كثرت ألفاظه وكان فيها دلالةٌ على الفوائد فهو الإطناب ، وما كثرت ألفاظه من غير فائدة فهو التطويل ، وما تكررت ألفاظه المتماثلة فهو التكرير ، وقد قررنا هذه المعاني من قبلُ فأغنى عن إعادتها ، فهذا ما أردنا ذكره في تقسيم الاطناب والله الموفق

﴿ البحث الثالث ﴾

(في ذكر أمثلة الاطناب)

اعلم ان هذا النوع من علم البيان كثير المحاسن واسع الخَطوط لطائفه بديعةٌ ، ومداخله دقيقةٌ ، فلنورد أمثله من كتاب الله تعالى ، ثم من السنة الشريفة ، ثم من كلام أمير المؤمنين ومن كلام البلغاء ، فهذه أنواع أربعة

(النوع الاول)

ما ورد فيه من كتاب الله تعالى فمن ذلك ما ورد في
صفة الجنة على جهة الإيجاز قوله تعالى (فيها ما تشتهي
الأنفس وتلذُّ الاعين وأنتم فيها خالدون) فهذه نهاية الإيجاز ،
فإنه قد استولى على جميع اللذات كلها من غير إشارة الى
تفصيل ، وكذلك قوله تعالى (فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم
من قُرَّةِ أعينٍ) فهذا أيضاً دال على غاية اللذة بأوجز عبارة
واللطفها ، ومنه قوله تعالى (وإذا رأيتَ ثمَّ رأيتَ نعيماً ومُلْكاً
كَبِيراً) وقوله تعالى (تعرِفُ في وجوههم نَضْرَةَ النعيمِ)
الى غير ذلك من الإيجاز البالغ ، والإطناب كقوله تعالى
(مثلُ الجنةِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ
وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيرَ طعمُهُ وأنهارٌ من خمرٍ لذيذةٍ للشاربين
وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفًّى) وقوله تعالى (في جنةٍ عاليةٍ لا تسمعُ
فيها لآغيةً فيها عينٌ جارِيَةٌ فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ وأَكْوَابٌ
مَوْضُوعَةٌ وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) وقوله تعالى (على
سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ مُتَّكِنِينَ عليها مُتَّقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ
وَلَدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا

يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ
مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) ومن ذلك
قوله تعالى (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ
أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَانًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا) وقوله
تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ لَا بَرْدٌ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ
ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا تَذَلِيلًا وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ
وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى
سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَوْهُمُ
حَسَبَتْهُمْ لُؤْلُؤًا مَنشُورًا) ثم قال (عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خَضِرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا) وقوله تعالى في سورة الرحمن فانه أَوْجَزُ أَوْلَا ، ثم
أَطْنَبَ فِي وَصْفِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ فِي الْإِيحَازِ (وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ
رَبِّهِ جَنَّاتٍ) ثم قال (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ) ثم أَطْنَبَ
بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ (مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ
وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ) ثم قال بعد ذلك (مِذَاهِمَاتَانِ ، فِيهِمَا

عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ) وقال فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ) وقال (فِيهِمَا
فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) ثم قال (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)
وقال (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) ثم قال (مَتَّكِنِينَ عَلَى
رُفُوفٍ خَضْرَاءَ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ) فهذه كلها أوصاف جارية
على جهة الإطناب ، فأما الإيجاز في صفة أهل النار فقوله
تعالى (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ لَا يُفْتَرُونَ عَنْهُمْ
وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) وقوله تعالى (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)
إلى غير ذلك مما يدل على الهوان من جهة الإجمال ، وأما
الإطناب فكقوله تعالى (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ
فِيهَا كَالْحُوتِ) وقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ
ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُسَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي
بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ) وهكذا القول في
الإيمان والكفر ، وصفة المؤمنين والكفار ، فإنه قد ورد في
حقهم الإيجاز والإطناب ، وهو ظاهر لا يحتاج فيه إلى
التكثير ، فأما التطويل فكتاب الله تعالى منزه عنه ، لكونه
تكثيراً من غير فائدة مستجدة ، ومثاله لو أُريد وصف
بستان يتضمن فواكه ، لقليل فيه : الرُّمَّانُ الَّذِي وَرَقُهُ أَخْضَرُ

مستطيلٌ وله قُضبانٌ لَدَنَةٌ لها شجونٌ وفنونٌ مشتملةٌ على
حَبِّ مَدَوَّرٍ في وسطها أعطافٌ مشحونةٌ بينادقٌ حُمُرٌ الى غير
ذلك ، فما هذا حاله يُعَدُّ من التطويل الذي لا ثمرة له ولا
فائدة تحته

(النوع الثاني)

ما ورد من جهة السنة النبوية فأما الايجاز فمثاله قوله
صلى الله عليه وسلم : حكايةً عن الله تعالى أُعِدَّتْ لِعِبَادِي
الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب
بَشَرٍ ، بَلَّةٌ ما ادَّخَرْتُ لَهُمْ ، وفي حديث آخر في الجنة ما لا
عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلب أحد الى
غير ذلك من الاحاديث الواردة على جهة الاجمال ،
وأما الإطنابُ فكقوله (١) صلى الله عليه وسلم من لذَّذَ أَخَاهُ
بِمَا يَشْتَهُيه رَفَعَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ وَكُتِبَ لَهُ أَلْفُ
أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَأُطْعِمَهُ مِنْ ثَلَاثِ
جَنَانٍ ، مِنْ جَنَّةِ الْفَرْدُوسِ . وَمِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ ، وَمِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ ،
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ سَقَى مُؤْمِنًا شَرِبَهُ سَقَاهُ

(١) هذا الحديث والذي يليه من الاحاديث الموضوعية

الله من الرحيق المختوم ، أوفال من نهر الكوثر ، ومن كسا مؤمناً كساهُ الله من سُندُس الجنة ، ومن أطعم مؤمناً لقمةً أطعمَهُ اللهُ من طيبات الجنة وفواكهها وقوله صلى الله عليه وسلم : في الإيمان إنه بضعٌ وسبعون ^(١) باباً أعلاه لا إله الا الله وأدناه إمطةٌ الاذى عن الطريق ، فهذا وما شا كله من باب الإيجاز الرائق والاختصار الفائق لاندراج الخصال الكثيرة والشعب المنتشرة تحت ما ذكره في حق الإيمان ، ومن الاطناب قوله صلى الله عليه وسلم : لا يكملُ إيمانُ العبد بالله حتى يكون فيه خمسُ خصال ، التوكل على الله ، والتفويضُ الى الله ، والتسليمُ لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، والصبرُ على بلاء الله ، إنه من أحبَّ الله ، وأبغضَ الله ، وأعطى الله ، ومنعَ الله فقد استكمل الإيمان ، فانظر الى ذكره تلك الخصال الخمس التي جمعها اصلاً في كمال الإيمان كيف أردفها بما هو كالثمره لها ، والمصدّق لامرها بقوله : إنه من أحبَّ الله ، لأن كل من كُلمت فيه تلك الخصال فلا شك في كون أعماله تكون لله من حبٍّ أو بغضٍ أو إعطاءٍ أو منعه ، ومن الاطناب

(١) باباً صوابه شعبة

الحسن قوله صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَكْتَسِبُ فِي الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، وَلَا يُعَدُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْمَنَ أَخُوهُ بِوَأَيْقَنَهُ ، وَجَارُهُ بِوَادِرِهِ ، وَلَا يَنَالُ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حِذَارًا مَا بِهِ الْبَأْسُ ،** ومن الإيجاز الرشيق قوله صلى الله عليه وسلم في طلب الرزق : **إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الرَّجُلُ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الرِّزْقُ رِزْقَانُ رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ ،** ومن الإطناب قوله صلى الله عليه وسلم : **يَا بَنَ آدَمَ تَوَقَّى كُلَّ يَوْمٍ بِرِزْقِكَ وَأَنْتَ تَحْزَنُ وَيَنْقُصُ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَجَلِكَ وَأَنْتَ تَفْرَحُ تُعْطَى مَا يَكْفِيكَ وَتَطْلُبُ مَا يُطْغِيكَ ، لَا مِنْ كَثِيرٍ تَشْبَعُ ، وَلَا بِقَلِيلٍ تَقْنَعُ ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ أَيُّهَا النَّازِرُ إِلَى هَذَا الْإِطْنَابِ الْبَالِغِ فِي الْمَوْعِظَةِ كُلِّ غَابَةٍ ، وَالْمُتَجَاوِزِ فِي النَّصِيحَةِ كُلِّ حَدٍّ وَنَهَايَةٍ**

(النوع الثالث)

ما ورد من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فمما ورد من كلامه على جهة الإيجاز قوله في التوحيد **كُلُّ مَا حَكَاهُ الْفَهْمُ ، أَوْ تَصَوَّرَهُ الْوَهْمُ فَاللَّهُ تَعَالَى بِخِلَافِهِ ،** فهذه الكلمة على قصرها

وتقارب أطرافها قد جمعت محاسن التنزيه لذات الله تعالى عما لا يليق بها من مشابهة الممكنات ومماثلة المحدثات ، لأن الوهم إنما يتصور ما له نظائر في الوجود، والله تعالى ليس لذاته مماثل ، ولا يُعقل له مشابه ، وكلامه هذا دالّ على أن حقيقة ذاته ليس معلومة للبشر ، ولهذا قال : كلُّ ما حكاه الفهم ، يشير به الى أن العقول قاصرة عن تصوّر تلك الماهية وتعقل أصل تيك المفهومية ، وهذا هو المختار عندنا كما قرّرناه في المباحث العقلية ، وإليه يُشير كلام الشيخ أبي الحسين البصرى من المعتزلة وهو الرجل فيهم ، وهو رأى الخذاق من الأشعرية كأبي حامد الغزالي وابن الخطيب الرازى وغيرهم من جلة المنكلمين ، خلافاً لطوائف من المعتزلة والزيدية ومن الكلمات الوجيزة قوله عليه السلام : (التوحيدُ إلاّ تتوهمه والعدلُ إلاّ تتهمه) هاتان الكلمتان قد جمعنا وحازتا علوم التوحيد على كثرتها ، وعلوم الحكمة على غزارتها ، بألفاظ عبارة وأجزها ولولم يكن في كلام أمير المؤمنين في علوم التوحيد والعدل إلاّ هاتان الكلمتان لكانتا كافيتين في معرفة فضله ، وإحرازه لدقيق علم البلاغة وجزله ، فضلاً عما وراءهما من بوالغ الحكم الدينية ، ونواصع الآداب الحكمية ، وقد أشرنا الى لطائف

كلامه وأوضحنا ما رزقنا الله من علوم أسرارهِ في شرحنا
لكتاب نهج البلاغة، وإِنَّه لكتابٌ جامعٌ للصفات الحُسنى
وحائزٌ لخصال الدين والدنيا، وأَمَّا الإِطْنابُ فهو أوسعُ ما يكون
واكثرُ في خُطْبِه وكتبه ، وما ذاك إلا لما تضمَّنه من المعاني
واشتماله على الجَمِّ الغفير من النكت والأسرار ، ولننقلُ من
كلامه نُكْتًا تكون في الأيام غررًا وفي نُحُور الرُواة ذررًا
(النكتة الأولى)

في التوحيد قال : أولُ الدين معرفته ، وكَمالُ معرفته
توحيدُه ، وكَمالُ توحيدِه التصديقُ به ، وكَمالُ التصديقِ به
الإِخْلاصُ له ، وكَمالُ الإِخْلاصِ له نَفْيُ الصفاتِ عنه ،
لشهادة كلِّ صفة أنها غيرُ الموصوف ، وشهادة كلِّ موصوف
انه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرَّنه ، ومن قرَّنه
فقد ثنَّاه ، ومن ثنَّاه فقد جزَّاه ، ومن جزَّاه فقد جهله ، ومن
أشارَ إليه فقد حدَّه ، ومن حدَّه فقد عدَّه ، ومن قال فيم فقد
ضمَّنه ، ومن قال علام فقد أخلَى منه ، فانظرْ إلى هذا التوحيد
الذي لم يُسبقْ إليه ، وإلى هذا الإِخْلاصِ الذي لم يُزاحم عليه ،
بل استبدَّ به من بين سائر الخلائق ، وتميَّز بالاحاطة والاستيلاء

على تلك الحقائق ، وقد أشرنا الى هذه الرموز بهذه الأحرف
وكيفية دلالتها على التوحيد ، والتنزيه في كتابنا الديباج الذي
أمليناه شرحاً لكلامه فليطالع من هناك ، ثم قال : أنشأ الخلق
إنشاءً ، وابتدأه ابتداءً بلا رويةٍ أجالها ، ولا تجربةٍ استفادها ،
ولا حركةٍ أحدثها ، ولا همامةٍ نفسٍ اضطرب فيها ، فهذه
نكتةٌ شريفةٌ من كلامه أشار فيها الى التوحيد ، وخلق العوالم
كلها وإبداع البكونات

(النكتة الثانية)

في الإشارة من كلامه الى خلق السموات : ثم أنشأ
سبحانه فتقّ الأجواء وشقّ الأرجاء وسكّانك الهواء ،
فأجرى فيها ماءً متلاطمًا تياره ، متراكماً زخارُه ، حمله على متن
الريح العاصفة ، والزّعزع القاصفة ، فأمرها برده ، وسلّطها على
شدّه ، وقرنها إلى حدّه ، الهوى من تحتها فتيقّ ، والماء من
فوقها دفيق ، ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها ، وأدام مزيها ،
وأعصف مجراها ، وأبعد منشأها ، فأمرها بتصفيق الماء
الزخار ، وإثارة موج البحار ، فمخضته مخض السقاء ،
وعصفت به عصفها بالفضاء ، تردّ أوله على آخره ، وساجيه على

مآثره ، حتى عبَّ عبَّابه ، ورَمَى بالزَّبَدِ ركامه ، فرفعه في هواء
مُنْفَتِق ، وجوَّ مُنْفَهَق ، فسَوَّى منه سبعَ سموات ، جعلَ
سُفْلَاهن مَوْجاً مكفوفاً ، وعُلْيَاهن سَقْفاً محفوظاً ، وسُمُكاً
مرفوعاً بغيرِ عَمَدٍ يذُعمها ، ولا دَسَارٍ يَنْظِمُهَا ، ثم زينها بزينة
الكواكب ، وضياءِ الثواقب ، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً ،
وقراً منيراً ، في فلكِ دائر ، وسقفِ سائر ، ورقمِ حائر ،
فهذه نبذةٌ من كلامه أشار بها الى كيفية إبداع السموات

(النكتة الثالثة)

في صفة الأرض ودخوها على الماء قال : كَبَسَ الأرض
على موراً موج مستفحلة ولُجَجَ بحارٍ زاخرة تَلْتَطِمُ أوادى
أمواجها ، وتُصَفِّقُ متقاذفات أثباجها ، وترغُو زبداً كالفحول
عند هياجها ، نفضع جاحُ الماء المتلاطم لثقل حملها ، وسكن
هيجُ ارتمائيه اذ وطئته بكلِّكها ، وذالَّ مُسْتَخْذِيّاً اذ
تمعكت عليه بكواهلها ، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه
ساجياً مقهوراً ، وفي حكمة الذلِّ مُنْقَاداً أسيراً ، وسكنت
الأرضُ مدحوةً في لُجَّةِ تياره ، ورَدَّتْ من نخوة بأوه
واعتلائه ، وشُمُوخِ أنفه وسُمُو غُلُوّائه ، وكعمته على كظة جريته ،

فهمدَ بعد نزواته ، وبعد زيفان وثباته ، فسكن هيج الماء من تحت أكتافها ، وحمل شواهد الجبال البذخ على أكتافها ، فهذه منه إشارة الى خلقه الارض كما ترى

(النكتة الرابعة)

في خلق الملائكة ثم خلق سبحانه لإسكان سمواته وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته ، وملاً بهم فرُوجٍ فجأجها ، وحشاً بهم فتوق أجوائها ، وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبحين منهم في حظائر القدس وسترات الحُجُب ، وسرادقات المجد ، ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماع ، سبحات نور تُردعُ الأبصارُ عن بلوغها ، فتقفُ خاسيةً على حدودها ، أنشأهم على صور مختلفات ، وأقذار متفاوتات ، أولى أجنحة تُسبحُ جلال عزته ، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعته ، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً مما انفرد به ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه ، وحملهم الى المرسلين ودائع أمره ونهيه ، وعصمهم من ريب الشبهات ، فما منهم زائع عن سبيل

مرضاته ، وأمدَّهم بفوائد المعونة ، وأشعر قلوبهم تواضع إكبات
السكينة ، وفتح لهم أبواباً ذُللاً الى تماجيده ، ونصب لهم
مناراً واضحاً على أعلام توحيده ، لم تُثقلهم مؤصَّرات الآثام ،
ولم ترثجلمهم عُقبُ الليالي والأيام ، ولم ترزم الشكوك بنوازعها
عزيمة إيمانهم ، ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم ، ولا
قدحت قاذحة الإحزن فيما بينهم ، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق
من معرفته بضائرهم ، وما سكن من عظمتِه وهيبته جلالتِه في
أثناء صدورهم ، فلم تطمع فيهم الوسوس فتفترع برينها على
فكرهم الى آخر كلامه في أحوالهم وصفاتهم ، ولولا خوف
الاطالة لنقلنا كل كلامه في ذكر خواصهم

(النكتة الخامسة)

في ذكر علم الله وإحاطته بكل المعلومات قال : عالم السرِّ
من ضمائر المضميرين ، ونجوى المتخافتين ، وخواطر رجم
الظنون ، وعقد عزيمة اليقين ، ومسارب إيماض الجفون
وما ضمَّنته أكناف القلوب ، وغايات الغيوب ، وما أصنعت
لاستراقه مصايخ الأسماع ، ومصائف الذر ومشاتي الهوام ،
ورجع الحنين من المولهايات ، وهمس الأقدام ، ومنفتح الثمرة

من ولائح غلاف الأكلام ، ومُنقَمَعِ الوحوش من غير أن
الجبال وأوديتها ، ومُخْتَبِي البعوض بين سُوْقِ الأشجار والحيتيها ،
ومغرز الأوراق من الأفنان ، ومحطّ الأمشاج من مسارب
الأصلاب ، وناشئة الغيوم ومُتَلاحِمِها ، ودُرُورِ قَطْرِ السحاب
ومُتَراكِمِها ، وما تَسْفِي الأعاصيرُ بذُيولِها ، وتَعْفُو الأمطارُ
بسُيولِها ، وعموم نبات الأرض في كُثبان الرمال ومستقرّ
ذوات الأجنحة . بذُرا سَنَاحِيِبِ الجبال ، وتغريد ذوات
المنطق في دِياجير الأوكار ، وما أُودِعَتِهُ الأصدافُ
وحَضَنَتْ عليه أمواجُ البحار ، وما غَشِيَتِهُ سُدُفَةُ ليل ، وذَرَّ
عليه شارقٌ من نهار ، وما اعتَقَبَتْ عليه أطباقُ الدياجير
وسُبُحاتُ الأنوار ، وأثَرُ كلِّ خَطْوَةٍ وحِسُّ كلِّ حَرَكَةٍ ،
ورَجَعُ كلِّ كَلِمَةٍ ، وتحريك كلِّ شَفَةِ ، ومستقرُّ كلِّ نَسَمَةٍ ،
ومثقال كلِّ ذرّة ، وهُمَاهِمُ كلِّ نفسِ هامَةٍ ، وما عليها من
ثمرة شجرة أو ساقِطِ ورقةٍ ، أو قرارِ نطفَةٍ ، أو نُقَاعَةِ دَمٍ ،
أو مَضْغَةٍ ، أو ناشئة خَلْقٍ وسُلَالَةٍ ، فليَنظُرِ الناظرُ ما تَضَمَّنَهُ
كلامُهُ ههنا من الإِشارةِ إلى كِيفِيَةِ الإِحاطَةِ له تعالى

بالمعلومات بألفاظ عبارية وأرشفها ، وهذا من أعجب أماكن
الاطناب وأرفع مراتبه

(النكتة السادسة)

في تنزيه الله تعالى عن مشابهة الممكنات واستحالة
الأعضاء عليه ، قال فأشهد أن من شبّهك بتباين أعضاء
خَلْقِكَ وتلاحمِ حقائقِ مفاصلهم المحتجبة بتدبير حكمتك لم
يَعْقُدْ غَيْبُ ضميره على معرفتك ، ولم يُبَاشِرْ قلبه اليقينُ بأنه
لا نَدَّ لك ، فكأنه لم يسمع تَبَرُّؤَ التابعين من المتبوعين إذ
يقولون (تالله إن كنا لفي ضلالٍ مبينٍ إذ أنسوينا ربَّ
العالمين) كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم ، ونحلوك
حلية المخلوقين بأوهامهم ، وجزأوك تجزئة الجسّمات بخواطرهم ،
وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم ، فأشهد
أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك ، والعدل بك
كافر بما تنزلت به مُحْكَمُ آياتك ونطقت عنه شواهد حجج
بيناتك ، وأنت أنت الله لم تتناه في العقول فتكون في
مَهَبِ فكرها مُكَيِّفًا ، ولا في رَوِيَّاتِ خواطرها محدوداً
مُصَرِّفًا ، فظاهر كلامه دالٌّ على إكهار المشبهة ، وقد رمزنا في

شرحنا لكلامه هذا الى تفاصيل القول في التشبيه وذكرنا من يكفر ومن لا يكفر من المشبهة ما خلا القول في إكفار من يكفر من أهل القبلة ، وحقيقة الإكفار بالتأويل ، فقد أودعناه كتابنا الذي أمليناه في الإكفار وذكرنا فيه ما يكفي ويشفي والحمد لله

(النكتة السابعة)

في الإشارة الى كيفية خلق آدم قال فيه ثم جمع من حزن الأرض وسهلها ، وعذبها وسببخها ، تربة سنها بالماء حتى خلصت ، ولا طها بالبلّة حتى لزبت ، فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول ، وأعضاء وفصول ، أجمدها حتى استمسكت ، وأصلدها حتى صلصلت ، لوقت معدود ، وأمد معلوم ، ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنسانا ذا أذنان يجيلها ، وفكر يتصرف بها ، وجوارح يستخدمها ، وأدوات يقبلها ، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل ، والأذواق ، والمشام ، والألوان ، والأجناس ، معجوناً بطينة الأكوان المختلفة ، والأشياء المؤتلفة ، والاضداد المتعادية ، والأخلاق المتباينة ، من الحرّ والبرّد ، والبلّة والجمود ، والمساءة والسرور ، واستأدى الله

سبحانه الملائكة وديعته لديهم ، وعهد وصيته اليهم في
الاذعان بالسجود له ، والخشوع لتكريمته ، فقال سبحانه
(اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس) ثم أسكنه دارا
أرغد فيها عيشه ، وأقر فيها محلته ، فهذا كلام من أخذ البلاغة
بزمامها وكان هو المدعو بصاحبها وإمامها ، لا يقصر عن بلوغ
شأوها ولا يصعب عليه نخوة بأوها
(النكتة الثامنة)

في ذكر إبليس وإغوائه لآدم قال ثم إن إبليس اعترته
الحمية ، وغلبت عليه الشقوة وتعزز بخلقه النار ، واستوهن
خلق الصلصال ، فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة ،
واستتماماً للبليّة ، وإنجازاً للعدة فقال (فإنك من المنظرين إلى
يوم الوقت المعلوم) فلما أسكنه جنته ، وحذرته إبليس
وعداوته ، فاغتره إبليس نفاسةً عليه بدار المقام ، ومرافقة
الأبرار ، فباع اليقين بشكّه ، والعزيمة بوهنه ، واستبدل
بالجدل وجلاً ، وبالاغترار ندماً ، ثم بسط الله سبحانه له في
توبته ، ولقاه كلمة رحمة ووعده المرد إلى جنته ، وأهبطه
إلى دار البليّة وتناسل الذرية

(النكتة التاسعة)

يذكر فيها بعثة الأنبياء قال : ثم إنه تعالى اصطفى من ذريته يعني آدم أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ، لما بدّل أكثر خلقه عهد الله اليهم ، فجعلوا حقّه ، واتخذوا الأنداد معه واجتأههم الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسله ، وواتر اليهم أنبياءه ، ليستأذوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم منسى نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول ، ويروهم آيات المقدرة ، من سقف فوقهم مرفوع ، ومهاد تحتهم موضوع ، ومعايش تُحْيِيهِمْ ، وآجال تُفْنِيهِمْ ، وأوصاب تُهْرِمُهُمْ ، وأحداثٍ تتابع عليهم ، ولم يُخلِ اللهُ سبحانه خائفة من نبي مرسل ، أو كتاب منزل ، أو حجة لازمة ، أو محجة قائمة ، رسل لا تقصرُ بهم قلة عددهم ، ولا كثرة المكذّبين لهم من سابق سمي له من بعده ، أو غابر عرفه من قبله ، على ذلك نسلت القرون ، وهضت الدهور ، وسلفت الآباء ، وخلفت الأبناء ، فهذه نكتة عجيبةٌ ضمنها ما كان من بعثة الأنبياء وتبليغهم للشرائع وصبرهم على أداء ما حملوه

(النكتة العاشرة)

يذكر فيها بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، واصطفاء
الله له قال ثم إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم لإنجاز
عدته ، وإتمام نبوته ، مأخوذاً على النبيين ميثاقه ، مشهورة
سماته ، كريماً ميلاده ، وأهل الأرض يومئذ ملأ متفرقة ،
وأهواءً منتشرة ، وطوائف متشتتة ، بين مشبه لله بخلقه ،
أو ملجئ في اسمه ، أو مشير إلى غيره ، فهداهم به من
الضلالة ، وأتقدهم بمكانه من الجهالة ، ثم اختار سبحانه
لمحمد صلى الله عليه وسلم لقاءه ، ورضى له ما عنده ،
وأكرمه عن دار الدنيا ، ورغب به عن مقام البلوى ،
فقبضه إليه كريماً ، صلى الله عليه وعلى آله ، ثم خلف فيكم
ما خلفت الأنبياء في أممها ، كتاب ربكم ميئناً حلاله ،
وحرامه ، وفضائله وفرائضه وناسخه ومنسوخه ورخصه
وعزائمهم ، فهذه النكت قد جمعناها من كلامه ههنا مثلاً للإطناب
ليتفطن الناظر أنه لا وادى من أودية البلاغة الا وقد سلكه ،
ولا زمام من أزمة الفصاحة الا وقد استولى عليه بفكره
وملكه ، فصار أوفر البلغاء في البلاغة نصيباً وسهماً ، وأكثرهم

بها في الإحاطة علما وفهماً ، وحقّ لكلامه عند ذلك أن يقال
فيه إنه كُنَيْفٌ مُلِيٌّ عِلْمًا

(النوع الرابع)

فيما ورد من كلام البلغاء في الإطناب ، فمن ذلك ما قاله
ابن الاثير في وصف بستان : هو جنة ذات ثمار مختلفة الغرابة ،
وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ، ففيها المشمش
الذي يسبق غيره بقدومه ، ويقذف أيدي الجانين بنجومه ،
فهو يسمو بطيب الفرع والنجار ، ولو نظم في جيد الحسنة
لاشابهه بقلادة من نضار ، وله زمن الربيع الذي هو أعدل
الأزمان ، وقد شبهه بسن الصبا في الأسنان ، وفيها التفاح
الذي رق جلده ، وعظم قده ، وتورد خده ، وطابت
أنفاسه ، فلا بان الوادي ولا رنده ، وإذا نظر اليه وجد منه
حظ الشم والنظر ، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته
الى منابت الشجر ، وفيها العنب الذي هو أكرم الثمار طينة ،
وأكثرها ألوان زينة ، وأول غرس اغترسه نوح عليه السلام
عند خروجه من السفينة ، فقطفه يميل بكف قاطفه ، ويُغرى
بالوصف لسان واصفه ، وفيها الرمان الذي هو طعام وشراب ،

وبه شُبِّهَتْ نُهُودُ الكَعَابِ ، ومن فضله انه لا نوى له فيرمى نواه ، ولا يخرج اللؤلؤ والمرجان من فاكهة سواه ، وفيها التين الذي أقسم الله به تنويهاً بذكره ، واستتر آدم بورقه إذ كشفت المعصية من ستره ، وخص بطول الأُعناق ، فما يرى بها من ميل فذاك من نشوة سُكره ، وقد وُصف بأنه راق طعمًا ، ونعم جسمًا ، وقيل هذا كُنَيْفٌ ملىَّ شُهْدَا ، لا كُنَيْفٌ ملىَّ علما ، وفيها من ثمرات النخيل ما يُزهى بلونه وشكله ، ويشمل بلذّة منظره عن لذّة أكله ، وهو الذي فضل ذوات الأفتان بعُرْجونه ، ولا تماثل بينه وبين الخلّواء فيقال: هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه، وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها، وكلها معدود من أوساطها لا من أطرافها ، ولقد دخلتها فاستهوتني حسدا ، ولم أأم صاحبها على قوله (لَنْ تبيد هذه أبدا) . فإ هذا حاله من الأوصاف يقال له إطنابٌ ، لأن كل صنفة لم تخلُ عن فائدة جديدة (ومن) الأمثلة الرائقة في الإطناب ما قاله ابن الأثير أيضاً على جهة المقابلة لايجاز كتاب طاهر بن حسين الى المأمون لما هزمَ عسكر عيسى ابن ماهان وقتله ، وقد ذكرنا كتابه الذ أوجز فيه الى المأمون فقال ابن الاثير مقابلا له

بالإطناب فيه ، وهو قوله : صدر الكتاب وقد نصرنا بالفئة
القليلة على الفئة الكثيرة، وانقلبنا باليد الملائى والعين القريرة ،
وكان انتصاره بحمد أمير المؤمنين لا بحمد نصله ، والجد أغنى
عن الجيش وإن كثر إمداد خيله ورجله ، وجى برأس عيسى
بن ماهان وهو على جسد غير جسده ، وليس له قدم تسعى ولا
يد فيقال يبطش بيده ، ولقد طال وطوله مؤذن بقصر شأنه ،
وحسدت الضباع الطير على مكانها منه وهو غير محسود على
مكانه ، وأحضر خاتمه وهو الخاتم الذى كان الأمر يجرى على
نقش أسطره ، وكان يرجو أن يصدر كتاب الفتح بختمه فحال
ورود المنية دون مصدره ، وكذلك البنى مرتعه وبيل ،
ومصرعه جليل ، وسيفه وإن مضى فإنه عند الضرب كليل ،
وقد نطق الفأل بأن الخاتم والرأس مبشران بالحصول على
خاتم الملك ورأسه ، وهذا الفتح أساس لما يستقبل بناؤه
ولا يستقر البناء الا على أساسه ، والعساكر التى كانت على
أمير المؤمنين حرباً صارت له سلماً ، وأعطته البيعة علماً
بفضله ، وليس من بايع تقليداً كمن بايع علماً ، وهم الآن
مصرفون تحت الأوامر ، ممتحنون بكشف السرائر ، مطيفون

باللواء الذي خصّه الله باستفتاح المقالد واستيطاء المنابر ، وكما
سرت خطوات القلم في أثناء هذا القرطاس ، فكذلك سرت
طلائع الرعب قبل الطلائع في قلوب الناس ، وليس في البلاد
ما يُغلق بمشيئة الله باباً ، ولا يحسر تقاباً ، وعلى الله تمام النعمة
التي افتتحها ، وإجابة أمير المؤمنين الى مقترحاته التي اقترحها ،
ولنكتف بهذا القدر من أمثلة الاطناب ففيه كفاية ، فأما
الاطنابات الشعرية فتشتمل عليها الدواوين ، ومن أراد
الاطلاع على الاطناب الشعرية في المدح فليطالع ديوان ابي
الطيب المتنبى فانه يجد فيه في الكافوريات والسيفيات ، إطالة
في الاطناب كثيرة وغيره من الدواوين كأبي تمام وأبي
عبادة البحرى

﴿ الفصل الثانى ﴾

(فى المبادئ والافتتاحات)

اعلم أن هذا الفصل ركن من أركان البلاغة ، وحقيقته
آثلة الى أنه ينبغى لكل من تصدى لمقصد من المقاصد
واراد شرحه بكلام أن يكون مفتتح كلامه ملائماً لذلك المقصد
دالاً عليه ، فما هذا حاله يجب مراعاته فى النظم والنثر جميعاً ،

ويستحبُّ التزامه في الخُطْبِ والرسائل والتصانيف ، وهكذا حال التهاني والتعازي يكون مبدؤها وتصديرها بما يناسب ذلك المعنى ليكون معلوماً من أول وهلة ، فحيثُ يكون المطلعُ جارياً على ما ذكرناه فهو من الافتتاح الحسن ، وحيث يكون جارياً على عكسه فهو معدودٌ من القبيح ، فهذان طرفان نذكر ما يتعلق بكل واحد منهما

(الطرف الاول) في ذكر الافتتاحات الرائعة ولنورد

فيها أمثلة اربعة

(المثال الأول) من كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى

لما أذن بالفتح على رسوله صلى الله عليه وسلم وكان هو الغاية والمنتهى بطي بساط الرسالة لما ظهر نور الإسلام . ومدَّ بجرانه على جميع الأديان ، فأنزل الله تعالى على رسوله آيةً هي مناسبةٌ لما هو فيه من إشارة الإيمان ، وبلوغه الغاية ويذكر منه عليه بما أظهر على يديه من ذلك فقال فيها (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا) فانظر الى هذه الآية ما اعجب ملائمتها لهذه الحالة ، وأشدَّ تصريحها بالمقصود من أول وهلة ،

فصدر الآية بذكر الفتح اظهارا للمنة ، وتكملة للنعمة ، ثم
أردفه بذكر المغفرة إعظاما لحاله ، ورفعاً من منزلته ،
وتقريباً لنفسه وتسلياً لما كابد قبله من عظم المشقه وشدة
المحنة ، ثم وجه التعليل بالمغفرة الى الفتح ، إيذاناً بأنه انما
استحق الغفران لما كان منه من الصغائر من أجل ما استحق
على العناية في الفتح ومكابدة شدائده ، فلا أجل ذلك كان
مستحقاً للأجر الأعظم الذي يكون ثوابه مكفراً لتلك
الصغائر التي صرح بها الشرع وجوزها عليه ، (فأما) الزمخشري
فقد قال في تفسيره انه ليس وارداً على جهة التعليل على أحد
وجهيه ، وإنما هو واردٌ على جهة التعديد لما أنعم الله عليه من
غفران ذنوبه ، وإتمام نعمته عليه والهداية والنصر
(فأما) من قال ان اللام للعاقبة كالتى في قوله تعالى (فالتقطه
آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) فانما كان ذلك من أجل
ضيق العطن ، وعدم الوطأة ورُسوخ القدم في علوم البيان ،
وبعدهم عن الإحاطة بحقائق التشبيه والاستعارة ، فلا جرم
عولوا على هذه التأويلات الركيكة والمعانى البادرة ، ونزول هذه
الآية انما كان قبل الفتح بعد رجوعه من الحديبية ، وبعد
عمرة القضاء ، أنزلها الله تعالى عليه إشارة له وشرحاً لصدوره ،

وتسليّةً على قلبه بما وعده من النصر والفتح والهداية والإعزاز،
وانما جاء بلفظ الماضي مبالغةً فيه وتوكيداً ، وكأنه لشدة تحقّقه
وثبوتّه كأنه قد مضى وتقضى فأشبهه الماضي في تقريره ، ومن
هذا قوله تعالى في افتتاح سورة النساء (يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) لأنه لما كان غرضه بيان الأحكام
المشروعة في حقهن من الطلاق ، والميراث ، وغير ذلك من
الأحكام ، صدر السورة بما يكون فيه دلالةً وتنبيهٌ على
ذلك ، وخالف ما ذكره في صدر سورة الحج لما ذكره في
سورة النساء حيث قال (يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ
السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) لأنه لما كان غرضه ذكر البعث
والاحتجاج عليه والنعي على منكريه صدره بما يلائمه
ويناسبه من ذلك ، فافتتاح كل واحدة من السورتين
مخالفٌ للآخرى ، لكنه مناسبٌ لما يريد ذكره من كل
واحد منهما من الأغراض والمقاصد التي ضمنها فيهما ،
فافتتاحهما ، ملائمٌ لهما كما ترى ، ولهذا فإن الله تعالى لما أراد
شهر السيف وأذن للرسول في القتال وكان بينه وبين ناس
من العرب عهد وإخلافٌ صدر سورة التوبة . يذكر

البراءة لما أراد من قطع تلك العهود ونبذها ، فافتتاحها
مناسب لما يريد ذكره فيها من المباينة وشن الغارات
وسلّ السيف

(المثال الثاني) ما ورد من السنة الشريفة ، فمن ذلك
ما رواه ابن عمر رضي الله عنه قال : كان يعلمنا خطبة الحاجة
بقوله الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلّ فلا
هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن
محمدًا عبده ورسوله ، فهذه الكلمات كانت يذكرها اذا أراد
حاجة من الحوائج من نكاح ، أو موعظة ، او فصل قضية ،
أو غير ذلك من سائر الحاجات ، فانظر الى اختياره صلى الله
عليه وسلم في افتتاح كل أمر كيف صار ملائماً للمطلوب من
جميع الأفعال المطلوبة ، فافتتح بالتعريف والإقرار باستحقاق
الحمد لله في كل حال لا يختص وقتاً دون وقت ، ثم أردفه
بتجديد الحمد في مستقبل الزمان وحاله ، ولهذا وجه الأول
بالاسم ، والثاني بالفعل المضارع ، ليدلّ بالأول على الثبوت
والاستقرار ، ويدلّ بالثاني على التجدد والحدوث ، ثم عقب
بذكر الاستعانة لما كان محتاجا اليها في كل فعل ، وهي

الألطف الخفية من جهة الله تعالى ، لأن اللطف من الله تعالى من أجله يسهل كل عسير ، ويلين كل قاس ، ثم أردفه بالاستعاذة بالله من شرور الأَنْفُس ، لما فيه من الضرر العظيم من أجل دُعاء النفوس الى كل شر ، وهي مطبوعة على أنها أمارةٌ بالسوء في كلِّ أحوالها ، ثم عقبه بالاستعاذة من السيئات ، فانها مبعدةٌ عن الخير ، داعيةٌ الى الشر ، فمن أجل هذه المناسبة جعل هذا الدعاء ديباجةً لكل مطلوب لما اختص من الملائمة بما يُذكر بعده

ومن ذلك افتتاحه صلى الله عليه وسلم في الدعاء لأبي سلمة عند موته حيث قال : اللهم ارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه من الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين ، فانظر الى مناسبة هذا الافتتاح للحالة التي وقع فيها فافتتحه بذكر المهيم الذي يفتقر اليه المدعو له في تلك الحال ، من رفع الدرجة في الآخرة ، ثم أردفه بذكر المهيم الذي يؤثره المدعو له من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا ، ثم ختمه بالجمع بين الداعي والمدعو له ، وهذا من الافتتاح البليغ الذي يعجز عن الإتيان بمثله كلُّ بليغ ، ومن أنس بالأحاديث النبوية وكان له مطالعة لها فإنه يجد فيها ما يكفي ويشفي

(المثال الثالث) من كلام امير المؤمنين كرم الله وجهه
وله عليه السلام من الافتتاحات الرشيقة في خطبه ، ومواعظه ،
وكتبه ، ما يفوق على كل كلام فمن ذلك ما ذكره بعد تلاوته
(آلهَا كُمْ التَّكَاثُرُ) فَإِنَّ السَّبَبَ فِي نَزْوِلِهَا هُوَ أَنَّ بَنِي
عَبْدِ مَنْفٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَبَنِي سَهْمٍ ، أَكْثَرُوا الْمَارَاةَ ، أَيُّهُمْ
أَكْثَرُ عَدَدًا ، وَأَعْظَمُ جَمَاعًا ، فَكَثَرَهُمْ بَنُو عَبْدِ مَنْفٍ ، فَقَالَ
بَنُو سَهْمٍ إِنَّ الْبَغْيَ أَهْلَكَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَعَادُونَا بِالْأَحْيَاءِ
وَالْأَمْوَاتِ فَكَثَرَهُمْ بَنُو سَهْمٍ ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ذِمًّا لَهُمْ عَلَى
ذَلِكَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ : يَا مَرَامًا مَا أَبْعَدَهُ ،
وَزُورًا مَا أَغْفَلَهُ ، وَخَطَرًا مَا أَفْظَعَهُ ، لَقَدْ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ
مُدَّكَّرٍ ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ بِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ،
أَمْ بَعْدِيدِ الْمَلِكِيِّ يَتَكَاثَرُونَ ؟ فَتَأَمَّلْ هَذَا الْإِفْتِتَاحَ ، مَا أَجْمَعَهُ
لِلْمَقْصُودِ وَأَشَدَّ مِلَاطَمَتَهُ لِمَرَادِ الْآيَةِ ، مَعَ الْإِخْتِصَارِ الْبَالِغِ
وَالْإِيْجَازِ الْبَدِيعِ الَّذِي يَزِيدُ تَفْصِيلُهُ مِنْ بَعْدُ فِي أَثْنَاءِ الْخُطْبَةِ
وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ (رَجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ
وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وَمَا بَرِحَ اللَّهُ ، عَزَّتْ آلاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ
بَعْدَ الْبُرْهَةِ ، وَفِي أَرْزَامِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ

وكلّمهم في ذاتِ عقولهم ، فاستصَبَحُوا بنورِ يقظةٍ في
الأسماع والأبصار والأفئدة ، يُذَكِّرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ،
وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ ، بمنزلة الأدلة في فُلُوتِ القلوب ، مَنْ
أخذ القصدَ حَمَدُوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة ، ومَنْ أخذ
يمينًا وشمالًا ذَمُّوا إليه الطريقَ ، وحذّروه من الهلكة ،
وكانوا كذلك مصاييحَ تلك الظلمات ، وأدلة تلك الشبهات

ومن ذلك ما ذكره عند تلاوته قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) أذْحَضُ مُسْتَوِلِ حُجَّةً ، وَأَقْطَعُ
مُفْتَرِّ مَعْدَرَةً ، لقد أْبْرَحَ جهالةً بنفسه ، يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وما غَرَّكَ بِرَبِّكَ ، وما آتَسَكَ بِهَلَكَةِ
نَفْسِكَ ، أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ ، أليسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقْظَةٌ ، أَمَا
تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ ما تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ ، فانظر أَيُّها المتأمل الى
هذه المطالع في الوعظ والزجر ، وهذه الافتتاحات بمعاني هذه
الآي كيف طبَّقَ مفاصلها ولم يخالف مجراها ، ولا أخذَ في
غير طريقها ، وأتى بما يلائم معناها ، ويوافق مجراها ، ويحقق
مغزاها بالكلام الذي تبهرُ القرائح فصاحته ، وتدهش العقول
جزالته و بلاغته ، والله درّ أمير المؤمنين لقد فاق في كل خصاله ،

ونكصَ كلُّ بليغ أن يحدو على مثاله ، خاصة فيما يتعلق
بالخطب في التوحيد فانها افتتاحات ملائمة للمقصود أشدّ
الملائمة

(المثال الرابع)

ما ورد من كلام البلغاء في ذلك ، وأحسن ما قيل في
الافتتاح ما قاله أبو تمام في قصيدته التي امتدح بها المعتصم
عند فتحه لمدينة عمورية ، وقد كان أهل التنجيم زعموا أنها
لا تفتح عليه في ذلك الوقت ، وأفاض الناس في ذلك حتى
شاع الأمر وصار أخذوثه بين الخلق ، فلما فتحت عليه ، بنى
أبو تمام مطلع القصيدة على هذا المعنى مكذباً لهم فيما قالوه ،
ومادحاً للمعتصم في شدة البأس وإعراضه عن التطير
بالنجوم فقال

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب
في حدّه الحدُّ بينَ الجدِّ واللعب
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصفائفِ في
مُنونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرَّيبِ
وقال معرضاً باهل النجوم وانه لا عبرة بما قالوه في ذلك

والعلم في شُعب الأرماع لأمعة
بين الخميسين لاني السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما
صاغوه من زُخرفٍ فيها ومن كذب
تخرُّصاً وأقاويلاً مَلْفَقَةً

ليست بنبع إذا عدت ولا غرب
فهذا المطلع من أجود ما يأتي في هذا المعنى ومن
مستظرفاته ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المتنبي في قصيدة يمدح
بها كافوار وكان جرت بينه وبين سيده سيف الدولة وحشة
فقال في ذلك

حَسَمَ الصِّلْحُ ما اشْتَهَتْهُ الأَعَادِي
وأذاعته أَلْسُنُ الحَسَادِ

فهذا وما شاكلة من بديع الافتتاحات ونادرها لما فيه
من إفادة الغرض المطلوب من أول وهلة ، ومن جيد ما يُذكر
في المطالع الحسنة ما حكاه أبو العباس المبرّد أن هرون
الرّشيد غزا يعفورَ ملك الروم وكان نصرانياً فخضع له وبذل
الجزية ، فلما عاد هرونُ استقرَّ بمدينة الرّقة ، وسقط الثلجُ ،

تَقْضَ يَعْفُورَ الذمة والعهد فلم يجسر أحدٌ على إعلام هرون
لأجل هيئته في صدور الناس ، وبذل يحيى بن خالد للشعراء
الأموال النفيسة على أن يقولوا أشعاراً في إعلامه ، فكلهم
أشفق من لقائه بمثل ذلك إلا شاعراً من أهل جدة يكنى
أباً محمدٍ وكان مغلقاً فنظم قصيدةً وأنشدها الرشيدَ مُضَمَّنَةً
لهذا المعنى ، قال فيها

تَقْضَ الَّذِي أُعْطِيَتْهُ يَعْفُورُ
فَعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَدُورُ
أَبْشَرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ
فَتَحَّ أَتَاكَ بِهِ الْإِلَهُ كَكَبِيرُ
يَعْفُورِ إِنْكَ حِينَ تَغْدِرُ إِنْ نَأَى
عَنْكَ الْإِمَامِ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
أَظَنَنْتَ حِينَ غَدَرْتَ أَنَّكَ مُفْلِتُ
هَبْلَتِكَ أُمَّكَ مَا ظَنَنْتَ غُرُورُ

فلما أنهى الأبياتُ إلى الرشيد قال أوقد فعَلْ ، ثم غزاه
فأخذه وفتح مدينته ، ومن غريب الافتتاح وعجيبه ما قاله
المتنبي في سيف الدولة وقد كان ابن الشَّمَقِيقِ أقسم ليقْتُلنَّه

كفاحاً ، فلما التقى به لم يُطق ذلك وولى هارباً ، فقال فيه
عُقْبَى اليمِينِ عَلَى عُقْبَى الوَغَى نَدَمُ

مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقِسْمُ

وَفِي اليمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ

مَا دَلَّ أَنَّكَ فِي المِعَادِ مُتَمِّمُ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَه أَبُو تَمَامٍ يَمْدَحُ المَعْتَصِمَ فِيهَا

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسِّيَوفُ عَوَارِ

فَخَذَارِ مِنْ أَسَدِ العَرِينِ حَذَارِ

وهذه القصيدة من لطائف قصائده وعجائبها ، ومطلعها

يناسب ما ذكره فيها من ثنائه عليه وظفره بيا بكَ الخُرْمِي .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَه السُّلَمِيُّ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَةٍ لَهُ قَالَ فِيهَا

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ

خَلَعَتْ عَلَيْهِ جَمَاهَا الأَيَّامُ

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء ، فقال مَنْ أَجَادَ

الابْتِدَاءَ وَالْمَطْلَعُ ، وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ لَهَا مَوْقِعًا عَظِيمًا فِي

الفصاحة والبلاغة ، فهذا ما أردنا ذكره في الافتتاحات الحسنة

(الطرف الثاني)

(في ذكر الافتتاحات المستقبحة)

اعلم أنه ليس في كتاب الله تعالى ولا في السنة النبوية ولا في كلام أمير المؤمنين شيء من الافتتاحات المستكرهة فنورده ، وما ذاك إلا من اختصاصها بأرفع محل في البلاغة وبلوغها في أعلا مراتبها ، وإنما ورد ذلك في كلام البلغاء ونحن نورد ما استكره منه وكان مستقبحا . نعم القرآن وان كان مستحسنا في كل حالة لكنه قد يُكره ذكر الآيات المشعره بالموت عند عروض الأفراح ، وهذا كمن يستفتح بقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) عند نكاح أو غير ذلك من الافراح وكن يستفتح في قدوم تجارة له (يوم يُخمي عليها في نار جهنم فتكوى بها) الآية الى غير ذلك من الآيات الدالة على العذاب ووقوع الوعيد الشديد ، فما جرى هذا المجرى فإنه مستكره تلاته في هذه الاحوال ، لما فيه من قبح التفاؤل فلا يصلح ذكره ، وإنما يذكر في الافراح الآيات الدالة على السرور كقوله تعالى (يبشّرهم ربهم برحمة منه ورضوان) الى غير ذلك من الآيات الدالة على نعيم أهل الجنة وسرورهم ،

وهكذا القول في كتب التهاني والتعازي ، فإنه يجب ان يكون افتتاحها ملائماً لمقصودها ومطلوبها من الآيات والأخبار ، وانرجع الى أمثلة المطالع والافتتاحات السيئة ، ويُحكى أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان وأُعجِبَ به جمع أهله واصحابه فيه وأمرهم أن يخرجوا في زينتهم فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم واستأذنه ابراهيم ابن إسحق الموصلى في الإِشَاد فأذن له ، فأنشده قصيدة أجاد فيها كل الإِجَادَة خلا أنه افتتحها بافتتاح قبيح لا يلائم ما هو فيه فابتدأها بتعزية الديار وבלائها فقال

يا دارُ غَيْرِكَ البِلاَ وَمَحَاكِ يا لَيْتَ شعري ما الذي أَبْلَاكِ

فتغامز الناس به وتطير به المعتصم وعجبوا من غفلة ابراهيم عن مثل ذلك مع معرفته وعلمه وطول مخالطته للملوك ، فأقاموا أياماً وانصرفوا فما عاد منهم اثنان الى ذلك المجلس ، وخرِبَ القصر بعد ذلك ، وما كان أُخْلِقَ هذا المقام بيت السلمي الذي حكيناه عنه من قبل الذي مطلعته (قصرٌ عليه تحية وسلام) فانظر ما بين هذين الافتتاحين ، وكم بين المطلعين ، ومن ذلك ما قاله أبو نواس

يادار ما فعلتُ بك الأيامُ

لم تبقَ فيك بشاشة تُستامُ

وهذه القصيدة هي من محاسن شعره وغرائبه ، خلا أنه أساء فيها الافتتاح والمطلع ، أنشأها ممتدحاً بها الامين ابن هرون ، وتعزية الديار ودثورها مما تُكره مقابلة الخلفاء والملوك به ، لما فيه من الطيرة وقبح الفأل ، ومن الافتتاحات المكروهة ما قاله البحترى في قصيدة أنشأها مدحاً ، فأذهب رُوحها بهذا الافتتاح السيء ، ومطلع هذا الافتتاح بأن يكون مرثيةً أحقّ من أن يكون مديحاً قال (فؤادٌ ملاه الحزنُ حتى تصدّعا)

فمثلُ هذا يُتطيرُ به وتنبؤُ عنه الأسماع ، ومن قبيح الافتتاح وشنيعه ما قاله ذو الرمة

(ما بالُ عينك منها الماءُ ينسكبُ)

فما هذا حاله لا خفاء بقبحه إذ كان موجهاً للمدح ، ولما أنشد الأخطلُ عبدَ الملك بن مروان قصيدته التي مطلعها (خَفَّ القَطِينُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا) فقال له عبدُ الملك . بل . منك فغيره ذُو الرِّمَّة فقال فيه (خَفَّ القَطِينُ فَرَاخُوا اليَوْمَ أَوْ بَكَرُوا) ومن قبيحه ما قاله البحترى

إِنَّ لِلْبَيْنِ مِنَّةً لَا تُؤَدَّى * ويدا في تَمَاضٍ بِيضَاءِ
فما هذا حاله أعنى ذكر النساء بأسمائهن مما يثقل على
اللسان ، فأيراده في الغزل مما يُشَوِّه رِقَّتَهُ ، وَيَحْطُّ مِنْ خِفَّتِهِ ،
وانما يُسْتَحْسِنُ مِنَ الْغَزْلِ بِأَسْمَاءِ النِّسَاءِ مَنْ كَانَ خَفِيفًا عَلَى
اللسان ، كَأَمِيمٍ ، وَسَعَادٍ ، وَقَدْ عِيبَ عَلَى الْأَخْطَلِ أَيْضًا
تَفْزُلُهُ بِقَدُورٍ ، لِمَا فِيهَا مِنَ الثَّقَلِ فِي الْمَنْطِقِ ، فَمَا هَذَا حَالُهُ
يَنْبَغِي تَجَنُّبُهُ فِي الْأَشْعَارِ ، فَقَدْ عَرَفْتَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مَا تَجِبُ
مُرَاعَاتُهُ فِي الْاِفْتِتَاحَاتِ وَالْمَطْلَعِ وَمَا يَجِبُ تَجَنُّبُهُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا

﴿ الفصل الثالث ﴾

(في ذكر الاستدراجات)

الاستدراجُ ، استفعالٌ من قولهم : استدرجته الى كذا
اذا نزلته درجةً درجةً حتى تستدعيه اليك وينقاد لما قلته من
ذلك ، قال الله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون)
فالاستدراجُ لهم انما هو باعطاء الصحة والنعمة والايها
ليزدادوا في الكفر والفسوق ، وهذا اللقبُ انما يطلق على
بعض أساليب الكلام ، وهو ما يكون موضوعاً لتقريب
المخاطب والتلطف به والاحتيال عليه بالاذعان الى المقصود

منه ومساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيقة ، كما يحتال على خصمه عند الجدل والمناظرة بأنواع الإلزامات ، والالتجاء اليه بفنون الإفخامات ، ليكون مُسرِعاً الى قبول المسئلة والعمل عليها ، وكَمَن يتلَطَّف في اقتناص الصيد فإنه يعمل في الحيلة كلَّ حيلة ليكون ذلك سبيلاً الى ما يقصده من الأَصطياد ، فهكذا ما نحن فيه ، اذا أراد تحصيل مقصد من المقاصد فإنه يحتال بايراد أَلطف القول وأحسنه ، فما هذا حاله من الكلام يقال له الاستدراجُ ، ولنضرب له أمثلةً بمعونة الله تعالى

(المثل الأول)

من كتاب الله تعالى (وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعونَ يُكتمُ إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يُصِبكم بعضُ الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مُسرفٌ كذابٌ) فانظر الى حسن مأخذ هذا الكلام ، وما تضمَّنه من النزول في الملائفة ، فصدر الكلام بالإِنكار عليهم في قتله واستقباحه ، لأمرين : أمّا أولاً فلأنه قائلٌ

بالتوحيد لله تعالى ، وأما ثانياً فلأنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحة في هدايتكم الى الخير ، فمن هذه حاله كيف يُقدم على قتله ، هذا مما لا يتسع له العقل ولا يقبله ، ثم أخذ بعد ذلك في الاحتجاج عليهم على جهة التقسيم فقال : ليس يخلو حاله إمّا أن يكون كاذباً ففُضِرُ كذبه يعود عليه ، وأنتم خالصون عنه ، وإن يك صادقاً يصبم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم لقتله ، وفي سياق هذا الكلام من الملائفة وحسن الادب وكمال الانصاف ما يربو على كل غاية ، وبيانه من أوجه : إمّا أولاً فلأنه صدر الكلام بكونه كاذباً على جهة التقدير ملائفة واستنزالاً للخصم عن نخوة المكابرة ودعاء له الى الإذعان والالتقياد للحق ، وقدّمه على كونه صادقاً دلالة على كونه صادقاً دلالة على ذلك ، وأمّا ثانياً فلأنه فرض صدقه على جهة التقدير مع كونه مقطوعاً بصدقه ، تقريباً للخصم وتسليماً لما يدّعيه من ذلك ، وهضماً لجانب الرسول زيادة في الانصاف ومبالغة فيه ، وأمّا ثالثاً فانه أردفه بقوله يصبم بعض الذي يعدكم ، وإن كان التحقيق أنه يُصيبهم كل ما يعدهم به لا محالة ، من أجل الملائفة ايضاً ، وأمّا رابعاً فإنه أتى (باين) للشرط ، وهي موضوعة للأمر المشكوك فيها ، ليدلّ

بذلك على أنه غير مقطوع بما يقوله على جهة الفرض ، وإذعاناً
للخصم على التقدير لإرادة هضمه لحقه وأنه غير مُعطٍ له
ما يستحق من التعظيم ، وأما خامساً فقوله تعالى في آخر الآية .
انّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ، إنما أتى به على
التلطف والإينصاف مخافة أن يبعدوا عن الهداية ومحاذرة
عن تفارهم عن طريق الصواب فرضاً وتقديراً ، وإلا فلو كان
مسرفاً كذاباً ، لما هداه الله الى النبوة ، ولما اعطاه اياها ، وفي
هذا الكلام من الاستدراج للخصم وتقريبه وإدناؤه الى
الحق ما لا يخفى على أحد من الأكياس ، وقد تضمن من
اللطائف ما لا سبيل الى جحده ، ومن هذا قوله تعالى في
قصة خليله إبراهيم صلوات الله عليه في خطابه لأبيه (وأذكر
في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه
يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يُغني عنكَ شيئاً
يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِكَ فاتَّبِعني أَهْدِكَ
صراطاً سويّاً يا أبتِ لا تعبدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كانَ
للرحمنِ عَصياً يا أبتِ إني أَخَافُ أن يَمَسَّكَ عَذَابُ من
الرحمنِ فتكونَ للشيطانِ وليّاً) فهذا كلامٌ يهزُّ الأعطاف

ويأخذ بمجامع القلوب في الاستدراج والإذغان والانقياد
بألطف العبارات وأرشفها ، وهو مشتمل على حسن الملاطفة
من أوجه : أمّا أولاً فلان إبراهيم صلوات الله عليه لما أراد
هداية أبيه الى الخير وإيقادَه مما هو متورط فيه من الكفر
والضلال الذي خالف فيه العقل ، ساق معه الكلام على أحسن
هيئة ، ورتبه على أعجب ترتيب ، من حسن الملاطفة
والاستدراج والرفق في الخصمة والحجاج ، والأدب العالى
وحسن الخلق الحميد ، وذلك انه بدأ بطلب الباعث له على
عبادة الأوثان والأصنام ، ليتوصل بذلك الى قطعه وإفحامه ،
ثم إنه تكايس معه بأن عرض اليه بأن من لا يسمع ولا
يبصر لا يغنى شيئاً من الأشياء لا يكون حقيقاً بالعبادة ، وأن
من كان حياً سمياً بصيراً مقتدرّاً على الإثابة والعقاب ، متمكناً
من العطاء والإينعام والتفضل ، من الملائكة وسائر الانبياء
من جملة الخلق فإنه لا يستحق العبادة ويُستسَخفُ عقل من
عبده ، فكيف من هذه حاله في عدم الحياة والسمع والبصر
من جملة الجمادات والأحجار التي لا حراك لها ولا حياة بها ،
وأما ثانياً فلأنه دعاه الى التماس الهداية من جهته على جهة
النبيه والرفق به وسلوك جانب التواضع ، فلم يخاطب أباه

بالجهل عما هو يدعو إليه ، ولا وَّصَفَ نَفْسَهُ بِالاطَّلَاعِ عَلَى
كُنْهِ الْحَقَائِقِ ، وَالِاخْتِصَاصِ بِالْعِلْمِ الْفَائِقِ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ :
مَعِيَ لَطَائِفٌ مِنَ الْعِلْمِ وَبَعْضٌ مِنْهُ ، وَذَلِكَ هُوَ عِلْمُ الدَّلَالَةِ عَلَى
سُلُوكِ طَرِيقِ الْهُدَايَةِ ، فَاتَّبَعْنِي أَنْجِيكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ ، وَقَالَ لَهُ ،
أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ، وَلَمْ يَقُلْ أَنْجِيكَ مِنْ وَرْطَةِ الْكُفْرِ
وَأُتْقِدِكَ مِنْ عَمَاءِ الْحَيْرَةِ ، تَأْدُبًا مِنْهُ ، وَاعْتِصَاءً عَنْ مُبَادَاتِهِ
بِقَبِيحِ كُفْرِهِ ، وَتَسَاحُجًا عَنْ ذِكْرِ مَا يَغِيظُهُ ، وَأَمَّا ثَالِثًا فَلَأَنَّهُ
ثَبَّتَهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَنَهَاهُ عَنْهُ ، فَقَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ الَّذِي عَصَى
رَبَّكَ وَكَانَ عَدُوًّا لَكَ وَلَا يُبِيحُ آدَمَ ، هُوَ الَّذِي أَوْقَعَكَ فِي هَذِهِ
الْحَبَائِلِ ، وَوَرَّطَكَ فِي هَذِهِ الْوُرْطِ وَأَلْقَاكَ فِي بَحْرِ الضَّلَالَةِ ،
وَإِنَّمَا خَصَّ إِبْرَاهِيمَ ذَكَرَ مَعْصِيَةَ الشَّيْطَانِ اللَّهُ تَعَالَى فِي
مُخَالَفَتِهِ لِأَمْرِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ ، وَلَمْ يَذَكَرْ عِدَاوَتَهُ لِآدَمَ وَحَوَاءَ ،
وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ أَجْلِ إِيمَانِهِ فِي نَصِيحَتِهِ فَذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ
الْأَصْلُ تَحْذِيرًا لَهُ عَنْ ذَلِكَ وَعَنْ مَوَاقِعَتِهِ ، وَأَمَّا رَابِعًا فَلَأَنَّهُ
خَوَّفَهُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ بِالْعَذَابِ السَّרْمَدِيِّ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَصْرَحْ
لَهُ بِعِمَاسَةِ الْعَذَابِ لَهُ إِكْبَارًا لَهُ ، وَإِعْظَامًا لِحُرْمَةِ الْأَبْوَةِ ،
وَلَكِنَّهُ أَتَى بِمَا يَشْعُرُ بِالشَّكِّ فِي ذَلِكَ تَأْدُبًا لَهُ فَقَالَ لَهُ (إِنِّي

أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ) ثُمَّ إِنَّهُ نَكَرَ الْعَذَابَ
تَحَاشِيًا عَنْ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ عَذَابٌ مَعَهُودٌ يَخَافُ مِنْهُ ،
كَأَنَّهُ قَالَ وَمَا يُؤْمِنُكَ إِلَّا بِقِيَّتِ عَلَى الْكُفْرَانِ تَسْتَحِقُّ عَذَابًا
عَظِيمًا عَلَيْهِ ، وَأَمَّا خَامِسًا فَلِأَنَّهُ صَدَّرَ كُلَّ نَصِيحَةٍ مِنْ هَذِهِ
النِّصَاحِ بِذِكْرِ الْأَبْوَةِ ، تَوَسَّلًا إِلَيْهِ بِحُنُو الْأَبْوَةِ وَاسْتِعْطَافًا لَهُ
بِرَفْقِ الرَّحْمِيَّةِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَسْرَعَ إِلَى الْإِتْقِيَادِ ، وَأَدْعَى
إِلَى مَفَارِقَةِ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُ
هَذَا وَتَفَطَّنَ لِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ ، أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِفِظَاظَةِ الْكُفْرِ ، وَجَلَافَةِ
الْجَهْلِ ، وَغِلَظِ الْعِنَادِ ، فَنَادَاهُ بِاسْمِهِ وَلَمْ يَقُلْ يَا بُنَيَّ كَمَا قَالَ
إِبْرَاهِيمُ ، يَا أَبَتِ ، إِعْرَاضًا عَنْ مَقَالَتِهِ وَإِصْرَارًا عَلَى مَا هُوَ
فِيهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدَّمَ خَبَرَ الْمَبْتَدَأِ بِقَوْلِهِ (أَرَاغِبُ أَنْتَ) اِهْتِمَامًا
بِالْإِنْكَارِ وَتَمَادِيًا فِي الْمُبَالَغَةِ فِي التَّعْجِبِ عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ
إِبْرَاهِيمِ مِثْلَ هَذَا ، فَانظُرْ مَا بَيْنَ الْخَطَايَيْنِ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي
الرِّقَةِ وَالرَّحْمَةِ وَحَسَنِ الْإِسْتِدْرَاجِ ، (فَلِلَّهِ دَرَّةُ الْإِنْبِيَاءِ) فَمَا
أَسْجَحَ خَلَائِقَهُمْ ، وَأَرْقَ شِمَائِلَهُمْ ، وَفِي الْقُرْآنِ سَعَةٌ مِنْ هَذَا ،
وَمَمْلُوءٌ مِنْ حَسَنِ الْحِجَابِ وَالْمَلَاظِفَةِ ، خَاصَّةً لِمُنْكَرِي الْمَعَادِ
الْأُخْرَى ، وَعِبَادِي الْأَوْثَانِ وَالْإِصْنَامِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَعَى
عَلَيْهِمْ فِعَالَهُمْ ، وَسَجَّلَ عَلَيْهِمْ ، فَانظُرْ إِلَى حِجَابِهِ لِمُنْكَرِي

البعث بقوله (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ) كيف أضمهم
بالإلزامات ، وإلى حجاجه لعباد الاصنام بقوله (انّ الذين
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ) الى
آخر الآية ولولا أنه يُخرجنا عن المقصد الذي تصدّينا له
لذكرنا فيه أمثلة رائقة ونبهنا فيه على أسرار بديعة

(المثال الثاني)

من السنّة الشريفة ، ولا شك أنّ له صلى الله عليه مع
الكفار من عبدة الأوثان والاصنام وغيرهم من أهل الكتب
كاليهود والنصارى ملاطفةً في حسن الاستدراج ولين
العريكة ، والتهاك في دعائهم الى الدين ، والإيمان في
الانقياد له ، شيء كثير لا يُحصر عدده ، ولا يتجاوز أمده ،
فمن ذلك ما حكاه ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق : أنّ
النبي صلى الله عليه كتب الى أخبار اليهود فقال : بسم الله
الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه ،
والمصدق لما جاء به موسى ، ألا إنّ الله قد قال لكم يا معشر
أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم ، محمد رسول
الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم

رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وَجْهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي
الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى
عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ، وَإِنِّي
أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ ، وَأَنْشُدُكُمْ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ ، وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أُطْعِمَ
مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَسْبَاطِكُمْ ، الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ، وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي
أَيَّسَ الْبَحْرَ لَأَبَائِكُمْ حَتَّى أَنْجَاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ، إِلَّا
أَخْبَرْتُمُونَا : هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُوْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ،
وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ فَلَا كُرَّةَ عَلَيْكُمْ قَدْ
تَبَيَّنَ الرَّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَأَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى نَبِيِّهِ ، فَلْيَنْظُرِ
الْناظِرُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ مِنْ لَطِيفِ الْمَحَاوِرَةِ
وَحَسَنِ الْاسْتِدْرَاجِ الْمُزِيلِ لِلْأَحْقَادِ وَالضَّغَائِنِ ، وَالْمَوْثُرِ فِي
إِزَالَةِ السَّخَائِمِ عَنِ الْقُلُوبِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَوْجِهِ ، أَمَّا أَوْلَا فَلَانَهُ
صَدَّرَ كِتَابَهُ بِقَوْلِهِ صَاحِبِ . مَوْسَى وَأَخِيهِ (١) يَعْنِي هَارُونَ ،

(١) كَذَا فِسر . وَالظَّاهِرُ ان الْمُرَادُ بِأَخِيهِ . هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ سَلَمَ . وَيَدُلُّكَ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ الْآتِي صَاحِبًا لِنَبِيِّهِمْ وَأَخَاهُ لَهُ

وإنما فعل ذلك إزالةً للوحشة عنهم ، وتقريراً لخواطرتهم ،
وإيناساً لقلوبهم عن نفارها عنه بكونه صاحباً لنبيهم
وأخاً له ومصداقاً لما جاء به موسى ، كل ذلك إنما يفعله
على جهة الملاطفة ليستدرجهم إلى تصديقه بالمحاوراة اللطيفة .
والخطابات المؤنسة ، وأما ثانياً فلأنه قال : يا معشر أهل
التوراة ، تشریفاً لهم ورفعاً لمكانهم ، حيث صاروا مختصين
بكتاب الله تعالى من بين سائر الخلق ، وأما ثالثاً فهو أنه
احتج عليهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره من كونه
مكتوباً عندهم في التوراة ، ولم يقل لهم انظروا في معجزتي ،
ولكنه وكلهم إلى معرفته بما يعرفونه ، رفقا بهم ومناصحة
وتقريراً لما هم عليه من ذلك ، ثم إنه تلا وصفه في التوراة
ليُذعنوا بالتصديق على سهولة وقرب ، وأما رابعاً فلأنه قد
أورد ذكر وصفه ووصف أصحابه في الإنجيل ليُعرفهم بذلك ،
إيناساً لهم وتقريباً ، وأما خامساً فلأنه ذكر المناشدة ، تذكيراً
لهم بالآلاء العظيمة ، والنعم المترادفة . بإكرامهم ، فأولها المنَّة
عليهم بإنزال التوراة وما شرع لهم فيها من الشرائع ، وثانيها
بإطعامهم المن والسلوى ، وثالثها فلق البحر وشقه حتى جازوا
فيه وأنجاهم من عدوهم بذلك ، فانظر إلى ما اشتمل عليه هذا

الكتاب من الاستدراج الحسن ، واللطف المستحسن ،
والبسط الذي يؤنس القلوب عن نفاها ، ويكسبها الإقرار
بعد إنكارها ، ولو قال في كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من
محمد رسول الله الناسخ لشريعة موسى بن عمران ، والمأحى
لآثارها ، والطامس لأعلامها ، الى معشر اليهود الذين خالفوا
وبدّلوا أحكام التوراة وكذبوا بما جاء من عند الله . وخانوا
عهد الله ، واشتروا بآياته ثمناً قليلاً ، أنشدكم بالله الذي مسخكم
قردةً ، وأنزل بكم نكاله ، وضرب عليكم الذلة والمسكنة ،
وأهانكم بالتزام الجزية ، وأقعكم مقاعد الهوان ، حيث
جحدتم نبوتى ، وأنتم تعرفون بها حقيقة . لا لبس فيها ، كما
تعرفون أبناءكم ، لكان تنفيرا ، ولم يكن استدراجا ، ولصار
لجأجا ، أحقّ من أن يكون تقريباً وحججاً ، ثم أقول لقد
كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمكان من الملاطفة وحسن
الحجاج قبل الهجرة بالمشرّكين من أهل مكة وغيرهم من سائر
القبائل ثم ما كان منه من الملاطفة بعد الهجرة باليهود بنى
قُرَيْظَةَ وَبَنَى النَّضِيرَ حَتَّى هَلَكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةِ وَحَى مَنْ حَى
عَنْ بَيْنَةِ

(المثل الثالث)

من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه، ولقد كان له عليه السلام من الاستدراجات الرائقة خاصة مع معاوية، وفرق الخوارج وغيرهم ممن نكص عن الإسلام على عقبه، ولغيرهم من أصحابه من العنايات الحسنة ما يشفي غليل الصدور، ويوضح ملتبسات الأمور، فمن ذلك ما ذكره خطاباً لمعاوية فاتق الله يا معاوية في نفسك، وجاذب الشيطان قيادك، فإن الدنيا منقطعة عنك، والآخرة قريبة منك، فكيف أنت إذا انكشف عنك جلايب ما أنت فيه من دنيا قد بهجت بزيتها، وخذعت بلذتها، دعتك فأجبتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرتك فأطعتها، وإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه منبج، فاقس عن هذا الأمر، وخذ أهبة الحساب، وشمّر لما نزل بك، ولا تمكّن الغواة من سمك، فهذا وما شاكلة استدراج وحسن ملاطفة، وله عليه السلام في غير هذا الموضوع كلام فيه خشونة عظيمة، ومن ذلك ما قاله لعبد الله بن عباس عند استخلافه إياه على البصرة : سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَتَجَلِّسْكَ وَحِلْمِكَ، وَإِيَّاكَ وَالغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ،

واعلم أن ما قربك من الله بعدك من الشيطان والنار ، وما
باعدك من الله يقربك من النار والسلام ، ومن ذلك يخاطب
به معاوية ، مناصحةً له وتقريباً له من الحق : أما بعدُ فإن الله
جعل الدنيا لما بعدها ، وابتلى فيها أهلها ليعلم أيهم أحسنُ
عملاً ، ولسنا للدنيا خلقنا ، ولا للسعى فيها أمرنا ، وإنما وضعنا
فيها لنبتلى بها ، وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي ، فجعل
أحدنا حجةً على الآخر ، فعدوت على طلب الدنيا بتأويل
القرآن ، فطابتني بما لم تجن يدي ولا لساني ، وعصيته أنت
وأهل الشام ، وأثب عالمكم جاهلكم ، وقائمكم قاعدكم ،
فاتق الله في نفسك ، ونازع الشيطان قيادك ، واصرف الى
الآخرة وجهك ، فهي طريقنا وطريقك ، واحذر أن يصيبك
الله بما جل قارعة تمس الأصل ، وتقطع الدابر ، فإنني أولى
لك بالله أليّة غير فاجرة ، لئن جمعتي وإيالك جوامع الأقدار
لا أزال بساحتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ،
وقال أيضاً مخاطباً له أما بعدُ ، فقد علمت إغذاري فيكم ،
وإعراضي عنكم ، حتى كان ما لا بد منه ، ولا مدفع له ،
والحديث طويل ، والكلام كثير . وقد أذبر من أذبر ،

وأقبل من أقبل ، فتابع من قبلك ، وأقبل الى في وفد من اصحابك والسلام ، وقال يخاطبه بالاستدراج : أما بعد فإني على التردد في جوابك ، والاستماع الى كتابك ، لموهن رأيي ومخطي فراستي ، وإينك إذ تحاولني الامور ، وتراجعني السطور ، كالمشتغل النائم ، تكذبه أحلامه ، والمتحير القائم ينهضه مقامه لا يدري آله ما يأتي أم عليه ، ولست به ، غير أنه كل شبيه ، وأقسم بالله لولا بغض الاستبقاء لوصلت مني اليك قوارع تفرع العظم ، وتنهس اللحم ، واعلم أن الشيطان قد ثبّطك عن أن تراجع أحسن أمورك ، وتأذن لمقال نصيحك والسلام ، وقال يخاطب طلحة والزبير بالملاطفة العجيبة : أما بعد فقد علمتُما وان كتمتُما أني لم أورد الناس حتى أرادوني ، ولم أبايعهم حتى بايعوني ، وأنكما ممن أرادني وبايعني ، وأن العامة لم تبايعني لسلطان غالب ، غاصب ، ولا لغرض حاضر ، فإن كنتما بايعتاني طائعين ، فارجعا وثوبا الى الله من قريب ، وان كنتما بايعتاني كارهين فقد جعلتاني لي عليكما السبيل ، بإظهاركما الطاعة ، وإسراركما المعصية ، ولعمري ما كنتما بأحق من المهاجرين بالتقية والكتمان ،

وإن دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخل فيه كان أوسع
عليكما من خروجكما منه بغير إقراركما به ، وقد زعمتُما أني
قتلتُ عثمان ، فبينى وبينكما من تخلف عني وعنكما من أهل
المدينة ، ثم يلزم كل امرئ بقدر ما احتمل ، فارجعا أيها
الشيخان عن رأيكما فإن الآن أعظم أمركما العار من قبل أن
يجتمع العار والنار والسلام ، وقال أيضاً يخاطب محمد بن أبي
بكر لما بلغه توجده عليه حين عزله بالأشتر : وقد بلغنى
موجدتُك من تسريح الأشتر الى عمك واني لم أفعل ذلك
استبطاءً لك في الجهد ، ولا ازدياداً في الحد ، ولو نزعْتُ ما
تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسرُ عليك مؤنةً
وأعجب اليك ولايةً ، إن الرجل الذي كنت وليته أمر
مصر كان رجلاً لنا ناصحاً ، وعلى عدونا شديداً ناصحاً ،
فرجه الله ، فلقد استكمل أيامه ، ولاقى حمامه ، ونحن عنه
راضون ، أولاه الله رضوانه ، وضاعف الثواب له ،
فاضحراً لعدوك ، وامض على بصيرتك ، وشمر لحرب من
حاربك ، وادع الى سبيل ربك ، وأكثر الاستعانة بالله ،
يكفك ما أهمك ويعنك على ما ينزل بك والسلام ، فهذا
ما أردنا ذكره من كلام أمير المؤمنين في الاستدراجات

اللطيفة ، وكم له في هذا النوع من الكلمات لأنه كان قد بلى بحرب أهل القبلة وخروجهم عليه ، فكان حريصاً على إبانة الحجّة ، وإيضاح الحجّة ، بالأقوال اللطيفة ، والخطابات الرقيقة ، إبلاغاً للحجّة ، وقطعاً للمعذرة ، والله درُّ أمير المؤمنين ، فلقد كانت قوَالاً للحقّ ، فعلاً له ، موضح السنن والمعالم ، والناصح لله وللدّين لا تأخذه فيه لومة لائم

(المثال الرابع)

ما ورد عن البلغاء في الاستدراج ، يحكى أنه وقعت بين الحسين بن علي صلوات الله عليه ، وبين معاوية بن أبي سفيان مفاوضة في أمر ولده يزيد ، وذلك أن معاوية قال للحسين بن علي : أمّا أمك فإنها خيرٌ من أمّه ، وفاطمة بنت رسول الله خيرٌ من امرأة من كلب ، وأمّا حبيبي يزيد فاني لو أعطيتُ به مثلك ملء الغوطة ما رَضيت ، وأمّا أبوك وأبوه ، فإنهما تحاكما إلى الله فحكّم لأبيه عليّ أيبك ، فلينظر الناظر ما اشتمل عليه كلام معاوية من المراوغة عن الحق وتلبيس الأمر في ذلك على السامع بلطف الاستدراج وحسن الإجمال مع ما فيه من البلاغة والفصاحة ، فانظر إلى عظم

دهائه ، وإغراقه في الحذق والكياسة ، حيث علم وتفظن ما كان لأمر المؤمنين من سبق في الإسلام ، وحسن الإيلاء في الجهاد لأعداء الله ، وما خصه الله به من العلم الباهر والتقدم الراسخ في الزهد والعبادة فلم يتعرض للمفاخرة في ذلك ، ولا دعاً الى المنافرة ، ولو قال إن الله قد أعطاني الدنيا ، ونزعها منكم ، لأن مثل هذا لا فضل فيه ، لأن الدنيا لها البر والفاجر ، ولكن صفح عن ذلك كله ، وأعرض عنه ، وأتى بكلام مبهم لا يفهم منه المقصود ، وهو قوله : إن أباك وأباه تحاكما الى الله فحكم لأبيه على أبيك ، فانما أتى بهذا الكلام ليسكت خصمه ، ويستدرجه الى الإصمات ، وهذا من غدره ودهائه قليل ، ومن لطيف ما جاء في الاستدراج من المنظوم ما قاله أبو الطيب المتنبى : وذلك أن سيف الدولة كان مخيماً بأرض الديار البكرية على مدينة ميأ فارقين ، ليأخذها فعصفت الريح خيمته فأسقطتها فتطير الناس لذلك ، وقالوا إنه لا يأخذها فامتدحه أبو الطيب بقصيدة لامية يعتذر فيها عن سقوط الخيمة ، ويستدرج ما أثير ذلك في صدره بالإزالة والمحو ، تقريباً لخاطره ،

وتطيباً لنفسه، فأجاد فيها كلَّ الإِجادة، وأحسن في الاعتذار
والاستدراج غاية الإِحسان، مطلعها: (أَيَنْفَعُ فِي الْخَيْمَةِ
الْعُدْلُ) ومنها قوله

تضيقُ بشخصك أَرْجَاؤُهَا
وَيَرْكُضُ فِي الْوَاحِدِ الْجَحْفَلُ
وتقصرُ ما كنتَ في جَوْفِهَا
وَتُرَكِّزُ فِيهَا الْقَنَا الذُّبْلُ

ثم قال

وَإِنَّ الْخِيَامَ بِهَا تَخَجَّلُ	وَإِنَّ لَهَا شَرْفًا بَادِخًا
فَمَنْ فَرَحَ النَّفْسِ مَا يَقْتُلُ	فَلَا تُنْكَرَنَّ لَهَا صَرْعَةٌ
أَشِيْعَ بِأَنَّكَ لَا تَرْحَلُ	وَلَمَّا أَمَرْتَ بِتَطْنِيْبِهَا
وَلَكِنْ أَشَارَ بِمَا تَفْعَلُ	فَمَا اعْتَمَدَ اللَّهُ تَقْوِيْبِضَهَا
وَأَنَّكَ فِي نَصْرِهِ تَرْفَلُ	وَعَرَّفَ أَنَّكَ مِنْ هَمِّهِ
وَمَا الْحَاسِدُونَ وَمَا قَوْلُوا	فَمَا الْعَانِدُونَ وَمَا أَمَلُوا
وَهُمْ يَكْذِبُونَ فَمَنْ يَقْبَلُ	هُمْ يَطْلُبُونَ فَمَنْ أَدْرَكُوا
نَ وَمِنْ دُونِهِ جَدُّكَ الْمُقْبَلُ	وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ مَا يَشْتَهُوْ

فهذه الأبيات من أعظم الأمثلة في الاستدراج وإزالة

ما يقع في النفوس ، ولو لم يكن في شعره الآ هذه القصيدة ،
لكانت كافيةً في معرفة فضله ، وكونه فائقاً فيه ، ولتقتصر على
هذا القدر من أمثلة الاستدراج ففيه كفاية

﴿ الفصل الرابع ﴾

(في الامتحان)

اعلم أن من المعاني ما يكون متوسطاً فيما أُتِيَ به من
أجله ، فيكون اقتصاداً ، ومنها ما يكون قاصراً عن الغرض
فيقال له تفريطٌ ، ومنها ما يكون زائداً عن الحدِّ فيكون
إفراطاً ، فهذا الفصل يسمى الامتحان لما كان فيه الإِفادةُ
لمعرفة هذه الأمور الثلاثة ، فإذا عرفت هذا فاعلم أن هذه
الأمور الثلاثة ، أعني الاقتصاد ، والتفريط ، والإِفراط ، لها
مدخلٌ في كل شيء من العلوم والصناعات ، والأخلاق
والطبائع ، ولا بُدَّ من بيان معانيها في الأوضاع اللغوية ، ثم
نظهر نقلها الى المعاني

فأمّا الاقتصادُ فاشتقاقه من القصد وهو العدلُ الذي
لا يميل الى أحد الطرفين ، قال الله تعالى (فَهُمْ مُقْتَصِدٌ)

فوسطه بين قوله (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)
فَظَلَمَ النَّفْسَ ، وَالسَّبِقُ بِالْخَيْرَاتِ هُمَا طَرَفَانِ ، وَالْاِقْتِصَادُ
أَوْسَطُهُمَا ، وَقَالَ تَعَالَى (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ
يَقْتَرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) فَالْإِسْرَافُ ، وَالْإِقْتَارُ طَرَفَانِ ،
وَالْقَوَامُ ، هُوَ الْوَسَطُ وَالْاِقْتِصَادُ ، لِأَنَّ الْوَسَطَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
طَرَفَيْنِ ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا ،
وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ لِبَاسِ الشَّهْرَتَيْنِ ، فَلَا
بُدَّ هُنَاكَ مِنْ وَسَطٍ مَأْمُورٍ بِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ أَهْلِ الصَّلَاحِ ، فَلَا
يَكُونُ لِبَاسُ أَهْلِ الْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ وَلَا لِبَاسُ أَهْلِ الْإِدْقَاعِ
وَالْفَقْرِ وَالْمَسْكِنَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ

عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ تَمْرُ (١)

إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ

وَالْوَسَطُ مُسْتَحْسَنٌ عَقْلًا ، وَشَرَعًا ، وَعَرَفًا ، وَأَمَّا التَّفْرِيطُ
فَهُوَ التَّقْصِيرُ وَالتَّضْيِيعُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى (مَا فَرَطْنَا فِي
الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) أَي مَا أَهْمَلْنَا مِنْ إِيدَاعِهِ الْمَصَالِحَ الدِّينِيَّةَ ،
وَلَا ضَيَعْنَاهَا مِنْهُ ، وَأَمَّا الْإِفْرَاطُ ، فَهُوَ الْإِسْرَافُ فِي الشَّيْءِ

(١) الرواية عليك بالقصد فيما أنت فاعله

والتجاوز للحدّ فيه يُقالُ أفرط في الشئ ، اذا تجاوز الحدّ ،
فصار التفريطُ والإفراطُ هما الطرفان الضدّان ، والاقتصادُ
هو الوسطُ في الاعتدال ، فهذه هي المعاني التي تفيدها هذه
الألفاظ من جهة اللغة ، فاذا عرفتها فنقول قد نُقلت هذه
المعاني الثلاثة الى أمور مصطلح عليها في علوم البيان ، نوضحها
ونجعلها على مراتب ثلاث

(المرتبة الأولى في الاقتصاد)

ومعناه أن يكون المعنى المندرج تحت العبارة على
حسب ما يقتضيه المعبرُ عنه مساوياً له من غير زيادة ،
فيكون إفراطاً ، ولا نقصاناً ، فيكون تفريطاً ولنورد فيه
أمثلة أربعة توضح المقصود منه بمعونة الله تعالى

(المثال الأول)

من كتاب الله تعالى : وهذا كقوله تعالى في صدر سورة
البقرة في صفة المتقين (هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ

على هُدَى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فهذه الأوصاف على
نهاية الاقتصاد والتوسط من غير إفراط ولا تفريط ، وقوله
تعالى في افتتاح سورة المؤمنين في صفة أهل الايمان (قد
أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن
اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون) الى قوله (أولئك هم
الوارثون) والقرآن واردٌ على هذه الطريقة ، فإنه واردٌ على
نهاية الاعتدال والتوسط ، فهذا ما ورد في المدح ، فأما الذمُّ
فكقوله تعالى في سورة نون يخاطب به الوليد بن المغيرة
المخزومي ، وقيل الأخنس ابن شريق ، وقيل الأسود بن
عبد يغوث (ولا تطع كل حلاف مهين همّاز مشاء بنميم
مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم) فهذه أوصاف
دالة على الذم ، صادقة عما هم عليه من هذه السمات جارية
على جهة الاعتدال والتوسط من غير إفراط ولا تفريط ،
وهكذا القول في جميع علوم القرآن وأصوله من الأوامر ،
والنواهي والوعد ، والوعيد ، والقصص ، والأمثال ، فإنها جارية
على جهة التوسط والاعتدال لا تخرج عن حدٍ فيما تناولته من
مدح ولا ذم ولا غيره كما يكون الخروج في غيره

(المثل الثاني)

من السنة النبوية، فمن ذلك قوله صلى الله عليه: ألا أحدثكم بأحبكم اليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يالفون ويؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم اليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة، الثرثارون المتفيهقون فانظر الى حبه. فما أعدله، والى بغضه. ما أقومه، فأعطى المحب ما يليق به، وأعطى المبغض ما يستحقه من غير إفراط في الجانبين، ولا تفريط في أحدهما ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، قريبٌ من النار، والسخيُّ قريبٌ من الله قريبٌ من الناس، بعيدٌ من النار، وقال عليه السلام: إن مع العزِّ ذلاً، وإن مع الحياة موتاً، وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكلِّ شيءٍ حسيباً، وإن على كلِّ شيءٍ رقيباً، وإن لكلِّ أحدٍ كتاباً، ولكلِّ حسنةٍ ثواباً، ولكلِّ سيئةٍ عقاباً، وقوله صلى الله عليه وسلم: اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك، وفرغك قبل شغلك، وقوله صلى الله عليه وسلم: إنّه من خاف البيات

أَدْلَجَ ، وَمَنْ أَدْلَجَ فِي الْمَسِيرِ وَصَلَ ، وَإِنَّمَا تَعْرِفُونَ عَوَاقِبَ
أَعْمَالِكُمْ لَوْ قَدْ طُوِيَتْ صَحَائِفُ آجَالِكُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ . إِنَّ
نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ ، وَنِيَّةَ الْفَاسِقِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ ،
فَلْيَتَأَمَّلِ الْمُتَأَمِّلُ فِي كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْاِقْتِصَادِ فِي الْوَعظِ ،
وَفِي وَصْفِ الْمَحَبَةِ وَالْبَغْضِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِ فَإِنَّهُ لَا مَرِيَّةَ
فِي كَوْنِهِ سَالِكًا فِيهَا طَرِيقَةَ الْقَصْدِ ، وَنَاهِجًا مَنَهْجَ الْعَدْلِ
لَا يَغْلُو فَيُفْرِطَ وَلَا يَخْفِضُ فَيُفْرِطَ

(المثال الثالث)

من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، وهو جار فيما هو
فيه على قانون النصفية ، وسالك لطريق الحق والمعدلة ، من
ذلك ما قاله في صفة المؤمنين وأهل التقوى : وَإِنِ لِلذِّكْرِ
لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا ، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْهُ ،
يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ ، وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي
أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقَسْطِ وَيَأْتُمِرُونَ بِهِ ، وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ ، فَكُنَّا نَقْطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ ،
وَهُمْ فِيهَا ، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، فَكُنَّا نَطَّلِعُوا عَلَى غُيُوبِ أَهْلِ
الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عَذَابَهَا

فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا ، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون ، فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة ، ومجالسهم المشهودة ، وقد نشرُوا دواوين أعمالهم ، وفرغوا لمحاسنة أنفسهم ، على كل صغيرة وكبيرة أمرُوا بها فقصرُوا عنها ، أو نهَوْا عنها ففرطُوا فيها ، وحملُوا ثقل أوزارهم ظهورهم ، فضعفُوا عن الاستقلال بها ، فنشجُوا نشيجاً وتجاوبُوا نحيباً ، يعجُونَ الى ربهم من مقاومِ ندمِ واعتراف ، لرأيت أعلامَ هدى ومصايح دُجى ، قد حفت بهم الملائكة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وفتحت لهم أبواب السماء ، وأعدت لهم مقاعد الكرامات ، فى مقعدِ اطلع الله عليهم فيه فرضى سعيهم ، وحمدَ مقامهم ، رهائنُ فاقةٍ الى فضله ، وأسارى ذلةٍ لعظمته ، جرح طولُ الأسى قلوبهم ، وطولُ البكاء عيونهم ، لكلِّ بابِ رغبةٍ الى الله يدٌ قارعة ، يسألون من لا تضيقُ لديه المنادح ، ولا يخيب عليه الراغبون ، ومن كلامه عليه السلام يصف فيه أهل النفاق قال فيه : أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، وأحذركم أهلَ النفاق ، فإنهم الضالون المضلون ، والزالون المزلون ، يتلوتون ألوانا ، ويفتنون

افتنانا ، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ ، وَيُرْصِدُونَكُمْ بِكُلِّ مَرْصَادٍ ،
قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ ، وَصِفَاتُهُمْ نَقِيَّةٌ ، يَمْشُونَ الْحَفَاءَ ، وَيَدْنُونَ الضَّرَاءَ ،
وَصَفُّهُمْ دَوَائِدٌ ، وَقُلُوبُهُمْ شَفَاءٌ ، وَفِعْلُهُم الدَّاءُ العِيَاءُ ، حَسَدَةٌ
الرَّخَاءُ ، وَمُؤَكَّدُوا البَلَاءُ ، وَمُقْنِطُوا الرَّجَاءُ ، لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ
صَرِيحٌ ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دَمِوعٌ ،
يَتَقَارِضُونَ الثَّنَاءَ ، وَيَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ ، إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا ،
وَإِنْ عَذَّبُوا كَشَفُوا ، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا ، قَدْ أَعَدُّوا
لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا ، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا ،
وَلِكُلِّ بَابٍ مَفْتَحًا ، وَلِكُلِّ لَيْلٍ صَبَاحًا ، فَهَمُّ لَمَّةِ الشَّيْطَانِ ،
وَحُمَةُ النَّيْرَانِ ، أَوْلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنْ حِزْبَ
الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ، فَانظُرْ إِلَى كَلَامِهِ فِي الْفَرِيقَيْنِ كَيْفَ
أَبْرَزَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقِيقَةَ حَالِهِ ، وَمَيَّزَ أَحَدَهُمَا عَنِ
الْآخَرِ وَمَثَلَهُ بِأَعْجَبِ مَثَالِهِ ، قَدْ طَابَقَ بِكَلَامِهِ الْمُرَادُ ، مِنْ غَيْرِ
نَقْصَانٍ فِيهِ وَلَا إِزْدِيَادٍ ، وَأَقُولُ لَقَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِ الْبَلَاغَةُ
سُرَادِقَهَا ، وَأَحَاطَ مِنَ الْفَصَاحَةِ بِمَكْنُونِهَا وَأَسْرَارِ حَقَائِقِهَا

(المثال الرابع)

ما كان من كلام البلغاء في ذلك وهذا كقول الفرزدق

يمدح زين العابدين علي بن الحسين

هذا الذى تعرفُ البطحاءَ وطأتهُ
والبيتُ يَعْرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهم
هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلمُ
يكاد يُمَسِّكُهُ عِرْفَانِ راحتهِ
ركنُ الحطيمِ اذا ما جاءَ يَسْتَلِمُ
ومن هذا قولُ البحثريِّ

ولو أنْ مشتاقًا تكلفَ فوقَ ما

في وَسْعِهِ لَسَعَى اليك المَنِبَرُ
فهذا مدحٌ مقتصدٌ ليس فيه إسرافٌ ولا تقتيرٌ ولا
رِكبٌ صاحبه إفراطًا ولا تفريطًا ، ومن هذا قولُ بعضهم
يهجو غيره

لقد صَبَرْتُ في الذلِّ أَعْوَادُ مَنِبَرٍ

تَقُومُ عَلَيْهَا في يَدَيْكَ قَضِيبُ

فهذا ذمٌّ لم يرتكب فيه شَطَطًا ، ولا رام فيه فَرَطًا ،
بل وصفها بالذلِّ لكونها حاملةً له ، لان من هوانها كونه
راكبًا لها عاليًا عليها ، فهذا تقرير الأمثلة فيما جرى من
الكلام على جهة الاقتصاد

(المرتبة الثانية)

(فيما يجرى على جهة التفريط)

فيورد على جهة التقصير في المعبر عنه ، والتضييع
والإهمال له ، فمن ذلك ما قاله الفرزدق

أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا بَعِيرَيْنِ لَا نَرِدُ

عَلَى حَاضِرِ الْأَنْشَلِ وَتُقَدِّفُ

كَلَانًا بِهِ عُرٌّ يُخَافُ قِرَافَهُ

عَلَى النَّاسِ مَطْلِي الْمَسَاعِرِ أَخْشَفُ

فما هذا حاله من جملة التفريط لكونه من جملة
الأمنيات النازلة ، والمقاصد السخيفة ، التي لا ثمرة لها ولا
جدوى عندها ، فإن حاصل ما قال في هذين البيتين أنه قصر
أمنيته على أن يكون هو ومحبوبه ، كبعيرين أجر بين لا
يقربهما أحده ، ولا يقربان أحداً ، إلا طردهما ، نفاراً منهما ،
وعيفةً لمقاربتهما ، لما فيهما من العر ، وهو داء يصيب الإبل
في مشافرها ، والأخشف بالخاء والشين المعجمتين . البعير
الذي يجترى على المسير بالليل ، والقراف . المدانة والقرب ،
وغرضه من ذلك كله البعد عن الناس بمنزلة من به داء عظيم ،

يُتَأَفَّفُ مِنْهُ وَيُبْعَدُ عَنْهُ ، وَلَقَدْ كَانَ لَهُ مَنَدُوحَةٌ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ
الْأَمَانِي السَّخِيفَةِ الْبَعِيدَةِ ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ فِي
الْأَمَانِي الرَّقِيقَةِ ، وَالطَّرَائِفِ الرَّشِيقَةِ

(يَا رَبِّ إِنْ قَدَّرْتَهُ لِمُقْبَلٍ
غَيْرِي فَلِلْمَسْوَكَ أَوْ لِلْأَكْوَسِ)

(وَإِذَا حَكَمْتَ لَنَا بَعَيْنَ مُرَاقِبٍ
فِي الدَّهْرِ فَلْتَكُ مِنْ عَيُونِ النُّرْجِسِ)

فَانظُرْ مَا بَيْنَ الْأَمْنِيَّتَيْنِ مِنَ التَّفَاوُتِ الْعَظِيمِ وَمِنْ أَمْثَلَةِ
التَّفْرِيطِ مَا قَالَهُ أَبُو تَمَامٍ يَمْدَحُ رَجُلًا

يَتَّقَى الْحَرْبَ مِنْهُ حِينَ تَغْلِي مَرَاجِلُهَا بِشَيْطَانٍ رَجِيمٍ
فَمَا هَذَا حَالُهُ فِي الْمَدِيحِ ، مِنَ التَّفْرِيطِ وَالْإِهْمَالِ وَالتَّضْيِيعِ

الَّذِي لَا يُمْدَحُ بِمِثْلِهِ بِحَالٍ ، لِمَا فِيهِ مِنْ مَقَابِلَةِ الْمَمْدُوحِ بِأَقْبَحِ
الْأَسْمَاءِ ، وَأَسْوَأِ الصِّفَاتِ وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا يَمْدَحُ رَجُلًا

مَا زَالَ يَهْزِي بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا حَتَّى ظَنْنَا أَنَّهُ مَحْمُومٌ
وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا

أَنْتَ دَلُوءٌ وَذُو السَّمَاخِ أَبُو مَوْ

سَيِّ قَلْبِي وَأَنْتَ دَلُوءُ الْقَلْبِ

فما هذا حاله من المدائح التي نزلت في الرّكّة وكانت
معدودة في التفريط البالغ، ومن أمثلة التفريط ما قاله البحري
يمتدح الفتح بن خاقان في قصيدته المشهورة ويذكر فيها لقاءه
للأسد وقتله له

شهدت لقد أنصفته حين تبتري
له مُصَلَّتًا عَضْبًا من البيضِ مِقْضِبًا
فلم أَرِ ضِرْغَامِينَ أَصْدَقَ مِنْكُمَا
عَرَكَاءَ إِذَا الْهَيَّابَةُ النَّكْسُ كَذَبًا
فقوله : اذا الهيّابة النكس كذبًا . ليس فيه مدح ،
وقد فرّط في إيراده مدحا لهذا الرجل ، وكان الأخلق بالمدح
ان يقول : إِذَا الْبَطْلُ كَذَبٌ ، لانه الأمدح في إقدام المُقْدِمِ
في الموضع الذي يفرُّ منه الجبان ، إِذْ لَا فَضْلَ فِي مِثْلِ هَذَا ،
وانما الفضل فيما قاله ابو تمام

فَتَى كَلَّمَا ارْتَادَ الشَّجَاعُ مِنَ الرَّدَى
مَفْرًا غَدَاةَ الْمَأْزِقِ ارْتَادَ مَصْرَعًا
ومن التفريط ما قاله بعض الشعراء
وتلحقه عند المكارم هزّة
كما انتفض المحنوم من أمّ ملدّم

فهذه الامثلة كلها من المدائح التي وقع التفريط فيها ولا يجوز استعمالها ، فالمعنى فيها وان كان حسناً جيداً ، لكنه لأجل العبارة كان مستقبحاً مسترذلاً ، تعافه الطباع ، وتمجبه الأسماع ، وليس من التفريط شيء في كتاب الله تعالى ، ولا في السنة النبوية ، ولا ورد فيه شيء من كلام امير المؤمنين ، حراسةً من الله تعالى لها وكلاءةً منه عنها فأين ما ذكره هذا الشاعر مما قاله ابن الرومي يمدح أقواما

ذهب الذين تهزهم مدائحهم
هز الكماة عوالي المرات
كانوا اذا مدحوا رأوا ما فيهم
فالأريحية منهم بمكان
(المرتبة الثالثة)

ما يكون على جهة الإفراط وهو كما ذكر تجاوز الحد في المدح والذم وغيرهما من المقاصد ، وهل يجوز استعماله في الكلام أم لا ، فيه مذهبان ، المذهب الأول جواز استعماله ، وقالوا إن أحسن الشعر أ كذبُهُ ، بل أ كذبُهُ يكون أ صدقَهُ ، ويُصدق ذلك قوله تعالى (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فظاهر الآية

وإن كان وارداً على جهة الذمّ لهم بدليل ما قبلها ، لكنه
محمّلٌ للإباحة ، كأنه جعل ذلك من دأبهم ومن عادتهم ، وانه
لا شاعرَ يوجد الا وهذه صفته كما قال تعالى (والشُعراءُ يتَّبِعُهُمُ
الغَاوُونَ) كأنه صار متابعاً للغاوين لهم من جملة أوصافهم ، وقد
تهالك الشعراء في ذلك وأتوا فيه بكلّ مُعْجِبٍ مما يُنْجِلِ
الأذهان ، ويُصِمُّ الآذانَ لغرابته ، ويُحَيِّرُ الأفهامَ لشدة
الاعجاب به

(المذهب الثاني)

منعه آخرون ، وزعموا أن الأمور لها حدودٌ ونهاياتٌ مما
يدخل تحت الإمكان ، فأما ما كان من الأمور ما لا يدخل
تحت الإمكان ولا يُعقلُ وجوده فلا وجه له ، والمذموم من
الإفراط ما لا مدخل له في الوجود على حال ، والمختارُ عندنا
جوازه على كلّ أحواله ، لأنه اذا كان جائز الوجود فهو مُعْجِبٌ
لا محالة ، لاشتماله على المبالغة في المدائح وأنواع الذمّ ، وإن لم
يكن جائز الوجود ، فالإعجابُ به أشدُّ ، والملاحظة فيه أدخلُ ،
وقد ورد مثل ذلك في كتاب الله تعالى قال الله تعالى (وقد
مَكُرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ

لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ) على قراءة من قرأ بفتح اللام في تزول ،
لأنها هي الفارقة بين المؤكدة والنافية ، وعلى هذا يكون معنى
الآية وإن مكرهم لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ ، فأما من قرأ بكسر
اللام فإنها هي المؤكدة للجهنم ، وليس فيها دلالة ، ولا شك
أن من المحال في العقول أن المكر يُزيل الجبال ويُزحزحها
عن مُسْتَقَرَّاتِهَا ، وهكذا قوله (جَدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ
فَأَقَامَهُ) ومن المحال حصول الإرادة في الجدار ، وقوله تعالى
(لَهْدِمَتُ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ) ويستحيل الهدم في
الصلوات ، وقوله تعالى (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ) ويستحيل
في القرية ان تذوق ، وقوله (وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ)
والدم لا يكون كذباً الى غير ذلك من الاستعارات الرائقة ،
فإن كان الإفراط كله يكون قبيحاً فما هذا حاله مما ورد في
القرآن ليس إفراطاً ، وإن كان الإفراط منقسماً الى حسن
وقبيح ، فهذا الذي ورد في القرآن من أحسنه وأعجبه ، ولنورد
أمثلة الإفراط من المنظوم قال عنتره

وَأَنَا الْمَنِيعُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا

وَالطَّمَعُنُ مَنِي سَائِقِ الْأَجَالِ

ومن ذلك ما قاله بِشَّارٌ
إذا ما غَضِبْنَا غَضِبَةً مُضْرِبَةً
هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

ومن ذلك ما قاله النابغة الذبياني
إذا ارْتَعَشَتْ خَافَ الْجَبَانُ ارْتِعَاشَهَا
ومن يَتَعَلَّقُ حَيْثُ عَلِقَ يَفْرَقُ
يُصِفُ امْرَأَةً بِطُولِ عُنُقِهَا ، وَالرِّعَاطُ جَمْعُ رَعَثٍ وَهُوَ
الْقُرْطُ الْمَعْلَقُ بِالْأُذُنِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَ أَبُو نُوَّاسٍ يَمْدَحُ
رَجُلًا قَالَ

وَأَخَفَتَ أَهْلَ الشَّرْكِ حَتَّى إِتَى
لَتَخَافُكَ النُّطْفُ التِّي لَمْ تُخْلَقْ
ويحكى أن العتابي لقي أبو نواس فقال : أما خفت الله
تعالى واستحييت منه حيث تقول (وأخفت أهل الشرك)
البيت فقال له أبو نواس وأنت ما راقبت الله حيث قلت
ما زلت في غمرات الموت مطرحا
يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيَلِي
فَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي
حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي

فقال له العتّابي قد علم الله وعلمت أنّ هذا ليس من
مثل قولك، ولكنك تُعدُّ لكلِّ ناصحٍ جواباً، وقد أورد أبو
نُواس هذا المعنى في قالبٍ آخر فقال

كثرت منادمةُ الدماءِ سيوفه

فلقلَّ ما تحتازُها الأَجفانُ

حتى الذي في الرَّحْمِ لم يكِ صورةً

لفؤاده من خوفه خَفَقانُ

فانظر الى هذه المعاني ما أكذبها وما أطفها وأرقها

وأرشقها ، وكلُّ مَنْ خَرَقَتْ قِرْطاسَ سمعه فإنه يعجب منها

غاية الإعجاب ، فأما أبو الطيب المتنبي . فإنَّ له في الافراط

اليد البيضاء ، والطريقة المثلى قال

كأنَّ الهامَ في الهيجا عيونُ

وقد طُبعتْ سيوفُك من رُقادِ

وقد صنَّعتْ الأسنَّةَ من هُمومِ

فما يخطرُنَ الا في فؤادِ

فانظر الى هذه الاستعارة الرائقة التي أنافت على كلِّ

غاية، وجاوزت في الحسن والديباجة كلَّ نهاية، ومن ذلك ما قاله

طَوَالَ الرُّدَيْنِيَّاتِ يَقْضِيهَا دَمِي
وَبَيْضُ السُّرَيْجِيَّاتِ يَقْطَعُهَا لِحْمِي
وَمَنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ أَيْضًا

أَمْضَى أَرَادَتِهِ (فَسَوْفَ) لَهُ (قَدْ)
وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى (فَشَمَّ) لَهُ (هُنَا)

وَأَرَشَقُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَأَدْقُ قَوْلِهِ
عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عَشِيرًا
لَوْ تَبَتَّغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لِأَمْكِنَا

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا وَأَدْقُ ، مَا قَالَهُ أَيْضًا
كَأَنَّهَا تَتَلَقَّاهُمْ لِتَسْلُكِهِمْ
فَالطَّعْنُ يَفْتَحُ فِي الْأَجْوَابِ مَا تَسَعُ

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرَّقَائِقِ الرَّائِقَةِ وَالْعَجَائِبِ الْفَائِقَةِ الَّتِي
فَاقَ فِيهَا عَلَى نُظْرَائِهِ ، وَسَبَقَ إِلَى غَايَتِهَا قَبْلَ وَصُولِ شُعْرَائِهِ ،
وَمَنْ وَقَفَ عَلَى حِكْمِهِ وَأَمْثَالِهِ ، عَرَفَ أَنَّ أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ فِي
عَصْرِهِ لَمْ يَنْسَجْ عَلَى مَنَوَالِهِ

﴿ تَنْبِيهِ ﴾

اعلم أن من جملة الآداب الحسنة ، واللطائف المستحسنة ،
أن تترك الخطاب لأهل المدائح بالأمر له بكذا وكذا ،

وانما تُخْرِجُهُ مُخْرِجَ الاستفهام ، اعظاماً للمدوح وإجلالاً له ،
عن أن يكون مأموراً ، وما هذا حاله اذا فعل فانه يكسبُ
الكلامَ جمالا ويزيدهُ أُبهةً ويعطيه كمالا ، كما فعل البحريُّ
في قصيدةٍ أنشدها قال

فهل أنت يا بن الراشدين مُخْتَمِي

بباقوتةٍ تبهى عليَّ وتُشْرِقُ

ولو قال خَتَمِي يا بن الرشدين بباقوتة ، لم يكن في الرشاقة
والإجلال للخليفة كالأول ، ومن هذا قول بعضهم يمدح
بعض خلفاء بني العباس

أمقبولةٌ يا بن الخلائفِ من في

لديك بوصفي عادةُ الشعرِ رُودَه

فهكذا يصلح خطاب الملوك والخلفاء على هذا الوجه
من حسن الأدب ، ولقد غلا بعض من يدعى البلاغة وزعم
أنه لا ينبغي مخاطبة الملوك والخلفاء والأكابر بكاف الخطاب ،
وهذا فاسدٌ ، فان الله تعالى هو مالك الملك والمتعالى بصفات
الكمال ، قد خوطب بكاف الخطاب كقوله تعالى لرسوله صلى
الله عليه وسلم (واذكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا ، وقوله) (واعبُدْ رَبَّكَ حَتَّى

يَا تَيْكَ الْيَقِينُ) وقد جاء ذلك على السنة الفصحاء كثيراً ومنه
قول النابغة

وَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُذْرِكِي
وَإِنْ خَلْتُ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنْكَ أَوْسَعُ
وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ أَيْضاً

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةَ
وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

نَعَمْ إِنَّمَا يُكْرَهُ ذَلِكَ فِي الْمَكَاتِبَاتِ ، دُونَ الْأَقْوَالِ ،
وَإِنَّمَا يُؤْتَى فِي الْكِتَابَةِ عَلَى جَهَةِ الْغَيْبَةِ فِي مَخَاطَبَةِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ
الرَّفْعَةِ لَا غَيْرُ ، وَمِنْ الْأَدَابِ الْحَسَنَةِ أَنْ لَا تَخَاطَبَ الْمُلُوكَ
بِأَسْمَاءِ أُمَّهَاتِهِمْ وَجَدَّاتِهِمْ ، وَقَدْ عَيَّبَ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ مَا أوردَهُ
فِي قَصِيدَتِهِ الْمِيمِيَّةِ الَّتِي امْتَدَحَ بِهَا الْأَمِينَ مُحَمَّدَ بْنَ هَرُونَ
الرَّشِيدِ حَيْثُ قَالَ

أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ زُبَيْدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرٍ
أَمَلًا لَعَقْدِ حِبَالِهِ اسْتِحْكَامُ

فَإِنْ ذَكَرَ أُمَّ الْخَلِيفَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ قَبِيحٌ ، وَكَانَ لَهُ
مَنْدُوحَةٌ عَنْ ذِكْرِ مِثْلِ ذَلِكَ بِأَبِيهِ أَوْ بِجَدِّهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ

سائر المدائح المعروفة عند الشعراء المُفلقين ، وقد أُخِذَ عليه
ايضاً قوله في قصيدة اخرى
وليس كجدّتيه أمّ موسى اذا نُسِبت ولا كالخيزران
فان مثل هذا يعدُّ في الركيك من الشعر فضلاً عن أن
يكون معدوداً من فصيحته ، وهكذا فإنه قد أُخِذَ على جرير
في مدح عُمر بن عبد العزيز بذكر أمه حيث قال
وتبني المجد يا عُمر بن ليلى وتكفي المنجل السنة الجمادا
فهذا وامثاله مما يُعاب ذكره ، وينبغي للشاعر والخطيب
تجنبه كما أشرنا اليه ، لا يقال فكيف قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم في الزبير لما أخبر أنه سيقتل : بَشْرٌ قَاتِلَ ابْنِ
صَفِيَّةَ بِالنَّارِ ، فنسبه الى أمه ، لانا نقول هذا مخالف لما نحن
فيه ، فانه لا مدح بذكر امهات الخلفاء والملوك ، لانه لا فضل
فيهن ، بخلاف حديث الزبير ، فإن الرسول صلى الله عليه
وسلم ما قال ذلك الا ليرفع قدره في قُربِ نسبه منه ،
لكونه ابن عمته وهكذا العذر في قوله تعالى (يا عيسى
بن مريم ، فإن الله تعالى انما خاطبه بذكر أمه ، لما كان لا أب
له ، فيذكر باسم ابيه فكان ذكر الام ضرورة في حقه

(الفصل الخامس)

(في الارصاد)

اعلم أن الإِرْصَادَ في اللغة مصدر أَرْصَدَ الشيء ، اذا
أعدّه ، ومنه قوله تعالى (انَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) وهو مفعولٌ ،
من رصده ، كالمليقات ، من وَقَّتَهُ ، والغرض أن الله تعالى
أعدَّ العقاب للعصاة من غير أن يفوتوه بهربٍ ولا امتناع ،
وأرصدتُ السلاح للحرب ، وهو في لسان علماء البيان مقبول
في المنظوم والمنثور على أن يكون أول الكلام مرصداً لفهم
آخره ، ويكون مُشعراً به ، فمتى قرَعَ سَمْعَ السامع أولُ
الكلام فإنه يفهم آخره لا محالة ، فما هذا حاله من منشور
اللفظ ومنظومه يُقال له الإِرْصَادُ ، واشتقاقه هو مما ذكرناه ،
فهذا هو الأخلق في تلقيبه بالإِرْصَادِ لما ذكرناه ، وقد حُكِيَ
عن أبي هلال العسكري وكان متقدماً في علم البلاغة على
غيره أخذاً منها بحظٍّ وافر ، أنه لقب هذا النوع من الكلام
بالترشيح ، وهذا لا وجه له ، بل تلقيبه بالإِرْصَادِ أخلق لما
أشرنا إليه في الاشتقاق ، ولنورد أمثله ليتضح الأمر فيه
(المثال الاول) من كتاب الله تعالى ، وهذا كقوله

تعالى (وما كان الناسُ الاّ اُمةً واحدةً فاختلفوا ولولا كلمةٌ
سبقتُ من ربك لَقُضِيَ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون) فاذا
قرعَ سَمَعَ السامعُ قوله تعالى (وما كان الناسُ الاّ اُمةً واحدةً
فاختلفوا) ثم وقف على قوله (ولولا كلمةٌ سبقتُ من ربك
لَقُضِيَ بينهم) فانه يعرف لا محالة لما سبق من تصدير
الآية أن تَمَّتْهَا وَتَكَمَّلَتْهَا (فيما كانوا فيه يختلفون) لما تقدم
ما يُشعر بذلك ويدلّ عليه ، ومن ذلك قوله تعالى (فمنهم
مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، ومنهم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ومنهم
مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، ومنهم مَنْ أَغْرَقْنَا ، وما كان الله
ليظلمهم) فاذا وقف السامعُ على قوله (ولكن كانوا) عرف
لا محالة أن بعده ذكْرُ ظَلَمِ النّفوسِ لما كان في الكلام
الأول ما يدل عليه دلالة ظاهرة ، وأمارة قوية ، وعلى نحو
هذا جاء قوله تعالى (مثلُ الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ
لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ) فاذا وقف السامعُ على قوله (وإنّ أوهن
البيوت) فإنه يعلم لا محالة أن بعده بيتُ العنكبوتِ ، ومن
هنا قوله تعالى (ذلكَ جزيناهم بما كفروا وهل يُجَازِي الا

(الكفور) فاذا وقف السامعُ على قوله تعالى (وهل يُجازى) بعد ما تقدم من الكلام والإحاطة به ، فانه يعلم لا محالة أنه ليس بعد قوله وهل يجازى الآ (الكفور) وعلى هذا ورد قوله تعالى (هل جزاء الإِحسان الا الإِحسان) فاذا وقف السامع على قوله هل جزاء الاحسان ، تحقق لا محالة أن ما بعده قوله (الا الإِحسان) لما في ذلك من الملائمة وشدة التناسب ، ومثل هذا محمودٌ في الكلام كله ثره ، ونظمه ، وهو في كتاب الله تعالى أكثرُ من أن يُحصى ، وما ذاك الآ لأن خير الكلام ما دلّ بعضه على بعض ، وأحقُّ الكلام بهذه الصفة هو كلام الله ، فانه البالغ في الذروة العليا من الفصاحة في ألفاظه ، والبلاغة في معناه

(المثال الثاني)

من السنة الشريفة وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم : فما بعد الموت من مُستعْتَب ، وما بعد الدنيا دارٌ الا الجنةُ أو النار ، فانّ السامع إذا وقف على قوله ، فما بعد الدنيا من دار ، فانه يتحقق لا محالة أن ما بعده (الا الجنةُ أو النار) لما بينهما من شدة الملائمة وعظيم المناسبة ، ومن هذا قوله عليه السلام لما

سار لفتح خيبر ، فلما رآها قال الله أكبرُ خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين ، فان السامع اذا وقف على قوله : نزلنا بساحة قوم ، عرف أن ما بعده ، فساء صباح المنذرين ، لأن قوله اذا نزلنا بساحة قوم . فيه وعيدٌ عظيم لهم بالبوار والاهلاك فهو دال على قوله فساء صباح المنذرين ، لانه لا صباح أعظم في البلاء من ذلك اليوم لما اشتمل عليه من القتل والأخذ ، ونهب المال ، ولا بلاء مثل هذا ، وهذا وإن كان قد سبق به القرآن لكنه قد تكلم به في ذلك اليوم ، فلا جرم أوردناه في أمثلة السنة ، وإنما عظم موقع الآية وكان لها من الفخامة وعلو الشأن في البلاغة ، لما كانت واردة على جهة التمثيل ، مثل حالهم في عدم التفاتهم الى ما أنذروا من العذاب الاليم بحال من أنذر بحصول الجيش فلم يلتفتوا ولا أخذوا أهبة الحذر منه حتى نزل بدارهم فقطع دابرهم واستأصل شأفتهم ، فمن أجل هذا لاثم قوله فاذا نزل بساحتهم الى آخر الآية ، حتى فهم آخرها قبل ذكره ، ومن هذا قوله عليه السلام في صفة القرآن : فإذا التبتت عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ، فانه شافع مشفع

وشاهد مُصَدِّقٌ من جعله أَمَامَهُ قَادَهُ الى الجنة ، ومن جعله
خَلْفَهُ ساقه الى النار ، وهو أوضح دليل الى خير سبيل ، مَنْ
قال به صُدِّق ، ومن عمل به أُجِرَ ، ومن حَكَمَ به عَدَل ،
فانظر الى هذا الكلام ما أعجب تلاؤمه وأعظم تناسبه ، فكان
بعضه آخِذًا بأعناق بعض ، فلو سُكِّتَ على كلِّ كلمةٍ
لكانت مُعْرِبَةً بِأختها قبل ذكرها ، وهذا هو شأن الإِِرْصاد
وحقيقة أمره ، فلو سكت على قوله (فاذا التبت عليكم
الأمور) لَأُفْهِمَ بقوله (كقطع الليل المظلم) لأن اللبس
هو أن لا يُهْتَدَى فيه للأمر ، كما أن الظلمة لا يُهْتَدَى فيها
للطريق وقوله (شافع) دالٌّ على القبول لأنه في معرض
المدح ، وإِِعْلَامٌ بكونه مُشَفَّعًا وقوله (شاهد مصدق)
لأن الصدق أحسن ما يعرض للشهادة عند الحُكَّام ،
فاذا كانت المدحُ فأحسن أحوالها كونها صادقة وقوله
(من جعله أمامه) لأن كل من كان أمامك فهو آخِذٌ
بزمامك كما يقاد الجملُ بزمامه من قُدَّامه ، وهو كناية عن
العمل بأوامره ونواهيهِ وقوله (ومن جعله خلفه ساقه الى النار)
لأن من كان خِلفك فهو يسوقك كما تساق الدابة من خلفها ،

وهو كناية عن إهماله وتضييع أحكامه وترك العمل بها ، فلو سكت على قوله (أمام) و (خلف) لا فهما ما وراءهما من ذلك ، ثم قال (وهو أوضح دليل) فأفهم خير السبيل من جهة أن الدليل لا بد له من ثمرة وهو الهداية الى الطريق ، ثم قال (من قال به صدق) لانه لا يعرض للقول الحسن الا صدقه (ومن عمل به أُجر) لانه لا ثمرة للعمل الا الأجر ، وقوله (ومن حكم به عدل) لانه لا جدوى للحكم الا اذا كان عادلا فحصل من هذا أن الأمر على ما قلناه من أن هذه الكلمات كلها ملتزمة كأنها أُفرغت في قالب واحد وفي هذا كفاية ليقاس عليه غيره

(المثال الثالث)

من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فمن ذلك كتاب كتبه الى بعض عماله يُوصيه بما هو بصددِه ، أما بعدُ فإنك ممن استظهر به على اقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وسُدَّ به أفواهُ الشغز المخوف ، فاستعن بالله على ما أهمك ، واخلط الشدة بضغث من اللين ، وارفق ما كان الرفق أرفق ،

واعْتَزِمَ بالشدة حيث لا تُغْنِي عنك الا الشدة ، واخفض
للرعية جناحك ، وَأَنَّ لَهْمَ جانبك ، وآسَ يَنهَمُ في اللحظة ،
والنظرة ، والاشارة ، والتحية ، حتى لا يطمع العظماء في
حَيْفِكَ ، ولا ييأسُ الضعفاء من عدلك والسلام ، فانظر الى
كلامه هذا لقد جمع فيه محامد الاخلاق الشريفة وأتى فيه
بمحاسن الشيم السامية مع ما أشار اليه من حسن الايالة وجميل
السياسة ، وضمّ فيه من آداب الولاة وتعليم معاملة الخلق ،
والرفق بالرعية . والايرشاد الى مصالح السيرة فيهم مع ما اشار
اليه من الايصاد التام ، فان كلّ كلمة من هذا الكلام مناسبة
لما بعدها وملائمة له على أكمل نظام ، وأعجب إتمام ، فلو وقف
على قوله (فانك ممن استظهر به) لفهم ما بعدها ولو وقف
على قوله (وأقم به) لفهم ما وراءها ، لأن الاستظهار تقوية
واعتماد ، والقمع هو الكفّ وهو ملائم للنخوة وهو العلوّ
والكبرُ وهكذا قوله (واخفض) فلو وقف عليه لفهم منه
الجناح ، لأنه يستعار كثيرا في اين الجانب كما قال تعالى
(واخفض جناحك للمؤمنين) وهكذا القول في سائر ألفاظه ،
فانها متلائمة متناسبة يدلّ بعضها على بعض

(المثال الرابع)

(ما ورد من كلام اهل البلاغة)

واعلم أن الشعراء المفلقين يفتخرون بما كان أول البيت
دالاً على آخره ، وفي هذا يقول بعضهم

خُذْهَا إِذَا أَنْشَدْتَ فِي الْقَوْمِ مِنْ طَرْبِ

صَدُورُهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا

يُنْسَى لَهَا الرَّابِئُ الْعَجْلَانُ حَاجَتَهُ

وَيُصْبِحُ الْحَاسِدُ الْغَضْبَانَ يُطْرِئُهَا

وهذا هو الإِِرْصَادُ كما قلناه ، ومن جيد الارصاد ما قاله

البحترى

أَحَلَّتْ دَمِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَّمَتْ

بِلا سببِ يَوْمَ الْلِقَاءِ كَلَامِي

فليس الذي حَلَّتْهُ بِمَحَلِّ

وليس الذي حَرَّمَتْهُ بِمَحْرَامِ

فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول

وصدر البيت الثاني أن عجزه ما قاله البحترى ، وقد جرت

العادة عند إنشاد الشعر بانتهاء عجز البيت من لسان مُنْشِئِهِ

خرقاء تلعب بالعقول مزاجها . كتلعب الافعال بالأسماء
فإنه لما ذكر الأفعال علم لا محالة أن عجز البيت أن يأتي
بلفظة الاسماء لما سبق ذكر الأفعال ، فمن قرع مسامعه هذا
البيت وكان له ذوق في العريية ، فانه يعرفه قطعاً وقال أيضا
مودة ذهب أثمارها شبه

وهمة جوهراً معروفها عرض

فانه لما ذكر الذهب جعل في مقابله الشبه ولما ذكر
الجوهر علم أن مقابله العرض ، وهذا إرصاد حسن ، وحكى
ابن الاثير عن بعض علماء البيان أنه ينبغي لمن يتكلم في
المنظوم والمنثور أن يجنب كلامه الالفاظ المصطلح عليها بين
النحاة والمتكلمين واهل الصناعات وغيرهم ، وهذا فاسد لا وجه
له فإن الشاعر والكاتب يخوضان في كل شيء ولا يقتصر
خوضهما على فن دون فن ، ولا اصطلاح دون اصطلاح ،
ولهذا فانك تراهم إذا استعملوا شيئاً من الكلمات المصطلح
عليها في العلوم او في الصناعات في أشعارهم ورقائهم ، وجدت
له أحسن موقع ، وازداد جمالها ، وظهر رونقها وكمالها ، فهذا
ما أردنا ذكره في معاني الإرصاد

﴿ الفصل السادس ﴾

(في ذكر التخلص والاقتراب)

وهما واديان من أودية البلاغة ، ومن حكمهما يظهر فضل الناظم والناثر ، وكلُّ واحد منهما يرد في منشور الكلام ومنظومه ، لأن معنهما حاصل فيهما ، فأما الاقتراب فلا يظهر خلاف في وروده في القرآن الكريم ، وإنما الخلاف في ورود التخلص في القرآن ، وحكى عن أبي العلاء محمد الغامى أنه أنكر وروده في التنزيل ، وزعم أن كتاب الله تعالى خال عنه ، وهذا فاسدٌ ، فإنَّ كتاب الله تعالى لا وادٍ من أودية البلاغة الا وهو آخذٌ منه بنصيب ، وسنورد من ذلك ما يدل على وقوعه فيه ، فاذا عرفت هذا فلنذكر التخلص ، ثم نردفه .
بذكر الاقتراب فهذان ضربان تفصلهما بمعونة الله تعالى

(الضرب الأول في التخلص)

ومعناه في السنة علماء البيان ، أن يسرد الناظم والناثر كلامهما في مقصد من المقاصد غير قاصد اليه بانفراده ، ولكنه سببٌ اليه ثم يخرج فيه الى كلام هو المقصود ، بينه وبين الاول علقَةٌ ومناسبة وهذا نحو أن يكون الشاعر

مستطلما لقصيدته بالغزل حتى اذا فرغ منه خرج الى المدح
على مخرج مناسب للأول ، بينهما أعظم القرب والملازمة
بحيث يكون الكلام آخذاً بعضه برقاب بعض كأنه أفرغ في
قالب واحد ، ثم يتفاضل الناس في التخلص ، فعلى قدر
الاعتدال في النظم والنثر يكون حسن التخلص ، والتخلص في
النثر أسهل منه في النظم ، لأن الناظم يراعى القافية والوزن ،
فيكون في ذلك صعوبة بخلاف النثر ، فإنه لا يراعى قافية
ولا يحافظ على وزن ، بل هو مطلق العنان يضع قدمه حيث
شاء ، فمن أجل ذلك كان أشق على الناظم منه على النثر ، لما
ذكرناه ، ولندكر في ايضاحه أمثلة اربعة

(المثال الاول)

(من كتاب الله تعالى)

وهو قوله (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه
ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين قال هل
يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا
آباءنا كذلك يفعلون قال أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم
وأبائكم الأقدمون فإنهم عدوا لي إلا رب العالمين الذي

خلقني فهو يهدين والذي هو يُطعمني ويسقيني وإذا مرضتُ
فهو يشفين والذي يُميتني ثم يُحيين) ثم قال (ربِّ هب لي
حُكماً وألحقني بالصالحين) ثم أردفه بقوله (وأزلفت الجنةُ
للمتقين وبرزت الجحيمُ للغاوين) ثم قال (فكُفُّوا فيها
هُمُ والغاوون وجنود إبليس أجمعون) الى قوله (فلو أن لنا
كرَّةً فنكون من المؤمنين) فلينظر الى هذا الكلام الذي
يُسكِر العقول رَحيقه، ويسحَر الألباب تحقيقه، وهو غايةُ
مُنِيَّةِ الراغب، ونهاية مقصد الطالب، فإنه متى أنعم النظر في
مبانيه، وتدبَّر أسرارهِ ومعانيهِ، علِمَ قطعاً أن فيه غنى عن
تصفُّح الكتب المؤلَّفة، وكفاية عن الدفاتر المؤتلفة، فيما
يقصد من معرفة هذا الأسلوب من علوم البلاغة، وقد
اشتمل على تخلصاتٍ عشرة منتظمة نوضحها بمعونة الله تعالى

(التخلص الأول)

هو أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلاوة
نبي إبراهيم صلوات الله عليه، وما كان له مع أبيه وقومه
من الخُصومة والجدال في عبادة الاوثان والأصنام،
صدرَ القصة بذلك شرحاً لصدره وتسلية له فيما يلاقى من

قريش ، ثم خرج الى شرح حال إبراهيم وما جرى له ، فانظر الى حسن ما رتب إبراهيم كلامه مع أهل الشرك حين سألهم عما يعبدون سؤال مُقَرَّرٍ ، لا سؤال مستفهمٍ ، فأجابوه بما هم عليه من ذلك ، وبالغوا في الجهل والافراط في النفي ، فقالوا : نعبد أصناماً ولقد كان يكفيهم ذلك في الإجابة عما سألهم ، لكنهم تعمقوا تهالكاً في الإصرار وتنادياً في نفاهم عما دعاهم اليه بقولهم (فنظّل لها عاكفين)

(التلخيص الثاني)

انهم لما أجابوه أراد أن يحقق عليهم الأمر حتى لا يكون لهم سبيلٌ الى الجحود ، فخرج عن ذلك الى إبطال ما قالوه من عبادة آلهتهم وأنحى عليها من البرهان جرّازاً ومقضباً ، ومن الإفحام كلاماً منظماً مهذباً ، فصدّره بالاستفهام تأدّباً منه وملاطفة لهم ، ولم يأت بحجته على جهة القطع منه بها ، كمن ينكر الحدوث في العالم فتقول له هل يجوز عليه التغيرُ ولم يقل من أول وهلة إن قولكم هذا باطل لا حقيقة له ، ثم أورد في إبطال إلهيتها أدلة ثلاثة ، أولها انها لا تسمع دعاءً ، ولا تدرك نداءً ، لكونها جامداً حجارة صلدة لا حياة لها

ولا حراك بها ، ومن هذه حاله فكيف يكون أهلاً للعبادة ،
وثانيها قوله (أو ينفعمونكم) لأن من كان فيه نفع فهو حقيقٌ
بما يفعل في حقه من رفع المنزلة وعلو الدرجة ، وثالثها قوله
(أو يضررون) لأن كل من قدر على النفع فهو قادرٌ على الضرر
وعكسه أيضاً ، لأن حق من كان قادراً على شيء أن يكون
قادراً على ضده ، لأن القدرة صالحة للأميرين الضدين جميعاً
والمختلفين ، فهذه إزاماتٌ ثلاثة لا تحيىص لهم عنها ، فإذا
كان حالها هذه الحال من عدم السمع ، واستحالة النفع
والضرر منها ، فلا يليق بحالها العبادة التي هي نهاية الخضوع
والذلة للمعبود ، مع عدم الأهلية والاستحقاق ، هذا محال في
العقول بلا مريية ، ثم أجابوه بالإقرار بما ألزمهم من عدم ذلك
منها فزاد إقرارهم الإلزام تأكيداً وإخفاً فقالوا الأمر فيها
كما قلته لكننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فنادوا على أنفسهم
بالجهالة ، وأقروا بركوب الضلالة ، وأنهم ما فعلوا ذلك عن
نظر وتفكر وتدبر ، فوصفوا نفوسهم بالقصور عن مراتب
النظر ، وانخرطوا في سلك أهل الغباوة والأغمار ، وزعموا أنه
لا عمدة لهم في ذلك الآ وُجذان الآباء ، واقتفاء آثار
الاسلاف والرؤساء

(التلخص الثالث)

أنه لما تحقق تعويلهم على التقليد خرج الى ابطال أمره وتزييفه بقوله (أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون) فأورد الرد عليهم بالاستفهام على جهة الإنكار متمجياً من حالهم حيث جعلوا ما لا يكون ، حجة وبرهاناً ، وليس حجة ، بل هو شبهة منكورة ، وأخرجه عن أن يكون حجة ، كأنه قال أفلا ترون ما جعلتموه مستنداً لعبادتكم أنتم ومن سلف من آباؤكم القدماء ، هل مثله يعبد مع كونه لا يسمع ولا ينفع ولا يضر ولا يملك شيئاً ، وفيه تعريضٌ بحالهم ، وتجهيل لهم وأن من هذه حاله من عبادة حجر لا يضر ولا ينفع فلا عقل له ، ولا يكون معدوداً من العقلاء

(التلخص الرابع)

هو أنه لما ذكر أنهم لا يستحقون العبادة خرج الى ذكر عداوته لمن هذه حاله ، فلماذا قال عقيب ذلك (فإنهم عدو لي) كأنه صور المسئلة في نفسه على معنى إني فكرت في أمري ونظرت في حالي ، فرأيت أن عبادتي لها عبادة

للشيطان العدو فاجتذبتُها ، وانما قال (فانهم عدوٌ لى) بالاضافة الى نفسه ولم يقل فانهم عدوٌ لهم ، ايرِيهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه ليكون ذلك ادعى لهم الى القبول لقوله ، وأَبَعَثَ الى الاستماع لخطابه ، ولو قال : فانهم عدوٌ لكم ، لم يُفد هذه الفائدة ، وكان القياس فى الخطاب بالضمير ان يقول : فانها عدوٌ لى ، أو فانهم ، لأنه راجع الى الاصنام ، والضمير فى مَنْ لا يعلم أن يكون على هذه الصورة ، ولكنه أوردته على ضمير العقلاء لأمرين ، أما أولاً فلأنهم لما زعموا أنها تستحق العبادة ، وأنها يوجد من جهتها النفع ، ودفع الضر ، صارت لذلك بمنزلة العقلاء ، وأما ثانياً فلأنهم لما كانوا فى الانكار على سواء ، وجّه الخطاب اليهم على جهة تغليب حالهم على حالها

(التخلص الخامس)

هو أنه لما ذكر أنها غير مستحقة للعبادة وذكر العداوة لها خرج الى ذكر الله تعالى فأجرى عليه تلك الصفات اللائقة بذاته من إعظام حاله ، وإظهار جلاله ، وتفخيم شأنه ، وتعدد نعمه من لدن إنشائه ، وإبداع ذاته الى حين

مرضه ، ودُنُوُّ وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من عفوه ورحمته ،
ليعلم أن كل من هذه حاله فهو حقيق بالعبادة واجبٌ على
الخلق الخضوعُ له ، والاستكانة لعظمته ، وفيه تعريضٌ بحال
ما يعبد من دونه في الاتصاف بنقائص هذه الصفات كما ترى
(التلخص السادس)

هو أنه لما فرغ مما ذكرناه خرج الى ما يكون ملائماً له
ومناسباً فدعا الى الله تعالى بدعوات أهل الإخلاص ، وابتهل
إليه ابتهاًل أهل الأمانة ، لأن الطالب من مولاه اذا قدم
قبل سؤاله والتضرع اليه ذكره بالصفات الحسنى والاعتراف
بنعمه ، كان ذلك أسرع للإجابة ، وأتجح للمطلوب ، ولهذا
فإن كل من أراد حاجة الى الله تعالى فإنه يستحبُّ له تقديم
الثناء على الله بما هو أهله ، وذكر صفاته وحمده وشكره ،
ثم يسأل حاجته بعد ذلك فإن ذلك يكون أقرب للإجابة
وأسنى لإنجاح الرغبة وإنجازها كما ورد ذلك في الآداب
الشرعية

(التخلص السابع)

هو أنه لما فرغ مما يخصه من الدعاء لنفسه ولأبيه
بالدعوات الصالحة خرج عنه الى ذكر البعث يوم القيامة
ومجازاة الله من آمن به واتقاه وأخلص له العبادة بالجنة وأن
كل من عصاه وعبد غيره فإنه مجازيه بالنار، فجمع في ذلك
بين الترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية وضم إليه ذكر
الجنة وإزلاً فيها لاهلها من أهل التقوى وذكر النار وتبريزها
لاهلها من أهل الغواية كعادته تعالى في كتابه الكريم، اذا
ذكر وعدا أتبعه بالوعيد، وعكسه أيضاً ليكون حاصله
على الكمال ومراعاة المطابقة في كل الأحوال

(التخلص الثامن)

هو أنه لما فرغ مما ذكره عاد الى سؤال المشركين نانبا
عند معاينة الأهوال في يوم الجزاء بقوله (وقيل لهم أينما كنتم
تعبدون من دون الله) وإنما أوردته على جهة التوبيخ والاستهزاء
وانهم لا ينصرونكم في دفع السوء عنكم، ولا ينتصرون في دفع
ما يخصهم أنفسهم بحال، ثم وصف حالهم في النار بقوله
(فكذبوا) اي الآلهة والفاوون، والكبكية تكرير

الكِبِّ ، لأنه اذا أُلْقِيَ في النار فانه يُكَبُّ فيها مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها ، فجعل تكرير اللفظ دلالة على تكرير المعنى على جهة المطابقة ، اللهم أجزنا من عذابك برحمتك الواسعة

(التخلّص التاسع)

هو أنه لما فرغ من ذلك خرج الى حكاية ما يقول أهل النار في النار من الخصومة الناشئة بينهم ، وإظهار الحسرة والندامة المفرطة على ما كان منهم من عبادة غير الله ومساواته بمن لا يساويه . وانقطاع ما في أيديهم من شفاعة شافع أو سداقة صديق كما يكون للمؤمنين ، فان شفعاءهم الملائكة والانبياء وأصدقاؤهم هم أهل الايمان والتقوى ، فأما الكفار فلا شيء لهم من ذلك ، فعند هذا تعظم الحسرات وتنقطع الافئدة حسرةً وإياساً عن النفع والخلاص عما هم فيه

(التخلّص العاشر)

هو أنه لما فرغ من ذلك خرج الى ذكر تمنّيتهم الرجعة الى الدنيا بقوله (فلو أن لنا كرة) فنزّع عما كنا عليه من عبادة غير الله وسلوك طريق التقوى ، والكون من جملة المؤمنين في ذلك ، و (لو) ههنا بمعنى ليت فلا تفتقر الى جواب مقدر

وجوابها فتكون ، أو تكون باقية على بابها ، وجوابها يحذف كثيرا وتقديره فلو رجعنا لفاعلنا كَيْتَ وكَيْتَ من الافعال الصالحة ، فانظر الى هذه الآية الشريفة كيف اشتملت على هذه التخلصات اللطيفة مع ما حازته من العجائب الحسان والأسرار ذوات الأفتان ، والمعجب من الغامض حيث أنكر التخلص أن يكون واقعا في كتاب الله تعالى ، وما ذاك الا من أجل اشتغاله بفن الشعر والكتابة عن الاطلاع الى أسرار كتاب الله تعالى ، وهو أظهر من أن يحتاج الى طلب وعناية خاصة في سورة الاعراف وسورة يوسف ، فانه سلك فيهما فنونا كثيرة ، وتخلص الى أودية مختلفة ، والقرآن كله مملوء منه ، لانه لا يزال تكرر الكلام من وعد الى وعيد ، ومن ذكر قصص الى ذكر أمثال ، ومن ذكر أمر الى نواهٍ ، ومن ترغيب الى ترهيب ، الى غير ذلك فكيف يمكن إنكار ما هذا حاله وهو أوسع ما يكون في التنزيل

(المثال الثاني)

(من السنة النبوية)

وهذا كقوله عليه السلام وقد رأيتُ الليلَ والنهارَ كيف

يُبَيِّنُ كُلَّ جَدِيدٍ ، وَيَقْرَبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ
ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِذَا التَّبَسَّتْ عَلَيْكُمُ الْأُمُورُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ
فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَشَاهِدٌ مُصَدِّقٌ فَمَنْ جَعَلَهُ
أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ ، هُوَ
أَوْضَحُ دَلِيلٍ إِلَى خَيْرِ سَبِيلٍ فَانظُرْ إِلَى مَا أَوْدَعَهُ فِي هَذَا الْكَلَامِ
مِنَ التَّخْلِصِ الرَّائِقِ ، فَيَبِينُنَا هُوَ يَذْكُرُ حَالَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَحُكْمَهُمَا
فِي الْمَكُونَاتِ إِذْ خَرَجَ إِلَى حَالِ الْقُرْآنِ وَوَصَفَهُ ، وَأَنَّهُ فِيهِ
الْإِيضَاحُ لِكُلِّ مَشْكَالٍ ، وَبَيَانٌ لِكُلِّ أَمْرٍ مَلْتَبِسٍ ، تَخْلِصُ
إِلَى ذِكْرِهِ بِأَحْسَنِ تَخْلِصٍ ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَأَنَّ
الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ ، إِلَى
أَنَّ قَالَ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنِ عَيْبِ النَّاسِ ، فَيَبِينُنَا هُوَ يَذْكُرُ
الْمَوْتَ وَأَهْوَالَهُ وَإِعْرَاضَ الْخَلْقِ عَنِ ذِكْرِهِ إِذْ خَرَجَ إِلَى ذِكْرِ
النَّدْبِ إِلَى اشْتِغَالِ الْإِنْسَانِ بِعَيْبِ نَفْسِهِ وَإِهْمَالِ عَيْبِ الْخَلْقِ ،
فَهَذَا مِنَ الْمَخَالِصِ الْبَدِيعَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فِي كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

﴿ المثل الثالث ﴾

(من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه)

وهو في كلامه أكثر من أن يُحصر ، وخاصة في العهود

الطويلة والكتب المنتشرة ، والكلمات الواسعة ، فانه يخرج فيها الى اودية كثيرة ، فيينا يتكلم في أسلوب الوعظ ، اذ خرج الى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو الى وصف القرآن او الى غير ذلك من الأساليب المختلفة فيما يكون معدوداً من محاسن النخلصات ، ومن أراد الوقوف من كلامه على محاسن التخليص فليطالع من ذلك ما أوصى به الحسن بن علي في وصية له ، فإنه جمع له من محاسن الآداب وأجمعها ، وأعظم الحكيم وأنفعها ، ما لا يحتمله حصر ، ولا يشتمله عد ، ومن ذلك العهد الذي كتبه الأشر النخعي لما أعطاه عمالة مصر وأدبه بهذا العهد ، وجمع له فيه من محاسن الآداب وصفة الحكمة وفصل الخطاب ، ومن ذلك خطبته المسماة بالغراء فانه جمع فيها من الثناء على الله تعالى وذكره بالصفات اللائقة به وتنزيهه عما لا يليق بحاله ، ومن جيد كلامه في التخلص قوله أرسله على حين فترة من الرسل وانقطاع من الوحي وطول هجمة من الأمم واعتزام من الفتن وانتشار من الامور وتلاظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، وإيأس من ثمرها ، وإغوار من مائها ، قد درست أعلام الهدى ، وظهرت أعلام الردى ،

فهي مُتَّجِهَةٌ لاهلها ، عابسةٌ في وجه طالبها ، مُمرُّها الفتنه
وطعامها الخيفةُ ، وشعارُها الخوفُ ، ودثارُها السيفُ ،
فاعتبروا عبادَ الله واذكروا تيكَ التي آباؤُكم واخوانكمُ بها
مرتهنونُ ، وعليها محاسبونُ ، ولعمري ما تقادمت بهم ولا
بكمُ العهودُ، ولا خلتَ فيما بينكم وبينهم الأحقابُ والقرونُ،
فهذا الكلامُ مشتملٌ على تخلصاتٍ متعددةٍ ، فيينا هو يذكر
حال الرسول صلى الله عليه وسلم وما منَّ الله به على الأممِ ، إذ
خرج الى حال الدنيا وصفتها وانقطاعها ، إذ خرج الى الوعظِ
والتذكيرِ ، وما من كلامٍ من كلامه وإن كان بسببًا الآ
وتخلص فيه مخالصٌ كثيرةٌ ، كلُّ ذلك فيه دلالةٌ على تفنُّنه في
الكلامِ ومليكه لزمائه ، واستيلائه على خاصته وعامة.

﴿ المثال الرابع ﴾

(ما ورد من كلام البلغاء)

فمن ذلك ما قاله ابن الأثير في كتاب كتبه الى بعض
اخوانه يذكر فيه الربيع فقال فيه : وكما أن هذه الاوصاف في
شأنها بديعة فكذلك شأني في شوقه بديعٌ ، غير أنه في حرّة
فصل مصيف ، وهذا فصل ربيع ، فأنا أُملي أحاديثه العجيبة

على النوى وقد عرفت حديث من قتله الشوق فلا أستقص
حديث من قتله الهوى ، فيينا هو يذكر الربيع اذ خرج الى
ذكر الاشواق ، ومن هذا قوله ايضاً يصف البرد لما كان في
بلاد الروم فقال ومما أشكوه من بردها أن الفرو لا يلبس
بها الا في شهر ناجر ، وهو قائم مقام الظل الذي يتبرد به من
لفح الهواجر ، ولفرط شدته لم أجد ما يخففه فضلاً عما يذهب به ،
فإن النار المعدة له تطلب من الدفء ايضاً ما أطلبه ، لكن
وجدت نار أشواق أشد حراً فاصطليت بجمرتها التي لا
تذكي بزناد ، ولا تؤول الى رماد ، ولا يدفع البرد الوارد
على الجسد بأشد من حرّ الفؤاد ، غير أني كنت في ذلك
كن سدة خلة بخلة ، واستشفى من علة بعلة ، فما ظنك بمن
يصطلي نار الأشواق ، وقد قنع من أخيه بالأوراق ، فضن
عليه بالأوراق ، فيينا هو يتكلم في وصف البرد اذ خرج الى
وصف الأشواق ، ومما ورد في التلخيص من المنظوم قول ابى
الطيب المتنبى في بعض قصائده

خليلي إني لا أرى غير شاعر

فلم منهم الدعوى ومنى القصائد

فلا تعجبا إن السيوف كثيرةٌ

ولكن سيف الدولة اليوم واحدٌ

فانظر كيف تخلص من الغزل الى المديح بأحسن

خلاص وأعجبه . كما ترى ، ومن عجيب ما جاء به في كلامه هذا ،

هو أنه جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة في بيت واحد ،

وهو من بدائعه المأثورة عنه في غير موضع ، ومن ذلك ما قاله

أبو تمام في بعض قصائده

خُلِقَ أَطْلًا مِنَ الرَّبِيعِ كَأَنَّه

خُلِقَ الْإِمَامِ وَهَدِيَهُ الْمُتَسِّرُ

فِي الْأَرْضِ مِنْ عَدْلِ الْإِمَامِ وَجُودِهِ

وَمِنَ الشَّبَابِ الْغَضِّ شَرِّخٌ يَزُهرُ

يُنْسِي الرِّيَاضَ وَمَا يُرَوِّضُ فَعْلُهُ

أَبْدًا عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي يَذْكُرُ

فهذا وامثاله من لطائف التخليصات وأعجبها ، والشعراء

يتفاوتون في هذا الباب ، فربما اختص بعض الشعراء بالاجادة

في شعره من جزالة ألفاظه ، ودقة معانيه ، لكنه مع هذا

لم يَفُقْ في التخليص كما فاق غيره من الشعراء ، كما يحكى عن

البحترى ، فإن مكانه في الشعراء لا يُجْهَل ، وشعرُه هو السهل
المتع الذي تراه كالشمس قريباً ضوءها ، بعيداً مكانها ، أو
يكون كالقناة ، لِينًا مَسْهَاً ، خَشِينًا سِنَانُهَا ، وقالوا أيضاً إنه
في الحقيقة قَيْنَةُ الشعراء في الإِطْرَابِ ، وَعَنْقَاؤُهُمْ في الإِغْرَابِ ،
ومع ما حكيناه فانه لم يُجِدْ في التخليص من الغزل الى المديح
بل اقتضبه اقتضاباً على وجه لا ملائمة بينه وبين الاول ، وله
مواضع قليلة أحسن فيها التخلص ، لكنها حقيرةٌ بالاضافة
الى ما أساء فيها الخلاص ، ومن أعجب ما يذكر في مثال
التخلص ما حكاه ابن الأثير: أن قرؤاشاً الملقَّبَ بشرف الدولة
ملك العرب صاحب المَوْصِلِ ، اتفق انه كان جالساً مع نُدَمائه
في ليلة من ليالى الشتاء ، وفي جملتهم رجالٌ منهم البرقعيدى
وكان مُغْنِيًّا ، وسليمانُ بن فَهْدٍ ، وكان وزيراً وأبو جابر ، وكان
حاجباً ، فالتمسَ شرفُ الدولة من هذا الشاعر أن يهجو هؤلاء
ويمدحه فأنشد هذه الأبيات ارتجالاً قال فيها

وليلِ كوجهِ البرقعيدى مُظلم
وَبَرْدِ أَغَانِيهِ وَطُولِ قُرُونِهِ
سَرَيْتُ وَنَوْمِي فِيهِ نَوْمٌ مُشَرَّدٌ
كعقلِ سليمان بن فهدٍ ودينه

على أولقٍ فيه التفاتٌ كأنه
أبو جابرٍ في خبْطه وجُنُونِه
الى أن بدأ وجه الصباح كأنه
سنا وجهِ قرَواشٍ وضوءِ جبينه

فانظر الى ما أودعه في هذه الأبيات من هجاء هؤلاء
الثلاثة في أبيات ثلاثة ، وتخلص في البيت الرابع بأحسن
الخلاص في مدح شرف الدولة ، وهذه الابيات أحسن
ما يورد في أمثلة التخليص فهذا ما أردنا ذكره في أمثلة
التخليصات

﴿ الضرب الثاني ﴾

(في الاقتضاب)

وهو تقيضُ التخليص ، وذلك أن يقطع الشاعر كلامه
الذي هو بصدده ثم يستأنف كلاماً آخرَ غيره من مديحٍ .
أو هجاءٍ أو غير ذلك من أفانين الكلام لا يكون بين الاول
والثاني ملائمةٌ ولا مناسبة ، وهذا هو مذهب الشعراء المتقدمين
من العرب كامرئ القيس والنابغة وطرفة وليبيد ، ومن تلامهم
من طبقات الشعراء ، فأما المحدثون من الشعراء كأبي تمام وأبي

الطيب وغيرهم ممن تأخر فإنهم تصرفوا في التخليصات فأبدعوا فيها وأظهروا كل غريبة كما أسلفنا تقريره ، ولندكر أمثلة الاقتضاب فمن كتاب الله تعالى (واذكر عبادنا إسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكري الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب) فصدر الكلام أولا بذكر الانبياء والثناء عليهم ثم ذكر بعده بابا آخر غير ذلك لا تعلق له بالأول ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، ثم لما أتم ذكره عقبه بذكر النار وأهلها بقوله (هذا وإن للطاغين لشر مآب) فانظر الى هذا الاقتضاب الرائق ، والذي حسن من موقعه لفظة (هذا) فانها جعلت له موقعا أحسن من التخليص ، وورودها في المنشور أكثر من ورودها في المنظوم ، وقد قررنا فيما سبق حسن موقعها ، ومن محاسن الاقتضاب قول القائل أما بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسوله فانها تأتي لقطع الكلام الاول عن الثاني ، وهذه اللفظة قد أجمع أهل

التحقيق من علماء البيان على أنها هي فصلُ الخطاب الذي أراد الله في قوله (وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ) (وأما مثاله) من السنّة النبوية فقوله صلى الله عليه وسلم فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبّية قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، بعد قوله أَلَا وَإِنَّ المرءَ بين مخافتين ، بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ به ، وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبدُ لنفسه من نفسه ، فانظر الى هذا الاقتضاب ما أعجبه وألطفه يكادُ يقربُ من التخليص ، ومن تتبع كلامه في الخطب والمواعظ فإنه يجدُ فيه من حسن الاقتضاب شيئاً كثيراً (وأما مثاله) من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه فكقوله ثم إن الدنيا دارٌ فَنَاءٌ وَعَنَاءٌ وَعَبْرٌ وَغَيْرٌ ، فمن الفناء أن الدهرَ مؤتراً قوسه لا يخطئُ سهامهُ ، ولا يُوسى جراحهُ ، يرمى الحى بالموت ، والصحيح بالسقم ، والناجى بالعطب ، آكلٌ لا يشبع ، وشاربٌ لا ينقع ، ومن العناء أن المرءَ يجمعُ مالا يأكل ، ويبنى مالا يسكن ، ثم يخرج الى الله تعالى لا مالا يحمل ، ولا بناءً تقل ، ومن عبرها أنك ترى المغبوطَ مرحوماً ،

والمَرْحُومَ مَغْبُوطًا ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيمًا زَلَّ ، وَبُؤْسًا نَزَلَ ،
وَمِنْ غَيْرِهَا أَنْ الْمَرْءَ يُشْرَفُ عَلَى أَمَلِهِ ، فَيَقْتَطِعُهُ حَضُورُ أَجَلِهِ ،
فَلَا أَمَلَ يُذْرَكَ ، وَلَا مُؤَمَّلَ يُتْرَكَ ، فَسَبْحَانَ اللَّهِ مَا أَغْرَّ
سُرُورَهَا ، وَأَظْمَأَ رِيَّهَا ، وَأَطْحَى فَيْئَهَا ، لَا جَاءَ يُرَدُّ ، وَلَا
مَاضٍ يَرْتَدُّ ، فَسَبْحَانَ اللَّهِ مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلْحَاقَةِ بِهِ ،
وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ ، إِنَّهُ لَيْسَ شَرًّا مِنْ الشَّرِّ
إِلَّا عِقَابُهُ ، وَلَا خَيْرٌ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ
الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ
أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ ، فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ ، وَمِنَ الْغَيْبِ
الْخَبَرُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ مَا تَقْصُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ
خَيْرٌ مِمَّا تَقْصُ فِي الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا ، فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ
رَاجِحٌ ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٌ ، إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي
نُهَيْتُمْ عَنْهُ ، وَمَا أَجَلٌ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، فَذَرُّوا
مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ ، قَدْ تُكْفَلُ لَكُمْ بِالرِّزْقِ ،
وَأَمَرْتُمْ بِالْعَمَلِ ، فَلَا يَكُونُ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلِبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ
الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ اعْتَرَضَ الشُّكُّ وَدُخِلَ
الْيَقِينُ ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي قَدْ ضَمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ ، وَكَأَنَّ

الذى قد فرض عليكم قد وُضع عنكم ، فبادروا العمل ، وخافوا
بَعْتَةَ الأَجَل ، فانه لا يُرْجَى من رجعة العمل ما يُرْجَى من
رجعة الرزق ، ما فات اليوم من الرزق رُجِيَ غداً زيادته ،
وما فات أمس من العمر لم تُرْجَ اليوم رجعتُه ، الرجاء مع
الجلأى واليأس مع الماضى ، فاتقوا الله حقَّ تَقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ
الآ وأنتم مسلمون

وأقول إن هذا الكلام هو الشفاء بعد كلام الله ، والذى
ينبغى أن يكون عليه الاعتماد بعد سنة رسول الله ، فلقد
ضمّنه من محاسن الاقتضاب من أبلغ الوعظ أعجب العُجاب ،
وما فيه بلاغٌ وذكرى لأولى الالباب ، فانظرأيها المتأمل كيف
افتتح الكلام بدمّ الدنيا وما اشتملت عليه من صروف المِحَن
والبلوى ، ثم خرج منه الى الخروج عن الدنيا ، ثم خرج منه الى
ذكر غرورها ، ثم خرج منه الى ذكر منزلة الحىّ من الميت فى
بُعدها وقربها ، ثم أردفه بذكر حال الثواب والعقاب ، ثم رجع الى
ذكر حال الدنيا بوصف آخر مع الآخرة من زيادة أو نقصان ،
ثم خرج الى ذكر الرزق وما ضُمّن منه ، ثم ذكر التكليف وما
حملنا منه ، ثم خرج الى ذكر الأمل وما حملنا منه ، ثم خرج منه
الى ذكر الامل وغروره ، وذكر الأجل وحضوره ، يقتضِبُ كلَّ

واحد من هذه الآداب اقتضاباً رُبَّما كان أحسن من
التخلص ، لما فيه من الرقة واللطافة ، ثم ختم هذا الكلام
بختام هو لبَّابُ سرِّه ، ونظام سلكه وعبقات عبيره .
ونفحات مسكه ، وهو قوله فاتقوا الله حقَّ ثقاته ولا تموتنَّ الا
وأتم مسامون ، فهي جامعة لجميع ما أسلفه ، ومؤكدته لما عدده
ورصفه ، فلو كان من كلام البشر معجزةً لكان هذا هو الأول
ولو أعجز شئٌ من الكلام بعد كلام الله لكان هذا هو الثاني ،
ومن بديع ما جاء في الاقتضاب قولُ البحري يمدح الفتح
ابن خاقان بعد انخساف الجسربة في قصيدته التي مطلعها

مَتَى لَاحَ بَرَقَ أَوْ بَدَأَ طَلَلُ قَفْرُ

جَرَى مُسْتَهْلٌ لَا بَكِيٌّ وَلَا نَزْرُ

وبعدده

فَتَى لَا يَزَالُ الدَّهْرَ بَيْنَ رَبَاعِهِ أَيْادِهِ بِيضٌ وَأَفْنِيَةٌ خُضْرُ

فينا هو في غزلها إذ خرج الى المديح على جهة

الاقتضاب بقوله

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجدا

اذا بقى الفتح بن خاقان والقطر

نخرج الى المديح من غير أن يكون هناك له سبب من
الأسباب كما ترى ، ومن ذلك ما قاله أبو نواس في قصيدته
التي مطلعها قوله (يَا كَثِيرَ النَّوْحِ فِي الدِّمَنِ) فضممتها غزلاً
كثيراً ثم قال بعد ذلك

تضحك الدنيا الى ملك * قام بالآثار والسنن
سن للناس الندى فندوا * فكان المحل لم يكن
وأكثر مدائح أبي نواس مؤسّسة على الاقتضاب من
غير ذكر التخلص وفيما ذكرناه كفاية عن ابانة التخلص
والاقتضاب فهذا ما اردنا ذكره فيما يختص بالدلائل المركبة
وهو الباب الثالث

الباب الرابع

(من فن المقاصد في ذكر انواع علم البديع وبيان أقسامه)
اعلم أن ما أسلفنا ذكره في الباب الأول انما هو كلام
فيما يتعلق بكيفية الوضع ، إما في الأصل فيكون حقيقة ، أو
في غيره فيكون مجازاً ، والباب الثاني انما هو كلام في الدلائل
من جهة الالفاظ الإفرادية ، والباب الثالث انما هو كلام في
ج ٢ م ٤٥ — (الطراز)

الدلالات المركبة ، وأمّا الباب الرابع فأنما هو كلام فيما يعرض لجوهر اللفظ من الألقاب بحسب تأليفه ، لا من جهة دلالاته على معناه ، وإنما دلالاته على معناه تابعةٌ لذلك ، وهذا هو الذى يلقب بعلم البديع فى السنة علماء البيان ، وينقسم الى ما يكون متعلقاً بالفصاحة اللفظية ، والى ما يكون متعلقاً بالفصاحة المعنوية ، فهذان نمطان نذكر ما يتعلق بكل واحد منهما بمعونة الله تعالى

(النمط الاول)

(ما يتعلق بذكر الفصاحة اللفظية وبيانها)

اعلم أنّا قد ذكرنا أن الفصاحة من عوارض الألفاظ ، وأن البلاغة من عوارض المعانى ، ومنهم من قال انهما مستويتان دالتان على مقصود واحد فلا يكون الكلام فصيحاً الا وهو بليغ ، ولا يكون بليغاً الا وقد حاز الفصاحة ، ومنهم من زعم أن الفصاحة أعم من البلاغة فالكلام يوصف بالفصاحة وإن لم يكن بليغاً ، ولا يعقل كون الكلام بليغاً الا مع كونه فصيحاً ، والامر فى ذلك قريب ، خلا أن أكثر أهل البلاغة قائلون بأنهما مقولان على جهة الترادف أعنى

البلاغة والفصاحة ، والى هذا ذهب الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، والأقلون على ان البلاغة من أوصاف المعاني والفصاحة من وصف الالفاظ ، وهذا هو الأقرب كما قررناه في اول الكتاب فلا وجه لتكريره ، فاذا عرفت هذا فلنذكر ما يتعلق بالفصاحة اللفظية من علم البديع وهو مشتمل على أصنافٍ عشرين ، نذكرها بأمثلها بمشيئة الله تعالى

(الصنف الاول)

(التجنيس)

وهو تفعيل من التجانيس وهو التماثل ، وانما سمي هذا النوع جناساً لأن التجنيس الكامل أن تكون اللفظة تصلح لمعنيين مختلفين فالمعنى الذى تدل عليه هذه اللفظة هي بعينها تدل على المعنى الآخر من غير مخالفة بينهما ، فلما كانت اللفظة الواحدة صالحةً لهما جميعاً كان جناساً ، وهو من أطف مجارى الكلام ومن محاسن مداخله ، وهو من الكلام كالفرّة في وجه الفرس ، فالجنس في اللغة هو الضرب من الشىء وهو أعمّ من النوع ، والمجانسة المائلة ، وسُمى هذا النوع جناساً لما فيه من المائلة اللفظية ، وزعم ابن دريد أن

الأصمعيّ يدفع قول العامة هذا مجانسٌ لهذا ويقول إنه مولدٌ ،
وحقيقته في مصطلح علماء البيان هو أن يتفق اللفظتان في
وجهٍ من الوجوه ويختلف معناهما ، فما هذا حاله عامٌّ في
التجنيس التام ، والتجنيس الناقص ، ثم إنه ينقسم قسمين
نُورد ما يتعلق بكل واحد منهما بأمثله بمعونة الله تعالى

(القسم الاول)

(التجنيس التام)

ويقال له المستوفى ، والكامل ، وهو أن تتفق الكلمتان
في لفظهما ، ووزنهما ، وحركاتهما ، ولا يختلفان إلا من جهة
المعنى ، وأكثر ما يقع في الألفاظ المشتركة ، ومثاله من
كتاب الله تعالى (ويومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا
لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) وليس في القرآن من التجنيس الكامل إلا
هذه الآية ، فالساعة الأولى عبارة عن القيامة ، والساعة
الثانية هي واحدة الساعات ، لكنهما اتفقا لفظاً فلماذا كان
جناساً تاماً ، ومن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وآله : لما
نازع الصحابةُ جريرَ بن عبد الله في أحدٍ زمام ناقة الرسول
صلى الله عليه وسلم أَيُّهُمْ يَقْبِضُهُ ، فقال عليه السلام خلوا بين

جَرِيرٍ ، والجَرِيرِ ، لا يُقال كيف يكون ما ذكرتموه من الكتاب والسنة مثلاً للتجنيس التام مع اختلافهما في التعريف والتكثير ، لأننا نقول هذا فيه وجهان ، أحدهما أن يقال إنه لم يقع الاختلاف الا في لام للتعريف وهي زائدة ، وما هذا حاله فليس مُغْتَرّاً للتمثيل ، وثانيهما أن يقال كما أن اختلاف الحركة يُبطل جعله من التجنيس التام فهكذا زيادة الحرف تُخرجه عن التجنيس التام أيضاً ، والحق أنه معدود منه ، وأنشد ابن الأثير لأبي تمام قال

فأصبحتُ غررُ الأيام مشرقةً

بالنصر تضحكُ عن أيامك الغررِ

فعدّه تجنيساً تاماً مع أن الأول مضاف والثاني معرف

باللام ، ومن ذلك ما قاله ايضاً

ما مات من كرم الزمان فإنه * يحيى لدى يحيى بن عبد الله

ومنه قولهم : لولا اليمينُ لقبِلتُ اليمينَ ، فاليمين الاولى

الألية ، واليمين الثانية هي الجارحة ، ومنه قولهم : ما ملاً الراحة

من استوطن الراحة ، فالراحةُ الاولى هي الجارحة ، والراحة

الثانية هي نقيض الشقاء ، وقد أكثر من هذا النوع أبو تمام

فأحسن فيه كل الاحسان ومنه قوله

إذا الخيلُ جابت قسطنطين الحرب صدعوا
صدور العوالي في صدور الكتاب
ومن ذلك ما قاله أبو جعفر النامي
لشؤون عيني في البكاء شؤون
وجفون عينك للبلاء جفون
ومن أحسن ما وجدته في ذلك للشاعر المعروف بالمغربى
وقد أكثر منه

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا
ونحن في حفر الأجدات أحيانا
تقول أنت امرئ جاف مغالطة
فقلت لا هومت أجفان أجفانا
لم يبق غيرك انسان يلاذ به
فلا برحت لعين الدهر إنسانا
فالكلمتان كما ترى في هذه الأمثلة لا اختلاف فيها
الا من جهة المعنى ، يستويان في الانتظام في الحروف ،
والحركات ، كما ترى وله أمثلة كثيرة

* القسم الثاني *

(من التجنيس)

ويقال لهُ الناقص ، والمشبّه ، وهو يأتي على أنحاء مختلفة ،
وحاصله أنه يتطرفُ اليه الاختلاف بوجه من الوجوه كما تراه ،
وهو يأتي على ضرب عشرة

(الضرب الاول)

يلقب بالمختلف ، وما هذا حاله يكون اختلافه بالحركات
لا غيرُ ، فأما الاحرف فيه فانها متماثلةٌ ، ومثاله قولهم :
لا تُنالُ الغررُ ، الآ بركوب الغرر ، وقولهم : البدعةُ شركُ
الشرك ، وقولهم : الجاهلُ إما مفرطٌ أو مفرطٌ ، وقد وقع في
الحريريات كقوله ، فلما استأذنه في المراح الى المراح على
كاهل المراح ، فقد وُجد في الميم ثلاثُ حركات كما ترى ،
ومنه قوله نظما

فقلت للآثمى أقصر فاني * سأختارُ المقام على المقام

(الضرب الثاني)

المختلف بالأحرف وتتفق الكلمتان في أصل واحدٍ

يجمعها الاشتقاق ، وما هذا حاله يُقال له المطلق ، ومثاله قول
جرير

فما زال معقولاً عِقَالٌ عن الندى

وما زال محبوباً عن المجدِ حَابِسٌ

وانما سُمِّيَ مطلقاً لأنه لَمَّا كانت حروفه مختلفة ولم يُشترط

فيه أمرٌ سواه قيل له مطلق

(الضرب الثالث)

ان لا يجمعها الاشتقاق لكن بينهما موافقةٌ من جهة
الصورة مع أن إحداهما من كلمتين ، والأخرى من كلمة
واحدة ، وما هذا حاله يُلقَّب بالركب لما يظهر فيه من أحد
الشقين من التركيب ، ثم هو على وجهين ، الوجه الاول أن
يكون متشابهاً من جهة اللفظ لا من جهة الخط ، وما هذا
حاله يُقال له المفروق ، ومثاله قولهم من ظلم نَمَلَهُ ، فَنَمَّ لَهُ ،
وقولهم لا تَقْعُدْ تَحْتَ رِقِّ ، تَحْتَرِقْ ، وفي الحريريات : أَرَمَعْتُ
الشخصَ من بَرَقَعِيدِ ، وقد شِمْتُ بَرَقَ عِيدِ ، ومن النظم ما
قاله البُستِيُّ

إذا ملكٌ لم يكن ذاهِبَهُ فِدَعُهُ فِدَوَلْتُهُ ذَاهِبَهُ

ومن ذلك ما قاله بعضهم
وكم لجباه الراغبين لديه من مجال سجود في مجالس جود
وفي الحريريات فَمِحْرَابِي أَحْرَى بِي، وَأَسْمَا لِي أَسْمَى
لى ، وقول بعضهم فَهَمْنَا لَمَّا فَهَمْنَا، فالأول من الهَيَام والثانى من
الفهم ، الوجه الثانى أن تكون المشابهة بينهما من جهة اللفظ
والخط ، وما هذا حاله فإنه يُلقَّب بالمرْفُوء ، وإنما لُقِّب به لأن
المقصود هو الجمع بين كلمتين ، احدهما أقصر من الأخرى ،
فيُضم الى القصيرة ما يُوازى الكلمة ويرفوها بذلك حتى يعتدل
رُكْنًا التجنيس ، ومثاله قول بعض البلغاء : يا مغرورُ أمسك ،
وقس يومك بأمسك ، فزيدت كافُ الضمير فى الثانية من أجل
أن تساوى الأولى ومن ذلك قول البُسْتَى

فَهَمْتُ كِتَابَكَ يَا سَيِّدِي
فَهَمْتُ وَلَا عَجَبٌ أَنْ أَهْيِمَا

ومن ذلك ما قاله ايضا
اذا مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبُهُ فَدَعَهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبُهُ
ومنه قول بعضهم فَهَمْنَا لَمَّا فَهَمْنَا ، فاللفظتان متساويتان
من جهة لفظهما وخطهما ، وما أوردناه من هذه الامثلة أمثلة

المرفو، في المرفوق، فانما كان على جهة الذهول والنسيان والحقيقة
أنها أمثلة المرفو

(الضرب الرابع)

المُذْيَلُ ، بالذال المعجمة ، وهو أن تجيء الكلمتان
متجانستى اللفظ متفقتى الحركات والزينة ، خلا أنه رُبَّمَا وقع
بينهما مخالفة ، ثم تلك المخالفة على وجهين ، الوجه الأول
منهما أن تختص إحدى الكلمتين بحرف يخالف الأخرى
من عَجْزُهَا ، ومثاله قولهم فلان سال من أحزانه ، سالم من
زمانه ، حَامٍ لِعَرْضِهِ ، حَامِلٌ لِعَرْضِهِ ، فَأَخْرَسَالِ يَاءٌ ، وآخر
سالم ميمٌ ، مع اتفاقهما فيما عدا ذلك من الحروف والحركات ،
ومن ذلك ما قاله ابوتمام

يَمْدُونُ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ
تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ
فَأَخْرُ عَوَاصٍ يَاءٌ ، وَأَخْرُ عَوَاصِمٍ مِيمٌ ، وَأَخْرُ قَوَاضٍ يَاءٌ
وَأَخْرُ قَوَاضِبِ الْبَاءِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا قَالَ الْبَحْتَرِيُّ
لَنْ صَدَفَتْ عَنَّا فَرُبَّتْ أَنفُسُ
صَوَادٍ إِلَى تِلْكَ النُّفُوسِ الصَّوَادِفِ

فَأَخْرُ صَوَادٍ هِيَ الْيَاءُ ، وَعَجَزُ صَوَادِفِ الْفَاءِ ، مَعَ اتِّفَاقِهِمَا
فِيمَا عَدَا ذَلِكَ ، الْوَجْهَ الثَّانِي أَنْ تَخْتَلِفَ الْكَلِمَتَانِ مِنْ أَوَّلِهِمَا ،
وَمِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
الْمَسَاقُ) فَلَمْ يَخْتَلِفِ السَّاقُ وَالْمَسَاقُ إِلَّا بِزِيَادَةِ الْمِيمِ فِي الْمَسَاقِ ،
وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي الْحَرِيرِيَّاتِ قَوْلُهُ : يَسْخُوبُ بِمَوْجُودِهِ وَيَسْمُو
عِنْدَ جُودِهِ ، فَلَمْ يَخْتَلِفَا فِي نَظْمٍ وَلَا زِنَةٍ إِلَّا بِزِيَادَةِ الْمِيمِ فِي
مَوْجُودِهِ ، وَالْوَاوِ أَيْضًا ، وَقَوْلُهُ أَيْضًا نَظْمًا

لَمْ يَبْقِ صَافٍ وَلَا مُصَافٍ : وَلَا مَعِينٌ وَلَا مُعِينٌ
فَلَمْ يَخْتَلِفِ صَافٍ ، وَلَا مُصَافٍ إِلَّا بِزِيَادَةِ الْمِيمِ لَا غَيْرُ ،
وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَنْشَدَهُ الشَّيْخُ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ
وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ إِلَى عَوَارِفُ

ثَنَائِي مِنْ تِلْكَ الْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَّرٍ مِنْ بَرِّهِ وَلَطَائِفِ

لشكري على تلك اللطائف طائفُ

وقد يلقب ما ذكرناه بالتجنيس الزائد والناقص كما مر

تقريره بالأمثلة

(الضرب الخامس)

(المزدوج)

وهو أن تأتي في أواخر الأسجاع في الكلام المنشور ،
أو القوافي من المنظوم ، بلفظتين متجانستين ، إحداهما
ضميمة إلى الأخرى على جهة التثمة والتكملة لمعناها ، ومثاله
من النثر قولهم : مَنْ طَلَبَ شَيْئًا وَجَدَّ وَجَدَّ ، ومن قرع بابًا
وَلَجَّ وَلَجَّ ، ومن الحريريات قوله : إِذَا بَاعَ انْبَاعَ ، وَإِذَا مَلَأَ
الصَّاعَ انْصَاعَ ، فتجد الكلمة الثانية مُرَدِّفَةً على جهة التجانس
ليكمل معناها وتُقرَّرَ فائدتها ، ومن النظم ما قاله البستي

أبا العباسٍ لا تحسبُ لشَيْبِي
بأَنِّي من حَلَا الأَشْعَارِ عَارِ
فلي طَبَعٌ كسلسالٍ مَعِينِ
زُلَالٍ من ذُرَى الأَحْجَارِ جَارِ
إذا ما أَكْبَتِ الأَدْوَارُ زَنْدًا
فلي زَنْدٌ على الأَدْوَارِ وَارِ
ومن هذا ما قيل في الحريريات

بُنِيَ اسْتَقِيمٌ فَالْعُودُ تَنْمِي عُرُوقُهُ
قَوِيماً وَيَنْشَأُهُ إِذَا مَا التَّوَى التَّوَى
وَلَا تَطْعِ الْحَرْصَ الْمُدِلَّ وَكُنْ فَتَى
إِذَا التَّهَبْتَ أَحْشَاؤُهُ بِالطَّوَى طَوَى

وانما لُقِّبَ هذا بالمزدوج لما يظهر بين الكلمتين من الاستواء ، ومنه الازدواج ، وهو الاستواء ، ويقال له التجنيسُ المُرَدَّدُ ، ويقال له المكرر أيضا ، وينقسم الى ما يكون الازدواج وارداً على جهة الانفصال ، في الكلمتين جميعا ، كقولك : من جَدَّ وَجَدَّ ، وَمَنْ لَجَّ وَلَجَّ ، والى ما يكون الازدواج وارداً على جهة الانفصال في إحداهما والاتصال في الأخرى ، كقولك اذا ملأ الصَّاعَ انصاع ، وكالأبيات التي حكيناها عن البستي

(الضرب السادس)

(المصحف)

وهو عبارة عن الإتيان بكلمتين متشابهتين خطأ لا لفظا ، ويقال له تجنيس الخط أيضا ، ومثاله من كتاب الله تعالى قوله (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) ومن السنة

النبوية قوله صلى الله عليه وسلم : عليكم بالأبكار فانهن أشد حُبًا
وأقل حُبًا ، والخب الخداع ، وقول أمير المؤمنين : قَصَرَ من
ثيابك فإنه أبقى وأتقى وأتقى ، ومنه قول البحترى يمدح
المعتر بالله

ولم يكن المعتر بالله إذ شرى * ليُعجزَ والمعتر بالله طالبه
وانما لقب ما هذا حاله بالمصحف ، لأن من لا يفهم
المعنى فإنه يصحف أحدهما الى الآخر لأجل تشابههما في وضع
الخط كما ترى ويقال له المرسوم أيضا ، ومن هذا قول بعضهم
غَرَكَ عَزْكَ فَصَارَ فُصَارَى ذَلِكَ ذَلِكَ ، فَاخْشَ فَاخْشَ فِعْلِكَ ،
فِعْلَكَ بهذا تُهْدَى ، وقوله في الحريريات فملت لمجاورته الى
مجاورته ، ولا يزكو بالخيف من يرغب في الخيف ، ومن ذلك
ما قاله أبو فراس

من بحر شعرك أغترف وبفضل علمك أعترف
وغير ذلك

(الضرب السابع)

(المضارع)

وهو أن يجمع بين كلمتين هما متجانستان لا تفاوت

بينهما الا بحرف واحد سواء وقع أولاً أو آخراً أو وسطاً
حشواً ، والمضارعة المشابهة وسمى الضرعُ ضرعاً ، لانه يشابه
أخاه في الصورة ، فلما تشابها في هذا الحرف لُقِبَ بالمضارع
لما ذكرناه ، ثم يقع على وجهين ، الوجهُ الأول أن يقع الاتفاق
في الحروف المتقاربة ، ومثاله قوله عليه السلام : الخيلُ معقودُ
بنواصيها الخيرُ ، فاللام والراء متقاربان ، وفي الحريريات لهم
في السير جرئُ السيل ، والى الخير جرئُ الخيل ، وقوله وبينى
و بين كنيّ ليل دامس ، وطريق طامس ، وقوله ويطفي حرّ
بلبالي ، بسر بال وسر بال ، الوجه الثاني أن يقع في الحروف التي
لا تقارب فيها ، ومثاله قوله تعالى (فاذا جاءهم أمرٌ من
الأمن) فالنون والراء متباعدان ، ومن ذلك قولهم : المكارمُ
بالمكاره ، والتواضع شركُ الشرف ، وفي الحريريات ولا
أعطي زمامي ، من يُخفِر ذمامي ، ولا أغرس الأيادي ، في
أرض الأعادي ، ومن ذلك ما قاله البحترى
أَلِمَاتٍ مِّن تَلَاقٍ تَلَافٍ * أَمْ لِيَشَاكٍ مِّن الصَّبَابَةِ شَافٍ
وما هذا حاله يُقال له التجنيسُ اللاحق ، والتجنيسُ
الناقص ، والأمرُ فيه قريبٌ بعد الوقوف على القيود التي يتميز
بها عن غيره كما أشرنا إليه

(الضرب الثامن)

(المشوش)

وهو عبارة عن كل جنس من التجنيس يجاذبه طرفان من الصيغة ، ولا يمكن إطلاق اسم أحدهما عليه دون الآخر ، واشتقاقه من قولهم تشوش الأمر إذا مزج واختلط بعبءه ببعض ، ومنه قولهم فلان متشوش ، إذا كان به مرض من اختلاط المزاج وتغيره ومثاله قولهم : فلان مليح البلاغة ، لبيق البراعة ، فلو اتفق العينان في الكلمتين وكانتا من حرف واحد لكان ذلك من تجنيس التصحيف أو كان اللامان متفقين لكان ذلك من المضارع ، فلما لم يكن كما ذكرناه بقي مُدْبَدَبًا بين الأمرين ، ينجذبُ الى كل واحد منهما بشبهه ، ومنه قولهم : صدَّعني مُدَّعني فلولا تشديد النون لكان معدوداً من تجنيس المركب ، ومن الحريريات قوله وَندِمنَا على مَا نَدَّ مِنَّا

(الضرب التاسع)

(المعكوس)

وله في التجنيس حلاوةٌ ويفيد الكلام رونقاً وطلاوةً ،

وقد سماه قدامة الكاتب بالتبديل ، وكل واحد من اللقيين
يصدق عليه ، لأن صاحبه يقدم المؤخر من الكلام ويؤخر
المقدم منه ، فهذا لقبه بالعكس ، وهكذا فإنه يبدل
الألفاظ فيقدم ما كان منها مؤخراً ويؤخر ما كان منها مقدماً ،
ويقع في الألفاظ والحروف جميعاً فهذان وجهان ، الوجه الأول
منهما أن يكون واقعاً في الألفاظ ، ومثاله قول بعضهم :
عادات السادات ، سادات العادات ، وكقول الآخر شيم
الأحرار أحرار الشيم ومنه قول الاضبط

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكلِهِ

ويا كلَّ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهُ

ويَقْطَعُ الثوبَ غيرُ لا بِسِهِ

ويَلْبَسُ الثوبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهُ

ومن ذلك ما قاله الشريف المرتضى يذم الزمان وأهله
أَسْفَ بَمَنْ يَطِيرُ إِلَى الْمَعَالِي وَطَارَ بَمَنْ يُسِفُ إِلَى الدُّنَايَا
وكقول الآخر

إِنَّ اللَّيَالِيَّ لِلْأَنَامِ مَنَاهِلُ

تُطَوَّى وَتُنَشَرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ

فقصارهن مع الهموم طويلة

وطوالهن مع السرور قصار

ومن هذا قوله تعالى (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) وقوله صلى الله عليه وسلم : جَارُ الدَّارِ

أَحَقُّ بِدَارِ الْجَارِ ، ومن ذلك ما قاله أمير المؤمنين كرم الله

وجهه من كتاب كتبه الى عبد الله بن العباس أمّا بعدُ فَإِنَّ

الإنسان يسره دَرَكُ ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فَوْتُ ما لم

يكن ليُدْرِكُه ، فلا تكن بما نلتَ من دنياك فَرِحاً ، ولا بما

فاتك منها تَرِحاً ، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ،

ويؤخرُ التوبة بطول أمل ، قال ابن عباس ما انتفعتُ بكلام

بعد كلام الله تعالى مثل هذا الكلام ، وأنا أقول أيضاً ما قرع

مسامعي مرّة بعد مرّة الا وأحدث لي موعظةً ، وأنشأ لي

عن الغفلة يقظةً ، وحكى عن أبي تمام أنه لما قصد عبد الله

ابن طاهر بخراسان وامتدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها

(هن عوادي يوسف وصواحيبه) أنكر عليه ابو سعيد الضرير

وابو العميثل هذا المطلع ، وقال له ، مالك تقول ما لا تفهم

فقال لم لا تفهما ما يقال ، فاستحسن منه هذا الجواب على

الفور ، فهذا معكوس الألفاظ ، الوجه الثاني أن يكون واقعاً

في الأحرف وهذا كقوله تعالى (كلُّ في فَلَكَ) فإ هذا
معكوسه ومستويه متماثلان كما ترى ، وليس مما نحن به ، وإنما
الذي نريد ذكره ههنا هو أن مستويه يفيد معنى ، ومعكوسه
يفيد معنى آخر ، ومثاله ما قاله بعض الأذكياء من أهل الشعر

أهديت شيئاً يقلُّ لولا أهدوثةُ الفأل والتبرُّك
كُرسي تفاءلتُ فيه لَمَّا رأيتُ مقلوبه يسُرُّك
وهكذا قال غيره

كيف السرور بإقبالٍ وآخره
إذا تأملته مقلوب إقبال
وأراد أن مقلوب إقبال لا بقاء ، ولقد صدق فيما قال فانه
لا سرور في الحقيقة بإقبالٍ آخره التغير والانتقال ، ومن
هذا ما قاله بعضهم

جاذبتُها والريحُ تجذبُ عقرباً
من فوق خدِّ مثلِ قلبِ العقربِ
وظفقتُ الشَّمُّ ثغرَها فتمنعتُ
وتحجبتُ عني بقلبِ العقربِ
فقلبُ العقربِ الأول هو عبارة عن الكوكب الأحمر ،

وقلبُ العقرب الثاني هو عبارة عن البرقع، لأنه قلبه اذا قلبته اليه

﴿ الضرب العاشر تجنيس الإشارة ﴾

وهو أن لا يذكر أحد المتجانسين في الكلام ولكن يُشار اليه بما يدلّ عليه وهذا كقول بعضهم

حَلَقَتْ لِحْيَةَ مُوسَى بِاسْمِهِ وَبِهَرُونَ إِذَا مَا قَلْبًا
ولا شك أنك اذا قلت هرون من آخره فهو يكون
نوره، لكنه لم يذكر لفظ النوره ولكنه أشار اليها إشارة
بقوله (وبهرون اذا ما قلبا) ومن ذلك ما قال بعضهم

وما أروى وإن كرمت علينا

بأذني من موقفة حرون

يُطِيفُ بِهَا الرُّمَاءُ فَتَقِيهِمْ

بأوعالٍ مُعَطِّفَةِ القرون

فقوله (أروى) المذكورة في البيت هي المرأة وقوله
موقفة حرون ، يشير بها الى (أروى) الأوعال وأراد أن هذه
المرأة التي اسمها (أروى) ليست بأقرب من التي في الجبال ،
لكنه أعرض عن ذكرها ، فهذا ما أردنا ذكره في التجنيس

﴿ الصنف الثاني الترصيع ﴾

وهو في لسان علماء البيان مقولٌ على ما كان من المنظوم والمنثور من الكلام ، أَلْفَاظُ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ فِيهِ مَسَاوِيَةٌ لِأَلْفَاظِ الْفَصْلِ الثَّانِي فِي الْأَوْزَانِ وَاتِّفَاقِ الْأَعْجَازِ ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ تَاجٌ مُرْصَعٌ إِذَا كَانَ فِيهِ حَلِيَّةٌ ، وَالتَّرْصِيعُ التَّرْكِيبُ ، وَيُرَدُّ فِي الْكَلَامِ عَلَى وَجْهَيْنِ ، الْوَجْهُ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا أَنْ يَكُونَ كَامِلًا ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ كُلُّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مَسَاوِيَةً لِكُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِ الْفَصْلِ الثَّانِي فِي الْأَوْزَانِ وَالْقَوَافِي مِنْ غَيْرِ مَخَالَفَةٍ لِأَحَدِهِمَا لِلثَّانِي فِي زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ ، وَمَا هَذَا حَالُهُ فَانَّهُ يَمِيزُ وَجُودُهُ ، وَقَلِيلًا مَا يَقَعُ فِي كَلَامِ الْبَلْغَاءِ لِصُعُوبَةِ مَأْخُذِهِ ، وَضَيْقِ مَسْلُكِهِ وَلَمْ يُوجَدْ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ جَاءَ بِالْأَخْفِ وَالْأَسْهَلِ ، دُونَ التَّعَمُّقِ النَّادِرِ ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ أَخْرَسَ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ ، وَأَيْسَرَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتِيَ بِلَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهِ أَوْ بِأَقْصَرِ سُورَةٍ مِنْ سُورِهِ ، وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ يَوْجَدُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَمِثْلُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) وَهَذَا جَهْلٌ بِمَعْنَى التَّرْصِيعِ وَتَرْكِيبِهِ ، فَإِنَّ

الفجار لا يُماثل الأبرار في وزنه ، وهكذا قوله (لفي) فإنه
كررها في الفقرتين جميعاً ، فما هذا حاله فانما هو تجنيس ،
وليس ترصيعاً ، وإنما يكون من الترصيع لو قال : إن الأبرار
لفي نعيم وإن الأشرار لمن جحيم ، فيكون الأشرار مقابلاً
للفظ الأبرار ، والجحيم مقابلاً للنعيم ، (ومن) مقابلة (لفي)
في الوزن والقافية ، فهو إنما يؤثر على جهة النُدرة على الشرط
الذي ذكرناه ، فمن ذلك ما وقع في الحريريات من قوله :
يَطْبَعُ الأَسْجَاعَ بِجَواهِرِ لَفْظِهِ ، وَيَقْرَعُ الأَسْمَاعَ بِزَواجِرِ
وَعَظِهِ ، فجميع ما وقع في السجعة الثانية مطابق لما وقع في
السجعة الأولى في الوزن والتقفية من غير زيادة ولا نقصان
(فيقرع) بإزاء (يطبع) (والأسماع) في مقابلة (الأسجاع)
(وزواجر) بإزاء (جواهر) و (وعظه) في مقابلة (لفظه)
ومن ذلك ما قاله الشيخ عبد الرحيم ابن نباتة الخطيب :
الْحَمْدُ لِلَّهِ عَاقِدِ أزمَةِ الأُمُورِ بِعِزِّ أَمْرِه ، وَحاصِدِ أئمَّةِ العُرُورِ
بِقَواصِمِ مَكْرِهِ ، ثم قال في أثناء هذه الخطبة أولئك الذين
رَحَلُوا فَأَقَمْتُمْ ، وَأَفَلُوا فَنَجَمْتُمْ ، فما هذا حاله ترصيع بالمعنى
الذي ذكرته من غير مخالفة ، ومن ذلك ما حكى عن ابن الأثير

في كلام له قال فيه : والحسن ما وشتته فطرته التصوير ، لا ما حسنته فكرة التزوير ، ومن كلامه قوله من قوم أود أولاده ، ضرّم كمد حسّاده ، وفي كلام ابن الأثير ههنا نظراً ، لأن الأولاد ليس مماثلاً للحساد ، ومن ذلك ما قاله بعض العرب من أطاع غضبه ، أضاع أدبه ومن المنظوم ما قاله بعض الشعراء

فكارمٌ أوليتها متبرعاً وجرائمٌ ألفتها متورعاً
فقوله مكارم ، بازاء جرائم ، وأوليتها في مقابل ألفتها ، ومتبرعاً في مقابلة متورعاً ، فما هذا حاله لا يقع فيه نزاع بين أهل البلاغة في كونه معدوداً من باب الترصيع ، لاجتماع الفقرتين في الوزن والقافية ، الوجه الثاني ويقال له الناقص ، وهو أن يختلف الوزن وتستوى الأعجاز ، ومثاله قوله تعالى ، (إن الأبرارَ لفي نعيمٍ وإن الفجارَ لفي جحيمٍ) فاختلف الوزنين في الأبرار ، والفجار ، لا يخرجهم عن كونه ترصيعاً ، وهكذا ما حكى عن ابن نباتة من قوله : وموفق عبيده لمغانم ذكره ، ومحقق مواعيده بلوازم شكره ، وقوله : أيها الناس أسيموا القلوب في رياض الحكم ، وأديموا النحيب على ايضاض

اللَّمَمَ ، وَأَطِيلُوا الْاِعْتِبَارَ بِاِنْتِقَاصِ النِّعَمِ ، وَأَجِيلُوا الْاِفْكَارَ فِي
اِنْقِرَاضِ الْأُمَمِ ، فَمَا هَذَا حَالَهُ لَمْ تَتَّفَقْ فِيهِ الْأَوْزَانُ وَلَكِنْ
اسْتَوَتْ فِيهِ الْأَعْجَازُ ، وَكَقَوْلِ الْخَنَسَاءِ فِي أُخْيَاهَا صَخْر

حَامِي الْحَقِيقَةِ مَحْمُودُ الطَّرِيقَةِ

مَهْدِيُّ الْخَلِيقَةِ نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ

جَوَّابُ قَاصِيَةِ جَزَّازُ نَاصِيَةِ

عَقَّادُ أَلْوِيَةِ لِلخَيْلِ جَرَّارُ

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنْ أَلَيْنَا إِيَّاهُمْ ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا

حَسَابَهُمْ) وَمِنْهُ قَوْلُ الْآخِرِ

سُودٌ ذَوَائِبُهَا بِيضٌ تَرَائِبُهَا

مَخْضٌ ضَرَّائِبُهَا صِيغَتْ بِنِ الْكَرَمِ

فَقَوْلُهُ ذَوَائِبُهَا ، وَتَرَائِبُهَا ، مُخْتَلَفٌ فِي الْوِزْنِ كَمَا تَرَى ،

وَمِنْهُ قَوْلُ ذِي الرِّمَّةِ

كَحَلَاءٍ فِي بَرَجٍ صَفْرَاءٍ فِي دَعَجٍ

كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبٌ

فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ هَلْ يَكُونُ مَعْدُودًا مِنَ التَّرْصِيعِ أَمْ لَا ؟

فَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ الْبَلَاغَةِ كَالْمَطْرُزِيِّ وَعَبْدِ الْكَرِيمِ

صاحب البيان وغيرهما أنه لا محالة معدودٌ منه وإن كان مخالفاً في الزّنة ، فأما ابن الأثير فقد أبى عدّه منه ، وزعم أنه لا يعدُّ في الترصيع إلا الوجه الاول ، والأمر فيه قريب ، والمختار ما عليه الأكثر ، لأنه لا يعدُّ في التجنيس كما مرّ بيانه ، وإذا بطل كونه تجنيساً وجب القضاء بكونه ترصيعاً إذ لا قائل بكونه خارجاً عن البابين

✽ الصنف الثالث التطبيق ✽

ويقال له التضادّ ، والتكافؤ ، والطّباق ، وهو أن يؤتى بالشيء وبضدّه في الكلام كقوله تعالى (فليضحكوا قليلاً وليبنكوا كثيراً) واعلم أن هذا النوع من علم البديع متفقٌ على صحّة معناه وعلى تسميته بالتضادّ والتكافؤ ، وإنما وقع الخلاف في تسميته بالطّباق والمطابقة والتطبيق ، فأكثر علماء البيان على تلقيبه بما ذكرناه ، الا قدّامة الكاتب ، فانه قال لقبُ المطابقة يليق بالتجنيس ، لأنها مأخوذة من مطابقة الفرس والبعير لوضع رجله مكان يده عند السير ، وليس هذا منه ، وزعموا أنه يسمى طباقاً من غير اشتقاق ، والأجود تلقيبه

بالمقابلة ، لأن الضدين يتقابلان ، كالأسود والبياض ، والحركة
والسكون ، وغير ذلك من الأضداد من غير حاجة الى تلقيبه
بالطباق والمطابقة ، لأنهما يُشعران بالتماثل بدليل قوله تعالى
(سَبَعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا) أى متساوياتٍ ، ومنه طابقتُ النعلَ ،
أى جعلته طاقاتٍ مترادفاتٍ ، فإذن الأخلقُ تلقيبٌ هذا
النوع بما ذكرناه من المقابلة ، ولا يلقب بالطباق كما قاله
جوابُ البلاغة وتقادها البصيرُ والمهيمنُ على معانيها وخريتها
الخبيرُ قدامةُ بن جعفر الكاتب فاذا تمهدت هذه القاعدة ،
فلنذكر كيفية التقابل في الكلام ، لأن الشيء ربما قوبل
بضده لفظاً ، وربما قوبل بضده من جهة المعنى ، وتارة يُقابل
بمخالفه ، ومرّة يُقابل بما يُماثله ، فهذه ضروب أربعة لا بد
من تقريرها وتفصيلها بمعونة الله تعالى

✽ الضرب الأول في مقابلة الشيء بضده ✽

من جهة لفظه ومعناه ومثاله قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ
بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) فانظر الى هذا التقابل العجيب في هذه
الآية ما أحسن تأليفه وأعجب تصريفه ، فلقد جُمع فيه بين

مقابلات ثلاث ، الأولى منها مأمور بها والثلاث التوابع
منهية عنها ، ثم هي فيما بينها متقابلة أيضاً ، ومن ذلك قوله
تعالى (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً) فهذا وما شاكله
فيه مقابلتان ، الضحك بالبكاء ، والقليل بالكثير ، ومن ذلك
قوله تعالى (لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا
آتَاكُمْ) فقابل الفرح بالحزن الى غير ذلك من الآيات
الدالة على الأضداد ، ومنه قوله تعالى (واعبدوا الله ولا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) فقابل الامر بالنهي وهما ضدان ، وقوله
تعالى في قصة لقمان (واقصِدْ فِي مَشِيكَ وَاغْضُضْ مِنْ
صَوْتِكَ) ثم قال (وَلَا تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي
الْأَرْضِ مَرَحًا) فهناك عن المصاعرة ، والمشي في الارض
مرحاً ، وأمره بالقصد في المشي والغض من الصوت ، الى أمثال
له في القرآن كثيرة ، ومن السنة النبوية قوله صلى الله
عليه وسلم خيرُ المالِ عينٌ سَاهِرَةٌ لعين نائمة ، فجمع فيه بين
السهر والنوم وهما ضدان ، وأراد بالحديث أن أفضل
الأموال هو هذه الأنهار الجارية فانها تجري ليلاً ونهاراً
وصاحبها نائمٌ ، لا يشعر بحالها ، ومن ذلك ما روتهُ

عائشةُ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لها : عليكِ
بالرفقِ يا عائشةُ ، فإنه ما كان في شيء إلا زانهُ ، ولا نُزع من
شيء إلا شانهُ ، فجمع بين الزين والشين وهما ضدان ، ومن ذلك
ما ورد في كلام امير المؤمنين كرم الله وجهه قال في بعض
خطبه : الحمد لله الذي لم يسبق لهُ حالٌ حالاً ، فيكونَ أولاً
قبل أن يكونَ آخرًا ، ويكونَ ظاهرًا قبل أن يكونَ باطنًا ،
كلُّ مُسمًى بالوحدَةِ غيره قليلٌ ، وكلُّ عزيزٍ غيره ذليلٌ ، وكلُّ
قوىٍ غيره ضعيفٌ ، وكلُّ مالكٍ غيره مملوكٌ ، وكلُّ قادرٍ غيره
يقدرُ ويعجزُ ، وكلُّ سميعٍ غيره يصمُّ عن لطيف الأَصوات ،
ويُصمُّه كثيرها ، وكلُّ بصيرٍ غيره يَعْمَى عن خفيِّ الألوانِ
ولطيفِ الاجسامِ ، وكلُّ ظاهرٍ غيره غيرُ باطنٍ وكلُّ باطنٍ
غيره غيرُ ظاهرٍ ، فهذه مقابلات ثمانية قد جمع بينها في صدر
هذه الخطبة مع ما فيه من السلاسة وجودة السبك ، ومن
ذلك ما قاله خطاباً لعثمان : **إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ ، وَالْبَاطِلُ**
خَفِيفٌ وَبِيٌّ ، وَأَنْتَ رَجُلٌ إِنْ صَدَّقْتُكَ سَخَطْتُ وَإِنْ كَذَبْتُكَ
رَضِيتُ ، فَتَقَابَلِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَالثَّقِيلَ الْمَرِيَّ بِالْخَفِيفِ
الْوَبِيِّ ، وَالصِّدْقَ بِالْكَذِبِ ، وَالسَّخَطَ بِالرِّضَا ، فَهَذِهِ خَمْسُ

مقابلات قد اشتمل هذا الكلام القصير الذي أناف على كل غاية في بلاغته ، ورقة لفظه وسلاسته ، وله عليه السلام من الطباق والجمع بين الأمور المتضادة خاصة في علوم التوحيد وأحوال القيامة شئٌ كثير ، وقال الحجاج بن يوسف حين أراد قتل سعيد بن جبير : فلما أُخْضِرَ اليه أمرٌ من كِبِّه ، ثم قال مَنْ أَنْتَ فقال أنا سعيد بن جبير فقال له : بل انت شقىٌّ بن كُسيرٍ فقابل سعيد بشقى وجبِير بكُسير ، وكان الخبيث من المعدودين في الفصاحة ، والمشار إليهم في البلاغة ، ومن كلام البلغاء قولهم : من أقعدته نكايَةُ اللثام ، أقامته إعانة الكرام ، ومن ألبسه الليل لونَ ظلمائه ، نزعَ النهار عنه بضيائه ، ومن الحريريات قوله لا رُفِعَ نَعشُكَ ، ولا وُضِعَ عرشُكَ ، وقوله : ومن حكم بأن أْبْدَلَ وَيَخْزَن ، وألِين وَيَخْشَن ، وأذوب وَيَجْمُد ، وأذكو وَيَخْمُد فهذه كلها تقائض قد جمعها ، وقال بعض وزراء الفرس لَمَّا مات الأمير : حرَّ كْنَا بِسكونه ، ومن ذلك ما قاله ابن الاثير في بعض رسائله قال فيه : صدرَ هذا الكتاب عن قلب ما نوس بِلِقائِهِ وطرف مستوحشٍ لفراقه ، ومن المنظوم ما قاله البحرى

أما والذي أبكى وأضحك والذي
أمات وأحيى والذي أمره الأمرُ

ومنه قول دعبيل

لا تعجبي يا سلمُ من رجلٍ

ضحك الشيبُ برأسه فبكى

فانظر كيف جمع في الأول بين الضحك والبكا ، وبين
الاحياء والإماتة ، وفي الثاني بين الضحك والبكا لا غير ، ومنه
ما قاله أبو تمام

ما إن ترى الأحسابَ يضاوضحاً

الابحيث ترى المنايا سودا

ومنه قول الفرزدق

قبح الآلهُ بني كليبٍ إنهم لا يغدرون ولا يفنون بحارِ

ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المتنبي والطباق قليل في

شعره قال

ثقالٌ إذا لاقوا خفافٌ إذا دُعوا

كثيرٌ إذا شدوا قليلٌ إذا عدوا

فهذا ما يتعلق بهذا الضرب

﴿ الضرب الثاني ﴾

(في مقابلة الشيء بضده من جهة معناه دون لفظه)

ومثاله قوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) فقوله يهدي ويضل من باب الطباق اللفظي ، وقوله يشرح صدره مع قوله يجعل صدره ضيقا حرجا من الطباق المعنوي ، لأن المعنى بقوله يشرح يوسعه بالايان ويفسحه بالنور حتى يطابق قوله ضيقا حرجا وهكذا قوله تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) فقوله كذب وصدق ، وقوله اليسرى واليسرى من باب الطباق اللفظي ، وقوله أعطى مع قوله بخل ، فإنما هو من الطباق المعنوي ، لأن المعنى في أعطى ، كَرَّمَ ، ليطابق (بخل) في معناه دون لفظه ، ومن ذلك ما قاله البيهقي

يُقَيِّضُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ النَّوْيَ

وَيَسْرِي إِلَى الشُّوقِ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

فقوله : لا أعلم مطابق لقوله (أعلم) من جهة معناه ، لان

معناه من حيث أجهل ، ومن التقابل في الأضداد من جهة
المعنى قول أبي تمام

مَهَا الْوَحْشَ الْإِنَّ هَاتَا أَوَانِسُ

قَنَا الْخَطُّ إِلَّا أَنْ تَلَّكَ ذَوَابِلُ

فأحدُ الإشارتين للحاضر ، وهو قوله (هاتا) وأحدهما
للغائب وهو قوله (تلك) فالضدية حاصلة فيهما من جهة
معناها ، ومن ذلك ما قاله المقنع الكندي من أبيات الحماسة
لهم جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعُ لِي غِنَى

وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدًا

فهذا من الطباق المعنوي ، لأن قوله : إِنْ تَتَابَعُ لِي غِنَى ،
معناه ان أكثر مالى ، وعلى هذا يناقض قوله (قلّ مالى)

﴿ الضرب الثالث ﴾

(فى مقابلة الشىء بما يخالفه من غير مضادة)

وذلك يأتى على وجهين ، الوجه الأول منهما أن يكون
أحدهما مخالفاً للآخر ، خلا أن بينهما مناسبة ، وهذا نحو
قوله تعالى (إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ
يَفْرَحُوا بِهَا) فالمصيبة مخالفة للحسنة من غير مضادة ، إلا أن
المصيبة لا تقارب الحسنة ، وإنما تقارب السيئة ، لأن كل

مصيبة سيئة ، وليس كلُّ سيئة مصيبةٌ ، فالتقاربُ بينهما من جهة العموم والخصوص ، وهكذا قوله تعالى (أشداء على الكفار رَحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) فإن الرحمة ليست ضدًّا للشدة ، وإنما ضدُّ الشدة اللين ، خلا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين ، حسنت المطابقة بينهما ، وكانت المقابلة لاثقة ومن هذا ما قاله بعض الشعراء

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً

وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

فقابل الظلم بالمغفرة ، وليس ضدًّا لها ، وإنما ضدُّه العدل ، الآ أنه لما كانت المغفرة قريبةً من العدل من جهة أن العدل إنصاف الغير بما يجب له أو يستحق عليه أو ترك ما لا يستحق عليه ، والعفو هو المغفرة وهو الصفح والتجاوز ، وهو أعظم أنواع العدل وأعلىها حسنت المطابقة أيضاً، الوجه الثاني ما لا يكون بينهما مقاربةٌ وبينهما بُعدٌ لا يتقاربان، ولا مناسبة بينهما ، ومثاله ما قاله أبو الطيب المتنبي

لَمَنْ تَطَلَّبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا

سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمٍ

فالمقابلة الصحيحة أن تكون بين محبّ ومبغض ، لا بين محبّ ومجرّم ، فان بين المحبّ والمجرّم تباعداً كبيراً ، فانه ليس كلّ من أجرم اليك فهو مبغض لك ، ومما يجرى هذا المجرى ما قاله بعض الشعراء

فكم من كريمٍ قد مناهُ إلهُ

بمذمومةِ الأخلاقِ واسعةِ الهنِّ

فقوله : بمذمومة الاخلاق واسعة الهن ، من باب المقابلة البعيدة التي لا مناسبة فيها وكان الأخلق (بضيقه الاخلاق واسعة الهن)

✽ الضرب الرابع المقابلة للشيء بما يماثله ✽

وذلك يكون على وجهين : الوجه الأول منهما مقابلة المفرد بالمفرد ، وهذا كقوله تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) وقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) وقوله تعالى (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) وقوله تعالى (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) وغير ذلك من الامور المفردة وانما أوردنا ما ذكرناه في أمثلة المفردات ، لأن كل ما ذكرناه في الأمثلة إما مبتدأ وخبرٌ كقوله تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

مثلها) وإِما شَرَطُ ومشروط كقوله تعالى (مَنْ كَفَرَ فَعَلِيهِ
كُفْرُهُ) وكلُّه معدودٌ في حيز المفردات ، فهذا عددناه في
قسم المفرد ، فضابط المائلة أن كلَّ كلام كان مفتقراً الى
الجواب ، فإنَّ جوابه يكون مماثلاً كما قررناه ، وإن كان غير
جوابٍ جاز وروده من غير مماثلة لفظية ، ولهذا ورد قوله
تعالى (مَنْ كَفَرَ فَعَلِيهِ كُفْرُهُ) ولو قال من كفر فعليه جرُّه ،
جاز ذلك ، لكن الاحسن المائلة كما اسلفناه فأما اذا كان
وارد في غير جواب ، فانه لا يلتزم فيه هذه المراعاة اللفظية ومثاله
قوله تعالى (وَوَفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)
ولو أراد المشاكلة اللفظية لقال : وهو أعلم بما يعملون ، لأن
العمل والفعل مستويان من جهة المعنى ، وهكذا قوله تعالى
(وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبَا اللَّهِ وآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) لأن الخوض واللعب هما من جهة
المعنى استهزاءً بالله وإِعْرَاضٌ عن أمره وأمر رسوله ، ولو أراد
المشاكلة لقال: أفى الله وآياته ورسوله كنتم تخوضون وتلعبون ،
فهذا ما يتعلق بالمفرد ، الوجه الثاني مقابلة الجملة بالجملة وهذا
كقوله تعالى (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)
وقوله تعالى (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا) وقوله

تعالى (قلْ إِنِّ ضَلَلْتُ فَأَيَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي) والجملة الشرطية مترددة بين عدتها في باب المفرد والجملة ، فإن عدت في المفردات فلأنها وإن كانت نجلاً لكنها قد نقصت عن الاستقلال بمقد حرف الشرط لها عقداً واحداً ، وإن عدت في الجملة فلأن الظاهر من الشرط والجزاء جملتان ، فلما كان الأمر كما قلناه جاز فيها الوجهان ، وقد تكون الجملتان ما ضيتين ، أو مضارعتين ، أو تكون الأولى مضارعة ، والثانية ما ضية ، وبالعكس من هذا ، وأمثلة ذلك موجودة في القرآن كثيرة فهذا ما اردنا ذكره في المقابلة

﴿ تنبيه ﴾

اعلم أننا لما فرغنا من تقسيم المقابلة وبيان أمثلتها فلنذكر على أثره الكلام في المواخاة بين المعاني ، والمواخاة بين الالفاظ ، فأما المواخاة اللفظية فانه ينبغي ويحسن مراعاتها ، كالأفراد والتثنية والجمع وغير ذلك من الأحكام اللفظية ، فإذا كان الأول مفرداً استحب في مقابله أن يكون مفرداً مثله ، وهكذا إذا كان مجموعاً ، ومن ثم عيب على أبي تمام قوله في وصف الرماح

مُتَقَفَّاتٍ سَلَبْنَ الْعُرْبَ سُمُرَّتَهَا

وَالرُّومَ زُرُقَتَهَا وَالْعَاشِقَ الْقَصِيفَا

فلما ذكر العرب والروم كان الأخلق به ان يقول
(والعشاق) ليوافق الأول في كونها جموعا كلها، وكذلك لما
ذكر الزرقة والسمره كان الأولى أن يقول (دقتها) أو يقول
(قصفها) ليطابق ما سبق من ذلك وهكذا ورد في قول
ابن نواس في وصف الحجر قال

صفراء مجدها مرازبها جلت عن النظراء والمثل

فجمع ثم افرد في معنى، فكان الأحسن أن يقول
(والامثال) ليطابق النظراء، أو يقول (النظير) ليطابق
(المثل) وهكذا ورد قوله أيضا على مثل ذلك

الا يا ابن الذين فنوا فماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى
وما لك فاعلمن فيها مقام إذا استكملت آجالاً ورزقاً

وكان الأحسن أن يقول: إمّا آجالاً ورزقا فيفردهما
جميعاً، وإمّا أن يقول: آجالاً واززاقاً، فيجمعها جميعاً من
غير مخالفة بينهما، وهذا الذي ذكرناه من هذه المراعاة ليست
على جهة الوجوب، بل المراد من ذلك طريقة الحسن والإعجاب،

ولهذا ورد في كتاب الله تعالى كقوله تعالى (طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) وقوله تعالى (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) وقوله تعالى (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً) فلو كان زكيا لما ورد في القرآن، وهو أفصح الكلام كله، هذا كله في اعتبار المؤاخاة اللفظية، وأما المؤاخاة المعنوية فهي واردة في القرآن كثيرا، وهذا إنما يكون في فواصل الآي، فانها تأتي مطابقة على ما سبق من معنى الآية ومثاله قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبُغُ الْأَرْضَ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) وكقوله تعالى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَهَوَّ الْغَنَى الْحَمِيدُ) وقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) فالآية الأولى إنما فصلها بقوله (لطيف خبير) لما فيه من المطابقة لمعناها، لأنه ضمنها ذكر الرحمة للخلق بإنزال الغيث لما فيه من المعاش لهم ولأنعامهم، فكان لطيفا بهم خيرا بمقادير مصالحهم، وأما الآية الثانية فانما فصلها بقوله

الغنى الحميد ، ليطابق ما أودعه فيها ، لأنه لما ذكر أنه مالكٌ لما في السموات والارض لا حاجة ، قابله بقوله هو الغنى ، أى عن كل شئ لأن كل غنى لا يكون نافعا بغناه الا اذا كان جوادا به منعا على غيره فإنه يحمد المنعم عليه ، فذكر (الغنى) ليدل به على كونه غير مفتقر اليها ، وذكر (الحميد) لَمَا كان جوادا بها على خلقه ، فلا جرم استحق الحمد من جهتهم ، وأما الآية الثالثة فإنما فصلها (برءوف رحيم) لأنه لما عدد جلائل نعمه وكانت كلها مسخرة مدبرة وكانوا لولا رحمته متعرضين بصددها لتألف عظمة من الاهوال البحرية والآفات السماوية ، فلما كانت في أنفسها متعرضة لهذه الأمور عقبها بذكر الرأفة والرحمة لينبئ على كمال لطفه وعظيم رحمته بالخلق ، وهكذا القول في سائر الفواصل القرآنية ، فإنك لا تزال تطلع منها على فوائد مناسبة لتلك الفاصلة كما أشرنا اليه

﴿ الصنف الرابع رد العجز على الصدر ﴾

أعلم أنا قد ذكرنا الاشتقاق فيما سلف وقررنا أسرارهُ ، فأما ردّ العجز على الصدر فظاهر كلام المطرزي وعبد الكريم صاحب التبيان أن أحدهما مخالف للآخر ، ولهذا أفردا

لكل واحد منهما بابا على حياله ، وكلاهما معدود في علم
البديع ، والذي عندي أنهما متقاربان ، وأن ردّ العجز على
الصدر أعمّ من الاشتقاق ، لأن ردّ العجز على الصدر كما يرد
في مختلف اللفظ ، فقد يكون واردا في التساوي ، بخلاف
الاشتقاق ، فإنه إنما يكون واردا فيما اختلف لفظه وبينهما
جامع في الاشتقاق وقد مرّ فلا وجه لتكريره ، والذي نتعرض
لذكره إنما هو ردّ العجز على الصدر كما تقرره بمعونة الله ، وهو
واردٌ في النظم تارة ، وفي النثر أخرى ، ويأتي على ضرب

(الضرب الاول) أن يكون الصدر والعجز متفقين في
الصورة ، وهذا كقوله تعالى (وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ
تَخْشَاهُ) وقوله تعالى (لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ
بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى) ومن كلام البلغاء : الحيلة
تركُ الحيلة ، وقولهم : القتلُ أنقى للقتل ، وفي الحريريات :
وتحمي عن المنكر ولا تتحاماه ، ومن النظم ما قاله بعض الشعراء

سُكْرَانِ سُكْرُ هَوَى وَسُكْرُ مُدْمَةٍ

أَنِي يُفِيقُ قِيَّ بِهِ . سُكْرَانِ

(الضرب الثاني) أن يتفقا صورة ويختلف معناهما ، وهو

يأتي أحسن من الأول وأدخل في الاعجاب ، وهذا كما قاله بعضهم

يَسَارٌ مِنْ سَجِيَّتِهَا الْمَنَائِبَا وَيُتَمَنَّى مِنْ عَطِيَّتِهَا الْيَسَارُ
فاليسار الأول هو الجارحة ، واليسار الثاني من الميسرة ،
وهو تقيض الإيسار

(الضرب الثالث) أن يتفقا في المعنى ويختلفا صورة ،
وهذا كقول عمر ابن أبي ربيعة القرشي

واستبدت مرة واحدةً إنما العاجز من لا يستبدت
وقال آخر

تمنيت أن ألقى سليماً ومالكا
على ساعة ينسي الحمام الأمانيا
فقوله تمنيت مع الأمانى متفقان في المعنى مختلفان في
الصورة كما ترى

(الضرب الرابع) ان يتفقا في الاشتقاق ويختلفا في
الصورة ، وهذا مثاله ما قاله بعض الشعراء

ضرائبُ أبدعتها في السما
ح فلسنا نرى لك فيها ضريباً

ومنه قول جرير

أَخْلَبَتْنَا وَصَدَدْتَ أُمَّ مُحَلَّمٍ أَفْتَجَمَعِينَ خِلَابَةً وَصُدُودًا
(الضرب الخامس) أن لا يلتقيا في الاشتقاق ويتفقا في

الصورة ، وهذا كقوله في الحريريات

وَلَا حَ يَلْحَى عَلَى جَرِّي الْعِنَانَ إِلَى

مَلْحَى فَسُحِقًا لَهُ مِنْ لَا تُحِ لَاحِ

لأن قوله (١) لاح بالشيء ، اذا ذهب به ، فالأول بمعنى

الذهاب ، وقوله بعد ذلك لاح اسم فاعل من قولهم لحأه اذا

ذمه ، ولحأه اذا نازعه الأمر ، فالصدر من ذوات الثلاثة ،

والعجز من ذوات الاربعة (٢)

(الضرب السادس) أن يقع أحد اللفظين في حشو

المصراع الأول من البيت ثم يقع الآخر في عجز المصراع الثاني

وما هذا حاله يقع على أوجه ثلاثة ، أولها أن يكونا متفقين

صورة ومعنى ، وهذا كقول ابي تمام

وَلَمْ يَحْفَظْ مُضَاعَ الْعِلْمِ شَيْئًا مِنْ الْأَشْيَاءِ كَلِمَالِ الْمُضَاعِ

(١) هذا غلط. وإنما لاح . بمعنى ظهر

(٢) هذا غلط واضح

وثانيها أن يقعا على هذا الحد ، ويتفقا صورة لا معنى ،
ومثاله قول من قال

لا كان انسانٌ تيمم صائداً صيدَ المَهَا فاصْطَادَهُ إِنْسَانُهَا

وثالثها أن يقعا على هذه الصفة لكنهما يتفقان معنى ،

ويختلفان من جهة الصورة ، ومثاله قول امرئ القيس

إذا المرءُ لم يَخْزُنْ عليه لسانَه فليس على شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانِ

وفي الحريريات

ولو استقامت كانت الـ أَحْوَالُ فيها مستقيمة

(الضرب السابع) أن تقع إحدى الكلمتين في آخر

المصراع الأول موافقة لما في عجز المصراع الثاني ، ومتى كان

الأمر كما قلناه فهو على وجهين ، أحدهما أن تكون الموافقة

في المعنى والصورة ، ومثاله ما قاله أبو تمام في بعض مدائحه

ومَن كان بالبيضِ الكواعبِ مُغْرَمًا

فما زلت بالبيضِ القواضبِ مُغْرَمًا

فالغرامُ بالشئِ ، الولوعُ به ، وهما متفقان في هذا المعنى

كما ترى مع اتفاقهما في الصورة والبناء . وثانيهما أن تكون

الموافقة بينهما في الصورة دون المعنى ، ومثاله ما ورد في

الحريريات

فَشَغُوفٌ بِآيَاتِ الْمَثَانِي وَمَفْتُونٌ بِرَنَاتِ الْمَثَانِي
فالمثاني الاول هو آيات الفاتحة ، وُسِّمِتْ مَثَانِي لَانهَا
تُشْنَى فِي الصَّلَاةِ وَالْمَثَانِي الثَّانِي ، هُوَ مَا يُشْنَى مِنَ الْأُوتَارِ
(الضرب الثامن) أَنْ يِلَاقِي أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ الْآخَرَ فِي

الاشتقاق ويخالفه في الصورة ، ومثاله قول البحري

فَفَعَلْتُكَ أَنْ سَأَلْتَنَا مُطِيعٌ
وَقَوْلُكَ إِنْ سَأَلْتَنَا مُطَاعٌ

فكلاهما مشتق من الطاعة ، لكن الأول اسم فاعل
من أطاع ، والثاني اسم مفعول من أطاع أيضاً
(الضرب التاسع) ان يقع أحدهما في أول المصراع الثاني

موافقاً لما في عجزه صورةً ومعنىً ، ومثاله قول بعضهم

وَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مُعْرَجٌ سَاعَةً
قَلِيلًا فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلًا

فالقليل الأول والثاني مستويان في لفظها ومعناها ،
وَلَا يَقْدَحُ كَوْنُ أَحَدِهِمَا مَعْرِفَةً وَالْآخَرَ نَكْرَةً فَيَا نَحْنُ فِيهِ ،
فإن ذلك بمعزل عما نريده في المثال

(الضرب العاشر) أَنْ يَكُونَا مُشْتَبِهَيْنِ فِي الْاِشْتِقَاقِ
لِظَفَاءً ، وَالْمَعْنَى بِخِلَافِهِ ، وَمِثَالُهُ مَا وَرَدَ فِي الْحَرِيرِيَّاتِ وَهُوَ قَوْلُهُ

ومُضْطَلَعٌ بِتَلْخِيصِ الْمَعَانِي وَمُطَّلَعٌ إِلَى تَخْلِيصِ عَانِي
فالمعاني الأول ، اشتقاقها من عَنَاه الامر يعنيه اذا ألم به
بقلبه ، ولامه ياء كما ترى ، والمعاني الثاني ، اشتقاقه من عنا يعنو
اذا هلك والعناء هو الهلاك ، ولامه واو فهما يشتبهان في اللفظ ،
ويبينهما ما ترى من المخالفة وقوله مضطلعٌ ، وزنه (مفتعلٌ)
من قولهم اضطلع الامر ، إذا نهض به وقوله (مطلع) وزنه
(مفتعلٌ) من اطلع على الشيء اذا أشرف عليه ، فهذا ما أردنا
ذكره في كيفية رد العجز على الصدر على هذه الكيفيات
المختلفة ، وقد عدّ علماء البيان في ذلك أنواعا كثيرة لم ترد في
كلام البلغاء فأعرضنا عن ذكرها كما أعرض عنها غيرنا من
أرباب هذه الصناعة وبالله التوفيق

﴿ الصنف الخامس لزوم ما لا يلزم ﴾

ويقال له الإِعْنَاتُ ، ويرد في المنظوم والمنثور من الكلام ،
ومعناه في لسان علماء البيان أن يلتزم الناظم قبل حرف الرويِّ
حرفا مخصوصا ، أو حركةً مخصوصة من الحركات قبل حرف
الروي أيضا ، وهكذا القول في الرِّدْفِ ، فانه يجعله على حدِّ
حرف متماثلٍ ، وهكذا اذا ورد في النثر يكون على هذه

الطريقة كما سنوضحه بالامثلة ، فحاصلُ الأمر في لزوم ما لا يلزم ، هو أن يلتزم حرفاً مخصوصاً قبلَ حرفِ الروى من المنظوم أو حركة مخصوصة ، فما هذا حاله اذا التزمه النائر أو الناظم فهو إعناتٌ لنفسه وكدٌّ لقريحته وتوسُّعٌ في فصاحته وبلاغته ، وإن خالفه فلا عيبَ عليه في ذلك ، وكان له في تغييره مندوحةٌ بخلاف ما اذا كان قبل حرف الروى ردِّفاً وهو الواو والياء ، فإن ما هذا حاله لا يجوز تغييره الى غيره ، فلا يقال إنه من باب لزوم ما لا يلزم ، بل لازمٌ للنائر والناظم أن يأتي به على حاله ، خلافاً أنه يجوز معاقبة الواو للياء ، ومعاقبة الياء للواو ولا يجوز معاقبة الألف لهما ، فعلى هذا يجوز عمودٌ ، وشديدٌ ، ولا يجوز ميعاد ، في تقابل الأَسْجَاعِ ، ولهذا جاء قوله تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَّشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) فحرفُ الرَّذْفِ ليس من باب لزوم ما لا يلزم ، بل هو لازم بكل حال ، فاذا عرفت هذا فلنورد أمثله لينكشف أمره ، فما جاء منه في التنزيل قوله تعالى (وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) وقوله تعالى (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

مِنْ عَلَقٍ) وقوله تعالى (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ
وَلَا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِه رَيْبِ الْمَنُونِ)
وقوله تعالى (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ
مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ) وقوله تعالى (فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ
بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ
الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ) وقوله تعالى (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ
أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُفَنَّكَ
وَاهْجُرْتَنِي مَلِيًّا) وهذا الأسلوب في القرآن على القلة ، وما
ذاك إلا لأنه غير لازم من الاتيان به في البلاغة والفصاحة ،
وقد عاب ابن الأثير على مَنْ قال (إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنْ الْمُتَّقِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَكَاهِنِينَ بِمَا آتَاهُمُ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ
الْجَحِيمِ) من باب لزوم ما لا يلزم لما ذكرناه ، من أن حرف
الروى يجب التزامه بكل حال على النائر والناظم ، فلا يعدُّ من
هذا الباب ، وإنما يعدُّ قوله تعالى (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ
وَلَكِنْ كَانِ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيََّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ) وهذا بعينه يعدُّ في أمثلة لزوم ما لا يلزم ،

ومن السنة النبوية قوله عليه السلام فإن كان كريماً أكرمك
وإن كان لئيماً أسلمك ، ومن ذلك قوله : وليُحسِن عمله ،
وليُقصِر أمله ، وقوله صلى الله عليه وسلم فلا يُغنى عنكم إلا عملٌ
صالحٌ قد تمتموه أو حسنٌ ثوابٍ حُرِّمُوه ، وقوله : تُبَوِّئُهُمْ
أَجْدَاثَهُمْ وَتَأْكُلُ تُرَائِهِمْ وقوله : حسنت خليقته وصلحت
سريره ، وقوله : إن أفضل الناس عبدٌ أخذ من الدنيا
الكفاف ، وصاحب فيها العفاف ، ومنه قوله : في صفة الدنيا
واهجرُوا لذيدَ عاجلِها لكريمِ آجلِها ، الى غير ذلك من
الامثلة الواردة في كلامه ، ولا تكاد توجد في السنة الا على
القلة كما ذكرنا أنه في القرآن قليل ، ومن طلبه فيها وجدته ،
ومن كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه في مثاله ، وكلامه مملوءٌ
منه ، منه في صفة الموت فكان قد أتاكم بغتةً ، فأسكت
نحيبكم وفرق نديكم ، وعفى آثاركم ، وعطل دياركم ، وبعث
وراثكم يقتسمون تراثكم ، وقال في صفة التقوى : وهى
عشق من كل ملكة ونجاة من كل هلكة ، ومن ذلك قوله :
واعلموا أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل ، واللسان عن
الصدق قليل ، واللازم للحق ذليل ، وقال في خطبة : لا تدركه

الشواهد ، ولا تخويه المشاهد ، وقوله في وصف الفتنة وأهلها:
قوم شديدٌ كلبهم ، قليلٌ سلبهم ، وقوله عليه السلام في صفة
الدنيا : قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر الخضود ،
وصادفتموها والله كالطلح المنضود ، ومن ذلك ما ورد في كلام
البلغاء وهذا كقول عمر رضى الله عنه : ولا يكن حُبُّك
كَلْفًا ، ولا بغضُك تَلْفًا ، ومن ذلك ما قاله ابن الأثير في ذم
رجلٍ يُوصَفُ بالجبين : اذا نزلَ به خطبٌ ملكه الفرق ،
واذا ضلَّ في أمرٍ لم يؤمن الا اذا أدركه الفرق ، فراعاةُ
الراء قبل القاف من باب لزوم ما لا يلزم كما قررناه أولاً ،
ومن ذلك قوله ايضا في كتاب الى بعض إخوانه : الخادم
يُهدى من دعائه وثنائه ما يسلك أحدهما سماءً والآخر
أرضاً ، ويصون أحدهما نفساً والآخر عرَضاً ، فالترام الراء
قبل الضاد لزوم ما لا يلزم ، ومن ذلك ما قاله في كتاب آخر
له : ومهما شدَّ به عضدُ الخادم من الإِنعام فانه قوةٌ لليد التي
خولته ، ولا يقوى تصعدُ السحب الا بكثرة غيها الذي
أنزلته ، وغير خافٍ أن عبيد الدولة لها كالعمد من طرافها ،
ومركز الدائرة من أطرافها ، ولا يؤيد السيف الا بقائمه ، ولا

ينهض الجناح الا بقوادهمه ، فهذه الفواقرُ كلها من باب لزوم
مالا يلزم ، ومن ذلك ما قالته امرأة لقيط بن زُرارة
تثني عليه بعد قتله ، واستخلافها لغيره إنه خرج يوما وقد
تَطَيَّبَ وشَرِبَ فطردَ البقرَ وصَرَخَ منها ، ثم أتاني وبه نَضْحُ
دمٍ فضمَّني ضمةً ، وشمَّني شمةً ، فليتني ميتٌ ممَّهً ، فهذا
الكلام من الباب الذي نحن بصدده ، ومن المنظوم ما قاله ابن
الرومي وكان من أكثر الناس ولعاً بلزوم مالا يلزم في أشعاره

لِما تُؤذِنُ الدنيا به من صُروفها

يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةً يُولدُ

وإِلَّا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهُ

لَأَوْسَعُ مِمَّا كانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ

إِذا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهْلَ كَأَنَّه

بِها سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا يُهَدِّدُ

فالتزام حركة الفتح قبل حرف الروي من باب لزوم

ما لا يلزم كما مر تقريره وقال المعري

ضحِكنا وكان الضحكُ مناسفاهَةً

وَحُقُّ لِسُكَّانِ البَسيطَةِ أَنْ يَبْكُوا

يُحِطُّمُنَا صَرَفُ الزَّمَانِ كَأَنَّنا
دُجَاجٌ وَلَكِنْ لَا يُعَادِلُهُ السَّبَّكُ

وقال في الحريريات

مَنْ ضَامَهُ أَوْ ضَارَهُ دَهْرُهُ

فليقصدِ القاضِيَ في صَعْدَهُ

سِاحَهُ أَزْرَى بِنِ قَبْلَهُ

وَعَدْلُهُ أَتَعَبَ مِنْ بَعْدَهُ

وهذا وأمثاله من باب لزوم مالا يلزم في الحركة والحرف

جميعاً كما ترى ، ومن أبيات الحماسة قوله

ان التي زعمت فؤادك ملها

خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقَتْ هَوَى آهَا

بِيضَاءٍ بِا كَرَهَا النَّمِيمُ فَصَاغَهَا

بِلِبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا

حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقَلْتُ لِمَ صَاحِبِي

مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا

فَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَاوَةِ

شَفَعَ الْفُؤَادُ إِلَى الضَّمِيرِ فَسَلَّهَا

﴿ الصنف السادس في ذكر اللف والنشر ﴾

وهو في لسان علماء البيان عبارة عن ذكر الشئتين على جهة الاجتماع مطلقين عن التقييد ثم يوفى بما يليق بكل واحد منها اتكلاً على أن السامع لوضوح الحال يرُدّ الى كل واحد منهما ما يليق به ، وهو في الحقيقة جمع ثم تفرّق ، واشتقاقهما من قولهم : أَفَّ الثوب إذا جمعه ، وأشر الثياب إذا فرّقها ، ومنه قوله تعالى (وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ) أي يفرّقها في عباده على قدر ما يعلمه من الصلاح ، ومثاله من التنزيل قوله تعالى (وَهِيَ رَحْمَتُهُ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) فجمع بين الليل والنهار بواو العطف ، ثم بعد ذلك أضاف الى كل واحد منهما ما يليق به ، فأضاف السكون الى الليل ، لأن حركات الخلق تسكن ليلاً لأجل النوم ، ثم ذل بعد ذلك (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) أضافه الى النهار ، لأن ابتغاء الارزاق إنما يكون نهاراً بالتصرف والاضطراب ، واكتفى في الاضافة بما يعلم من ظاهر الحال ، وهو أن السكون مضاف الى الليل ، لما فيه من الاستراحة بترك التصرفات ، وأن الابتغاء مضاف الى النهار لما يظهر فيه من الحركة ، ولم

يقول جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار لتبتغوا من فضله ،
إِثَارًا لما يظهر في الآف بعده النشرُ ، من البلاغة وحسن
التأليف ، ومنه قوله تعالى (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ
كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) فقوله وقالوا أراد به اليهود والنصارى
فجمعهما في الضمير ولفهما بذكره ، ثم إنه نشرهما بعد ذلك
بقوله (مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) والتقدير فيه وقالت اليهود
لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان هودا ، وقالت النصارى لن يدخل
الجنة إلا من كان نصرانيا ، فجمعه بما ذكرنا ، ثم فصله ولم
يقول ذلك كل واحد من الطائفتين ، بل أراد التكرير كما
أشرنا إليه ، ومن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وآله : فَإِنَّ
الْمَرْءَ بَيْنَ يَوْمَيْنِ يَوْمٌ قَدْ مَضَى أُحْصِيَ فِيهِ عَمَلُهُ فَحَتَّمْ عَلَيْهِ . وَيَوْمٌ
قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ ، فقوله بين يومين ، يكون
من الآف ، لاشتمالها على ما يكون ماضيا ومستقبلا ، وهذه
هي فائدة اللف ثم إنه نشرهما بعد ذلك بقوله : يوم قد مضى
أحصى فيه عمله ، فهذا يتناول الماضي ، ويوم قد بقي لا يدري
ما يفعل فيه ، وهذا يتناول المستقبل ، فهذه هي حقيقة اللف
والنشر كما قررناه ، ولو لم يُرِدِ الْآفَ وَالنَّشْرَ لَقَالَ فِيهِ : ان المرء
بين يومين يوم قد مضى ويوم قد بقي ، وهو اذا كان على هذه

الصورة لم يكن من هذا الباب في وِرْدٍ ولا صَدَرٍ، ومن هذا قوله صلى الله عليه وآله : وقد رأيتم الليل والنهار كيف يُبليان كلَّ جديدٍ ، ويُقربان كلَّ بعيدٍ ، ويأتیان بكل موعودٍ ، فلفَّ الليل والنهار جميعاً ، ثم فصلَّ أحكامهما بعد ذلك ، وهذا انما يكون لفاً ونشراً اذا كان بليّ أحدهما مخالفاً لبلي الآخر ، وهكذا حال التقريب ، فأماً اذا تماثلا فليس منه ، وفيه تعسفٌ ، والأحقُّ في المثال غيره ، ولو لم يرد اللف والنشر لقال : وقد رأيتم الليل كيف يبلي كل جديد ويقرب كل بعيد ويأتي بكل موعود ، ورأيتم النهار كيف يبلي كل جديد ويقرب كل بعيد ويأتي بكل موعود لم يكن من باب اللف النشر ، ومن ذلك قوله عليه السلام انما يؤتى الناس يوم القيامة من إحدَى ثلاثٍ ، إمّا من شبهةٍ في الدين ارتكبوها ، أو شهوةٍ للذةٍ آثروها ، أو عصبيةٍ لحميةٍ أعملوها ، فاذا لاحت لكم شبهةٌ فاجلّوها باليقين ، واذا عرضت لكم شهوةٌ فاقمعوها بالزهد ، واذا عنت لكم عصبيةٌ فاذا رأوها بالعفو ، فانظر أياًها المتأمل ما حواه هذا الكلام من لطائف الإجمال والتفصيل ، واشتمل عليه من محاسن اللف والنشر ، ومن تأمل كلامه عليه السلام وجد فيه ما يكفي ويشفي من ذلك . ومن كلام

أمير المؤمنين كرم الله وجهه قوله : وما أعدَّ اللهُ للمطيعين
منهم والعصاة من جنةٍ ونارٍ وكرامةٍ وهوانٍ ، فقوله للمطيعين
والعصاة هذا هو اللف وقوله من جنة ونار أراد الجنة لأهل
الطاعة والنار لأهل المعصية وقوله وكرامة وهوان ، أراد
الكرامة لأهل الطاعة والهوان لأهل المعصية ، فإذ حاله
يطلق اتكلاً على قريحة السامع في ردِّ كلِّ شيءٍ إلى ما يليق
به ، ومن ذلك قوله عليه السلام الناسُ ثلاثةٌ ، عالمٌ ربانيٌّ ،
ومتعلِّمٌ على سبيلِ نِجاةٍ ، وهمجٌ رعاعٌ أتباعٌ كلِّ ناعقٍ ،
فأشار بقوله ثلاثة إلى اللف ، ثم نشره بعد ذلك بما أشار إليه
من التفاصيل ، ومن الأمثلة في المنظوم ما قاله بعض الشعراء
أَلَسْتَ أَنْتَ الَّذِي مِنْ وَرْدٍ نِعْمَتِهِ

وورْدٍ حشمتِهِ أَجْنِي وَأُعْتَرِفُ

فقوله : أَجْنِي وَأُعْتَرِفُ ، نشرٌ لما تقدم من اللف فقوله
أَجْنِي ، بيانٌ للورد الذي استعاره للنعمة ، وقوله أُعْتَرِفُ
بيانٌ للورد الذي استعاره للحشمة ، ومن الحريريات قوله
وَبَنُوهاً وَمَغَانِيهِمْ نِجْمٌ وَبُرُوجٌ ، فالنجوم للابناء ، والبروج
للمغاني . وقوله

وَمِنْ قَارِيٍّ مِنْهَا وَقَارِيٌّ
أَضْرًا بِالْجَفُونِ وَبِالْجِفَانِ
فقوله بالجفون ، راجعٌ الى القاريِّ لما يحصل من الخشوع
ولين القلب بقراءته ، وقوله بالجفان ، راجعٌ الى القاري من
القري ، فلفهما أولاً ، ثم نشرهما بعد ذلك . ومن ذلك ما قاله
ابن الرومي

أَرَأَيْتُمْ وَوَجُوهَكُمْ وَسُيُوفَكُمْ
فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَوْنَ نَجُومُ
فِيهَا مَعَالِمٌ لِلْهُدَى وَمَصَالِحٌ
تَجَلُّو الدُّجَى وَالْأُخْرِيَّاتُ رُجُومُ

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث
وأوله الصنف السابع
التخييل

To: www.al-mostafa.com